أيام الكراهية والكلاب
الجزء الأول
خيري حداد أبو عافية

أيام الكراهية و الكلاب / رواية
خيري حداد أبو عافية
الطبعة الأولى ، ٢٠١١

دار اكتب للنشر والتوزيع
١٠ شارع عبد الهادي الطحان، المرج الغربية
موبايل :٠١١٠٦٢٢١٠٣
E mail: dar_oktob@gawab.com
المدير العام :
يحيى هاشم
رقم الإيداع : ٢٠١١/٢٢٠٧
I.S.B.N:٩٧٨-٩٧٧-٤٨٨-١١٦-٢
جميع الحقوق محفوظة©

أيام الكراهية و الكلاب

الجزء الأول

خيري حداد أبو عافية

الطبعة الأولى
٢٠١٠

دار اكتب للنشر والتوزيع

إهداء

إلى :

– ثلاثة سقوني من نهر الحب .. وثلثمائة تجرَّعت منهم كيزاناً من الأحزان ...

– إلي القرية التي فيها عشتُ أيام الكراهية و أسُكتُّ فيها نباح الكلاب ..

– إلي أبي و أمي و أمي لبيبه

- على حرف الترعة -

كنت دائما أبحث عن عالم يوقف الدهشة في داخلي "ولماذا كنت أندهش من عالم صغير حولي " كيف لا أذوب مع الحياة التي يحياها الأطفال حولي "ولا أخفى أنني كنت دائماً أشعر بأنني متميز عن بقية الأطفال الذين يعيشون حولنا.. كنت أذهب معهم وأعود نلعب على حرف الترعة وبجوار حنفيات المياه لصاحبها خليفة.. ولما كنت أعود إلى المنزل كانت أمي تحتويني بعطفها وبحبها وبتلهفها عليّ، ولم يكن الأطفال حولي لهم أم مثل أمي.. كان هؤلاء الأطفال يفضلون أن يبقوا في الشارع وكانت أمهاتهم تطردهم من بيوتهم وكانت أمي الوحيدة من دونهم لا تريدني أن أخرج إلى الشارع أبداً.. وكنت أعرف الأسباب والدوافع التي تدفعها إلى بقائي في البيت.. أن أسقط في مياه الترعة فأغرق.. أن أتعلّم الألفاظ النابيه التي كان الأطفال يتناقلونها بألسنتهم وسلوكياتهم.. أن يرفسني حمار جامح أو يبرطع فوقي جمل شارد.. كانت شوارع القرية لايحكمها عقل وتتحكم فيها الفوضى ومعظم أهل القرية بأطفالها يمشون حفاه ويلعبون في التراب ويقذفون بعضهم بكرات من طين الترعة.. وكان كل نساء قريتي يعملون على جانبي الترعة في غسل الملابس أو في غسل القمح تمهيداً لنشره ثم طحنه.. وعندما كبرت قليلاً كنت أقضي وقتاً طويلاً أجلس على حرف الترعة أمام البيت وكان لنا شجرة توت وشجرة جميز ضخمة زرعهما أبي منذ أكثر من ربع قرن.. ولا خجل

إن قلت أنه كان يستهويني نساء القرية وفتياتها لمّا كن يجلسن أو يقفن في جرف الترعة ليغسلن الملابس والقمح والمواعين.. وكنت أنسى نفسي بالساعات وأنا أتأملهن في صمت وهدوء بالغين و لم أكن أتخيل أن المرأة في قريتي وهي تمشي حافيه وترتدي جلبابها الأسود الطويل أن يكون لها مثل هذه الساقين، وكثيرات منهن لم يكن يرتدين تحت الجلباب شيئا و لم يكن يبالين بوجودي حيث أنني في نظرهن طفل صغير بريئ وهادئ.. وعجب أمي أن أكون بجانب الجميزة كل يوم وأتفرَّج على الترعة وعلى الناس فيها وحولها قائله :

– هذا أأمن لك يابني.. لا تلعب مع الصغار.. إنهم جميعاً أوباش..

– هذا يروق لي.. إنني لن ألعب مع الأطفال ثانية..

– ويروق لي أن أراك من باب السور جالساً في هدوء وأدب أمام عيني إنني بذلك أطمئن عليك من وقت لأخر.. كن دائماً تحت ناظري..

.. وإنني أشعر دائماً بأنني مدين لهذه الترعة وشجرة الجميز ومدين لكل فتاة وإمرأة كانت تقضي أعمالها في ترعة القرية.. وعشقت الجمال من خلال رؤيتي لساق المرأة في قريتي وأي شئ أخر كنت أراه من جسدها.. حيث كنت أبلغ قمة دهشتي وأنا أتأمل عرى النساء في الترعة..

– وقد كان لهذه الدهشة أثار عميقة تكونت في داخل نفسي.. وفي يوم جلست أمام أمي لأقول لها..

- المرأة جميلة يا أمي.. فلماذا تخدم الرجل.. كيف تخدم المرأة الجميلة الرجل المتعجرف.
- هذه سنة الحياة.. ومن قال لك أن المرأة جميلة وليس بها قبح.
- إنني لم أر فيها غير الجمال..
- أنت طفل ولا تدرك أعماق الحياة.. ومن أدراك بجمال المرأة.. إنك لم تر منها غير وجهها.
- ربما أحسست بجمالها في داخلي..
- لا أعرف كيف أتت إليك هذه الأفكار وأنت مازلت طفلاً.
- إن عقلي يا أمي يستوعب كل شئ حولي.
- عندما كنت تلعب مع الأطفال مثلك لم تكن تحدّثني عن هذه الأشياء..
- لقد فقدت كثيراً من أيام عمري حينما كنت ألعب مع الأطفال الأوباش..
- إن معظم من في القرية من أطفال أبناء فلاحين غلابة فقراء فلن يكونوا غير ذلك..
- هل يوجد أطفال مثلي في القرية يقعدون كل يوم عند الجميزة ويتأملون ما يحدث من أعمال في الترعة..
- في الناحية البحرية كلّها لا توجد جميزة على بر الترعة..
- وهل يوجد طفل مثلي يتأمل ما يدور في الترعة..
- لا أعرف.. ربما يوجد ولكن قليل من الأطفال يتأملون ويلقون بأفكارهم مثلك على أمهاتهم..
- وهل تمر الترعة على كل بيوت القرية..

- إن الترعة تمر بأطراف القرية فقط..
- ما هي حدود الترعة من الجنوب..
- ناحية يطلق عليها الكفْر..
- وناحية الشمال..
- بقية بيوت القرية التي تقترب من حقولها..
- وهل يوجد نساء في الكفر ينزلن إلى الترعة ويقمن بأعمالهن مثل هنا..
- نعم مثل هنا تماماً.. ولكن نساء الكفر يا بني أجمل من هنا بكثير..
- لماذا..
- هذه ظاهرة موجودة في معظم القرى ولا أعرف لها سراً..
- إنني أريد أن أذهب إلى هذا الكفر وأقعد على ترعته لأرى جمال النساء هناك.
- كيف لطفل مثلك يتحدث عن النساء والجمال كأنك رجل كبير..
- لا أعرف.. ولكن أكيد الرجال أكبر مني يعرفون أسراراً كثيرة عن الجمال والنساء..
- لا.. إن معظم رجال القرى لا يقّدرون الجمال والنساء ويعرفون القليل عن ذلك..
- لماذا..
- ألم أقل لك إن معظم الرجال في قريتنا غلابه.. أجراء يعملون باليومية.. وليس لديهم أي رصيد من التأمل..

- والرجال أصحاب الأرض..
- لديهم رصيد من الطموح في إنتاج محاصيل وفيرة وجمع المال..
- ولكن الحياة في حاجة إلى رجال يتذوقون الجمال..
- هذا مساحته قليلة في قريتنا ولا يعرف الرجل الموسر جمال المرأة إلاّ في غرفة نومه..
- هذا جميل..
- هذا ثقيل يابني.. إنه يتعامل معها كأنها حيوانه جميله وليست إنسانه..
- كيف..
- الرجل هنا يفتقد الحنان والرقة والكلمات الحلوة.. والمرأة في حاجة إلى كل ذلك صباحاً ومساءاً..
- وليتهم يتعاملون مع الجسد بطريقة سليمة وصحيحة..
- ولماذا لم يتعلموا ذلك..
- إنهم جميعاً تربوا على الغلظة ولا توجد لديهم ثقافة التعامل مع المرأة أو مع غيرها..
- لو كان في كل بيت بعض من النور لامتلكوا هذه الثقافة..
- النور موجود حولنا وفي كل مكان ولكنهم لا يستطيعون الحصول عليه..
- لماذا..
- لأنهم لا يحاولون ويتعاملون مع الأشياء حولهم بأسلوب مادي..

- والحل..

- ليست هناك حلول مع قوم تعوَّدوا ذلك منذ مئات السنين..

- لكنني عندما أكبر سوف أكون غير ذلك..

- إنك لن تستطيع في وسط هذا المجتمع..

- وإذا دعوت الناس إلى تذوق الجمال معي..

- سوف يسخرون منك ويعزلوك ويطردوك من القرية..

- إذاً عليَّ أن أهاجر من هنا..

- إذا نمت لديك هذه الأفكار وآمنت بأفكارك وبأسلوب تلك الحياة الجديدة التي تدعو إليها فعليك أن تهاجر..

- إلى المدينة..

- ولن تجد في المدينة كل ما تريد..

***

المدينـــــــة

ظلّت المدينة عالقة برأسي وكنت أتـصورها أشـياءاً تفـوق الوصف وأنني سوف أجد فيها جمالاً يفوق الجمال الذي أتمناه، وأنني سأجد أهلها جميعاً يعشقون الجمال.. وكان الجمـال في رأسي ومخيلّتي أنني سأجد شعراء وكتّاب يتغزلـون في المـرأة وجهها وكل أنحاء جسدها، وكان أبي يذهب إلى المدينة مدْعواً لشراء جهاز عريس أو عروسه من مدينة أشمون، ولم يكن هناك أهل عريس أو عروسه من عائلتنا إلاّ ويـدعون أبي في تعطـير (تجهيز وشراء) أثاث بيت الفرح.. وإذا قال أبي كلمة فيحترمها الجميع ويقدّرونها ويقول صغيرهم قبل كبيرهم "أبويـا الحـاج قال"، وكان الغريب والذي يسعدني أن كـل نـساء عـائلتي ينادون أبي بخال الحاج.. وكنت أنـدهش.. هـل كـان لأبي شقيقات لكل هذا العدد من النساء اللاتي ينادونه بالخـال.. في أول الأمر ظننت ذلك، وعندما سألته في يوم عمَّا تخبئه ظنـوني راح يضحك ملء فيه وبصوت عال وأفهمني أن ذلك تعبيراً عن التقدير والإحترام..

.. كان لابد لي أن أتكلّم وأطلب من أبي أن يصحبني معـه إلى المدينة وجاء هذا اليوم وكان عمري آنذاك الخامسة واقتربـت منه وهو يقعد أمام منقد الحديد ويقمّـر الخبـز علـى نـاره المصطليه.. جلست بجانبه وأمسكت بكـف يـده فابتـسم وشجعني ذلك أن أتفوه قائلاً في رجاء :

– أتمنى أن أرى المدينة..

- أي مدينة..

- مدينة أشمون التي تذهب إليها مع الناس..

- أخاف عليك من الزحام وأن تتوه عني وسط الهيصه والزغاريد..

- سوف تكون يدي في يدك.. ولماذا يعملون هيصه ويزغردون..

- الفرحة.. كلّما إشتروا طشطا أو حلقاً أو قطناً أو قطعة ملابس زغرد النساء..

- إنني يا أبي أريد أن أرى النساء وهن يزغردن.. أكيد في هذه الهيصه جمالاً..

- الفرحة جميلة أياً كانت صورتها..

- أريدك أن تأخذني معك.. أنا في حاجة لأن أرى فرحة الناس..

- سوف آخذك..

- في أول مرّة ذهبت فيها مع أبي لم تتركني إمرأة أو فتاة من أهل الفرح إلاّ وقبلتني وأغلبهن إحتضني بقوة مجاملة لأبي واستقر بي الوضع بأن وضعتني فتاة في حجرها وضمتني بذراعيها وراحت تقبلّني بين لحظة وأخرى.. كان ذلك في المقعد الخلفي لعربة الأوسطى فرحات شعيره أشهر سائقي القرية.. وكنت محشوراً بين النساء على حجر الفتاة التي تولت أمري في ود وعطف ولأول مرّة في حياتي أشعر بأن الحياة جميلة خارج بيتنا وأن كل فتاة وامرأة خارج هذا البيت سوف

تمنحني سعادة لا تنتهي.. وانطلقت العربة إلى المدينة وأبي في المقعد الأمامي للعربة يضحك مع رجل بجانبه وكانت هناك عربتان غير عربتنا تحمل الرجال والنساء من أهل الفرح..

.. على حرف الترعة رأيت جسد النساء.. شهور طويلة وأنا أستمتع بهوايتي.. لكن هذه المتعة كل يوم على حرف الترعة لم تكن تساوي دقيقة واحدة من شعوري اللذيذ الممتع وأنا على حجر هذه الفتاة..

نزلنا أرض المدينة وتركني أبي في يد الفتاة وأوصاها ألاَّ تتركني لحظة حتى لا أضيع في شوارع أشمون.. ودعوت لأبي من كل قلبي ولأول مَّرة أعرف معنى الدعاء لأنه تركني مع هذه الفتاة اليانعة.. في الشارع تمسكني بكف يدها في رقة بالغة وفي كل محل تدخله للشراء تضعني في حجرها وتقبلني.. لم أر المدينة ولكنني رأيت الفتاة وأحضانها وقبلاتها.. وشعرت أن كل مدن العالم في هذه الفتاة وأن كل معاني الجمال الذي كنت أبحث عنه وجدته فيها.. وشعرت بأن هذه المدينة لا شئ.. وأن كل إمرأة لديها من الجمال والحنان مالا تملكه أي مدينة وأي مدينة في العالم ليست إمرأة.. وأن المرأة أجمل تهزم أي مدينة وأن مدينة أشمون هذه لا تساوي شيئاً مقارنة بهذه الفتاة وجمالها.. هكذا شعرت في هذه الرحلة وكان شعوري دائماً بعد ذلك أنني لابد أن أذهب إلى المدينة كل يوم لألتقى بإمرأة.. وفي عودتنا إلى القرية كانت نفس الأحضان والقبلات والحجر الدافئ وعرفت في هذا اللقاء لماذا يتزوج الرجل بالمرأة.. وزرفت دموعي ومسحتها بأصابعي فاندهشت الفتاة قائله :

– لماذا تبكي يا روح قلبي..

– لأنني بعيد عن أمي..

– وهل تقبلك أمك مثلي وتحبك مثلي..

– لأ والله.. إن لحضن أمي طعم آخر..

– وحضني أنا..

– إسمك..

– سميرة..

– أين أمك..

– في العربة الأخرى..

– ما صلة القرابة بينكم وبين أبي..

– أبويا الحاج.. خال أمي..

– عندما نصل إلى البلدة أين ستذهبين..

– إلى بيتنا..

– أين هذا البيت..

– في الكفر..

– هل كل بنات الكفر مثلك..

– في ماذا..

– أنت حلوة..

– يا لهوتي.. يا روح قلبي.. إن الرجال الكبار لا يعرفون ولا يقدرون أن يقولوا كلمة حلوه لامرأة.. وأنت..

- هل ستتركيني ولن أراك ثانية..
- إذا كنت تريدني وتعلقت بي إلى هذا الحد.. سوف نأتي أنا وأمي إلى بيتكم بأي حجة حتى تراني.. ولكن أنت صغير على هذا الكلام..
- أرجوك..
- وسوف آتي بمفردي إليك..
- هل تذهبين إلى المدينة وحدك..
- أحياناً..
- خذيني معك..
- خالي الحاج يوافق وأنا آخذك..
- ولماذا تذهبين إلى المدينة..
- لشراء لوازم الخياطة..
- هل لديك ماكينة خياطة..
- ماكينة أمي..
- تساعديها..
- إننا نخيط كل ما يخص النساء في الكفر..
- والناحية البحرية..
- الكفر فيه نساء بحق وحقيق..
- وبحري..
- حرم تعبان..
- ومن يخيط للنساء في الناحية البحرية..
- خياط الرجال..
- إلى هذا الحد هن خناشير..
- تعال الكفر شوف جماله..

***

"متعة الحقل"

كنت تواقاً لمعرفة هذه الناحية الراقية من البلدة.. ولا أعـــرف كيف وأنا لم أبلغ السادسة من عمري.. كيف أدرك أن هـــذه الناحية راقية وناحيتنا خناشير من النـــاس.. كانـــت الرؤيـــة الوحيدة التي من خلالها توجهت إلى هذا الإحساس هو معرفتي بالفتاة سميرة.. وكيف عاملتني واحتضنتني وقبلّتني.. عرفت رقي هذه الناحية من تعامل سميرة معي.. شعرت بأن لي جسد وأنه يجب أن أحب وأُحب.. وأدركت أن هناك قوة كامنة خلـــف هذا الكون وهذه الحياة التي نحياها.. قوة تحركنا إلى شئ آخـــر في ناس غيرنا.. هربت نفسياً من الترعة ومن تحت الجميزة ومن كل نساء بحري الفلاحات المتعجرفات وأيقنت أن جمال المـــرأة ليس في التفرُّج عليها ولكن في حركتها في فعلها في أنوثتها التي ينبعث منها القبلات والأحضان والكلمات..

.. ولكن كيف لطفل أن يدرك هذه المعاني وهو طفل صغير..

.. كنت أشعر دائماً بأن عقلي صافياً وأنه ليس في بيتنا ما يثقل كاهل طفل مثلي.. غير مكلّف بأي أعمال في البيت أو الحقل أقوم بها مثل بقية أطفال القرية.. اهتمام أمـــي بي في الطعـــام والشراب والملبس والنظافة.. واهتمام أبي كل يـــوم برعـــايتي حيث كان يأخذني كل ليلة وبعد أداء صلاة العشاء.. يأخذني أمامه فوق دابته (الحماره) ويلف بي البلده بادئاً بشارع الكفر ماراً بشارع الدسوقي ثم شارع أبو عزيزة بعده شارع جبريـــل والبكل ثم بعد ذلك بيوت عمار والدقوني وأبو عوف.. بعدها

درب العرب وأخيراً العودة إلى الدار بجانب بيوت القطان عند ترعة القرية الكبيرة.. وعندما أصل إلى أمي بعد هـذه الجولـة أكون قد رُحت في نوم عميق.. تأخذني من أمام أبي من فـوق ظهر الدابة إلى سريري في الغرفة الصغيرة التي تقع بجوار المندره (غرفة الضيوف).. إذا كان الجو صيفاً تركتني دون غطاء وإذا كان شتاءاً لفتني بلحاف صغير خصِّص لي، وإذا كانت الليلـة شديدة البرد.. أشعلت النار في قصعة الحديد وتركتها في صالة البيت الداخلية عند باب حظيرة البهائم وبعد أن يذهب دخان النار وتصطلي القوالح وتصبح ناراً صافية.. تحمل القـصعة إلى جوار سريري حتى أدفء وأهنأ بالنوم حتى الصباح..

- وكان أبي يذهب في أول الليل إلى زوجته القديمـة (مـرات أبويا.. أمي لبيبه) ويمكث في غرفتها حتى منتصف الليل ثم يعود لينام بعض الوقت فوق كنبه في المندرة الكبيرة كلّمـا كـان الوقت صيفاً، وإذا كان الوقت شتاءاً كان يدخل قاعة الشتاء.. كان أبي يحب النساء أو كان حريصاً كل ليلة لأن يلتقي بمرات أبويا.. وفي الهزيع الأخير من الليل يأتي إلى أمي ليوقظها لتذهب معه إلى القاعة أو إلى المندرة.. وفي ليلة سمعت أبي وهو يـوقظ أمي التي تنام فوق كنبه مقابل سريري فقالت له :

- الساعة كام..

- الفجر قرّب..

- والنبي إنت راجل فايق.. روح عايزه أنام..

- عيب يا حميدة.. قومي شوفي جوزك..

- مشي قادرة.. روح للبيبه..
- جَتك الغم.. جَتّه على الفاضي..
- أنا مش بعرف أضحك زيِّها ولا أتكحل زيِّها.
- حَقّي.. آخر مَرّه قومي..

وصرخت أمي في وجهه — حرام عليك الواد هايصحى.. مش قادرة..

يصفق الباب زاعقاً — روحي إنت البعيدة مش ست.. إنت بهيمة..

- ويدخل أبي القاعة ليكمل نومه وهو كالثور هائجاً ويلعن أمي بصوت عال.. وكانت هذه أول مَرّة أسمع فيها أبي وأمي.. بل وسمعت صباح اليوم أمي لبيبه تطرق باب القاعة فقال لها أبي :

- أدخلي..
- أنا لبيبه..
- تعالي..

تدخل في رقه - أنا سمعت دعاويك عليها..

- دي ست جاموسة مش بنىآدمه..
- عايز حاجة.. عايزني قبل ما استحمه..
- الله يرضى عليك تعالى..

وكانت أمي تشّخر ويبدو أنها لم تسمع شيئاً..

.. كان أبي يذهب في شقشقة كل صباح راكباً حمارته (الركوبة.. ببردعة حمرا) إلى الحقل.. وكان يقرأ السلام على

كل من قابله في الطريق ولو كان طفلاً صغيراً.. وكان يقرأ القرآن بصوت مسموع حتى يصل إلى دار الغيط..

يوقظ المزارع ليصلي الصباح بعدها يتناول معه الفطور ثم يقوم العامل باشعال النار لعمل الشاي له ولعمه الحاج.. بعد ذلك يملى على العامل ما يقوم به من أعمال حتى ينتهي النهار..

كانت دار الغيط وقتها زريبه للبهائم وغرفة في داخلها لحفظ التبن وأدوات وعدد الزراعة..

كان أبي يملك أكثر من عشرة أفدنة زراعية.. منها فدانان في ناحية شروة حسن والباقي في مريان.. وكان لي عم يدعي دردير له نفس كمية الأرض وابن عم ثالثهما يملك ستة عشرة فداناً ويدعى الحاج محمود وكان أشطر منهما في الزراعة وتربية البهائم.. كان أبي من إمرأة تدعى ستيته وهي إبنة خاله محمد درويش.. ماتت وكان عمره حينها عامان.. وكان دردير من إمرأة أخرى تدعى قطيفة وهي أخت محمد سالم وكانت إمرأة شديدة لا تحب في الدنيا غير إبنها دردير وكان أبي يتجنَّب قسوتها.. وكان جدي حريصاً على صحبة حداد إبنه يأخذه معه في كل مكان يذهب إليه ولا يتركه في البيت خوفاً عليه من أم دردير لأنه كان من جهلها وسواد قلبها أنه ليس بعيداً عليها أن تقتله أو تضع له السُّم.. وسوف أترك هذه النشأة وأعود إلى نفسي أنا كطفل لم يذهب إلى المدرسة بعد..

.. عرفت الحقل والطريق إليه وعرفت حدود أرضنا الزراعية وعرفت كم عدد الجاموس والبقر والعجول وكافة الحيوانات الأخرى التي نمتلكها..

والذي أتذكره وأنا صغير في هذه الفترة أن أبي محمود كان رجلاً متكبِّراً.. إلا أنه كان كلما رآني :

يشخط – إزَّيك..

.. وكنت أقول وهذا هو الحنان.. وعلمت أن أبي محمود بعد ذلك لا يحب غيري من أطفال أهله.. ولكن هؤلاء الناس في هذا الزمن لا يحبون ان يظهروا عواطفهم، أو أنهم لم يكن لديهم أساليب الحب والعطف لأنهم لم ينشأوا عليها.. وكانت أكبر قوة يمتلكونها أنهم أصحاب أرض ولهم بيوت كبيرة.. وعندهم من العمال الزراعيين وزوجاتهم الكثير الذين يعملون في حقولهم وبيوتهم..

.. وعندما كنت أذهب مع أبي للحقل أشعر بسعادة لا حد لها.. أجرى على السكة حتى أصل إلى البحر.. البحر الفرعوني.. ويطلقون عليه البحر الأعمى وهو فرع من الرَّيَّاح المنوفي وأعود إلى البيت ثم أجرى ثانية في داخل الحقل حتى أصل إلى نهايات رؤوس زراعات البرسيم والقمح.. وكان أبي يراقبني بسعادة ويقول من حين لأخرى :

– خلي بالك.. إوعه الكلاب.. إوعه الجاموسة تنطحك.. إبعد عن الترعة..

– بص عاالبحر إوعه تنزل.. خد بالك عشان أجيبك الغيط..

.. وكان جميع من في الحقل من عمال زراعيين وعاملات يظهرون سعادتهم بي وخوفهم عليّ.. وفي يوم مكثت مع أبي حتى آخر اليوم.. حيث يتم حلابة الجاموس والبقر الذي يدر اللبن بواسطة زوجة أحد العاملين وتدعي بخيته والحلابه في العادة تتم في الصباح بعد طلوع الشمس حتى الضحى وقت المساء بعد آذان المغرب.. ولم أكن من قبل رأيت حلابة البهائم.. بخيته تضع حلّه كبيره فارغة فوق مكان عال بالزريبة وتحمل الدست وتضع تحت ردفيها كرسي خشب صغير لتقعد فوقه وتضع الدست الفخار بين ركبتيها وتشمر جلبابها حتى تلامس الدست وتبدأ في جذب ضرع الجاموسة بأصابعها حتى تبخ اللبن في الدست ثم تنهمك في الحركة بسرعة وتنتقل أصابعها في براعه بين ثدى الجاموسة الأربعة.. جاموسة بعدها جاموسة.. بعدها بقرة.. وعندما يمتلأ الدست تحمله وتكبُّه في الحله.. وكم كنت سعيداً بهذا العمل الذي تقوم به بخيته وعرفت كيف تتم حلابة البهائم.. وتحمل بخيته الحلة فوق رأسها وتذهب بها إلى بيتنا في القرية.. وهذه الدورة تتم كل يوم صباح مساء.. وعندما لا تأتي بخيته في يوم يأتي بدلاً منها فكيهه.. وكانت كل منهما زوجة لعامل زراعي يعمل في حقلنا.. وكالعادة فإن العامل الزراعي وزوجته وأولاده يكونون في طاعة صاحب الأرض طالما يأخذون أجرهم وما يحتاجونه من خضر وحبوب تلزم بيوتهم.. ومرّة بعد أخرى تعودت على رؤية حلابة البهائم في الصباح والمساء كلما استطعت..

.. وشعرت بأنني تائه في تأمل أعمال الحقل من دوران الساقيه وري الأرض وحصاد القمح والبرسيم وجنى القطن وحلابة البهائم.. وكما كنت أستمتع برؤية سيقان النساء على حرفة ترعة البلدة.. فإنني وجدت في زريبة المواشي سيقان بخيته وفكيهه عندما تنهمك كل منهما في حركة جذب الضرع فإن الجلباب ينفك عن ساقيها ويبان لي كل شئ في جسدها السفلي وكانت غالبية النساء العاملات في الحقل لا يرتدين شيئاً تحت الجلباب هكذا رأيت وعرفت بعد ذلك حتى تكون الواحدة منهن خفيفة وهي تقوم بأعمالها.. وهي تحلب أو تجني القطن أو تحش البرسيم أو تروى الأرض.. وكان ذلك يعجب أصحاب الأرض وأبنائهم.

.. كنت أقترب من دخول المدرسة.. وكيف أذهب إلى المدرسة وأحَرم من حريتي هذه وهواياتي في تأمل النساء في ترعه البلدة أو اللاتي يحلبن أو يقمن بأي أعمال في الحقل..

ورغم أن كل الناس حولي في البلدة أو في الحقل فإنني لم أكن أعني بأي شئ حولي غير ممارسة هوايتي اللذيذة وكنت أشعر بأن الكون حولي يسكن في داخلي في هدوء واطمئنان من مجرد أن أرى النساء هنا وهناك.. وكنت أتساءل لماذا تتعرى النساء على حرف الترعة وفي كل مكان في الحقول.. أهي اللامبالاه.. أم أنهن عمليات في القيام بأعمالهن أو أنهن بلا خجل ولا حياء.. أهو فجور من تحت لتحت.. أهو إغراء بدون قصد.. استهبال.. إستعباط.. ميوعة قلة عرض.. لا أعرف.. ألا كان

من الممكن أن تقوم المرأة الكادحة بكل أعمالها خارج البيت دون أن تتعرى.. أم أن العرى هو شيمة المرأة أو باباً منه ترى نفسها في عيون الرجال.. أو في عيون الأطفال مثلي..

.. لم أكن مكلفاً بشئ من أعمال البيت أو الحقل كبقيه أطفال القرية.. كانت الأرض الزراعية رحبه وحرف الترعة ليس فيه غيري يراقب الأعمال فيه، وفي الحقل كنت أجرى هنا وهناك وأمعن في انسجام وهدوء سيقان الفلاحه التي تحلب اللبن.. وخطوت خطوات كثيرة في الحقل ومعرفة أحواله وكنت أسأل أي عامل زراعي كيف يزرع ويقلع ويحصد ويروي ويطعم الحيوانات ولم يمل أحد منهم في الإجابة علّى وكانوا يخبرون أبي بأسئلتي والردود عليها وكانوا سعداء بذلك..

وكذلك فعلت مع بخيته وفكيهه.. وكما فعلت سميرة بنت الكفر في إحتضاني وتقبيلي.. كانت كل منهما في الصباح والمساء بعد الحلابه تفعل معي ذلك خلف ظهر أبي ولا تتركني الواحده منهما إلاّ وأشبعتني قبلات وكنت أترك نفسي لهما وأشعر بأن الكون حولي ملكي.. الكون يهدأ ويسكن في داخلي عندما أقترب من فكيهه وبخيته كما شعرت بذلك في المرَّه الأولى مع سميرة.. ولكن أين سميرة.. إنها لا تأتي ولا أعرف كيف أذهب اليها في الكفر.. كانت قبلات سميرة التي أغدقتها علَيْ وأنا في رحلتي معها إلى المدينة معطرَّة رائحتها حلوة.. ولكن حلابات البهائم لها نفس الغبطه واللذة ولكن برائحة العرق وتُلفها أنفاس البهائم.. بعد ذلك ضاقت علىَّ أرزاقي عندما دخلت المدرسة..

***

"بين المدرسة والكَفْر"

في ليلة المدرسة جلست أبكي وحدي في المنـــدرة.. أليـــست الترعة ونسائها وبنت الكفر وزريبة البهائم وحلب اللبن مدرسة وأحلى من المدرسة.. كانت أمي تربت على كتفـــي وتمـــسح دموعي قائله :

– المدرسة حلوة.. علشان تبقى زي عمي المستشار..

وأمي لبيبه تقول وهي تقف عند باب المندره :

– المضرسه كل الناس بتروحها يا عبيط.

.. في الصباح ذهبت إلى المدرسة مع أبي.. وقف التلاميذ طابور الصباح وكانوا جميعاً يرتدون الجلاليـــب النظيفـــة ويحملـــون أكياساً من قماش في أيديهم أو حقائـــب جلديـــة.. مدرســـة صبحي القطان الإبتدائية.. طابور من المدرسين الذين يرتـــدون الجلاليب والعمم وقليل منـــهم يرتـــدي البدلـــة أو بنطلونـــاً وقميصاً.. جميعهم من القرية.. وفي هذا الطابور ما هالني فيـــه ضرب الطرنبيطه وصوتها العال.. كنت حزيناً أقـــف في أحـــد طوابير الصف الأول وأبي هناك مع بعض أولياء الأمور يرقبني.. وكنت أكره الصوت العال والزيطه والدوشة وكرهت أكثـــر الهتاف.. تحيا جمال عبد الناصر قلت معهـــم تحيـــا مـــصر ولم أنطق.. تحيا جمال عبد الناصر.. من هو جمال هذا..

جلست في الصف الأول مع تلميذ من قبلـــي يُـــدعى محمـــود جنبات وكان دائم النبش في مناخيره.. إستمعت إلى المدرسين مثل بقية التلاميذ ولم أفهم شيئاً وكان معي في الفصل تلميذان

من أبو شاطيه وكنت أشعر بالحمى في رأسي من جنبات هـذا ومن تلميذ أبو شاطيه حيث يتباهى كل منـهما برقـع.. في فسحة المدرسة.. ولم يكن في الفصل تلميذ نظيف غير حـسن جمال فوزي من الكفر وسعيد عامر الدسوقي أيضاً من الكفر..

.. في الوقت الممتد والطويل من دخولي المدرسة وارتماء الشمس وقت الضحى وقبل الظهيرة فوق أسطح الفصول أخذنا فسحة بعد الحصة الثالثة وكان التلاميذ يدورون حـول بعـضهم في ألعاب مختلفة كأنهم في الشارع يصرخون ويتـشاقون فتقـوم خناقات متفرقة بينهم.. ولم يكن هناك من المدرسين يمنعهم عن أفعالهم ولكن كان هناك بعض المدرسين يشاهدون ما يجرى في الفناء أثناء الفسحة دون تدخل وكأن ذلك طبيعياً أن يتـشاتموا ويتشاجروا و.. .. أخذت جانباً وجلست في هدوء على أحد سلالم الفصول أرقب ما يجري.. كنت جائعاً ولكن إنـشغالي بما يدور حولي في المدرسة جعلني لا أميل إلى إخراج سندوتشي زبدة أو بيض من الحقيبة.. كان كل تركيزي. ما هذه الغوغاء والفوضى من أطفال صغار.. لماذا لا يتدخل المدرسون لتعلـيم هؤلاء الصغار الهدوء والسكون والأدب.. وجدت باب الفصل مفتوحاً فرحت مسرعاً نحو بابه ولّما دخلت وجدت مجموعـة من الأطفال جالسين في هدوء وأدب كل عند دُرجه.. حـسن جمال وسعيد عامر وعلى مختار.. جلست مثلهم في مكـاني.. وكان هناك فرصة لأفتح الحقيبة وأتناول جزءاً من طعام أمي..

وجدت حزام الشنطة مفتوحاً.. ولم أجد بها أي طعام.. إبتسم سعيد عامر وقال :

- جنبات وعبده أبو شاطيه..

- هايبقه كدة كل يوم..

- سعيد - روح قول للمدرس..

- أكيد جعانين..

- سعيد.. خلّى الشنطة في إيدك..

ولذت بالصمت.. وكان علّى أن أبلغ أبي وأمي بكل أحداث المدرسة من تلاميذ غالبيتهم من عديمي الأدب وأن هناك فوضى وسرقة وشتيمة لا يتحملّها طفل متربي.. كُتب يوزعها المدرسون وأقلام تُسرق وحقائب تفتح وكراسات تمزّق وهرج وفوضى وسفالة وقلة أدب من تلاميذ الفصل لبعضهم البعض.. وأنا أندهش وأتمزّق كيف أتحمل يوماً بكامله في هذا المكان الوضيع.. ثم كانت هناك فسحه طويلة مدتها خمسة وأربعين دقيقة يذهب فيها التلاميذ إلى بيوتهم ثم يعودون لاستكمال اليوم الدراسي.. وعند الباب وجدت السيدة التي تعمل في بيتنا وتدعى أم إبراهيم شرفه تنتظرني وأخذتني من يدي إلى البيت وحملت عني حقيبتي وراحت الدموع تنزل من عيني بغزاره.. فبكت السيدة لما رأت دموعي وراحت تقول لي حتى وصلنا إلى البيت..

- مالك.. مين ضربك.. مين شتمك..

وظللتُ أبكي و لم أرد عليها ودخلت البيت ثـائراً ونتـشت الحقيبة منها ودخلت غرفة أمي لبيبه ورميت بالحقيبة بشدة فوق أرضيه الغرفة.. إنزعجت زوجة أبي قائله:

– ليه كده.. هَّو إنت ها تعصي على المضرسه..

– روحي إنت المضرسه..

– ياريت أبويا ماعلمنيش..

– أبوك ليه حق..

.. راحت تلملم ما تبعثر من الحقيبة وأعادتهـا كمـا كانـت وحملتها فوق صدرها ودخلت الى أمي التي كانت تخبز أمـام الفرن وأنا خلفها محاولاً استحضار دموعي وقالت وهي تناولها الحقيبة :

– رماها على الأرض وعَّمال يعَّيط..

أخذتني أمي بين أحضانها وراحت تربت فوق ظهري وحكيت لها ما حدث في المدرسة..

– ياريت فيه مدارس تانيه أنضف من كده.. مـافيش غـير مدرسة صبحي ومدرسة العرب في غرب البلد..

فقالت أمي لبيبه :

– ياريت مدرسة العرب أزفت وأضل.. دا غرب البلـد مـا فيهاش ولد نضيف..

وضعت أمي لبيبه طبلية صغيرة خلف أمي ووضعت عليها فطيره وطبق عسل بالزبدة.. قفزت من حجر أمي لأتربَّع حول الطبلية ورحت آكل في شراهة حتى شبعت، وكانت أمـي تـدعو لي

بالهدايه وأن أحب المدرسة.. بعدها غسلت يدي من حنفيه الصالة وجاءتني أمي لبيبه بالحقيبة قائله :

- طوِّل بالك مش من أول يوم تتضايق..

.. ونظرت إليها في غضب وحملت الحقيبة في يدي وخرجت من البيت وكأني أحمل نكداً..

.. دخلت المدرسة وكأني أدخل سجناً.. كان التلاميذ يلعبون في الحوش.. من يتشاجر.. من يشتم الآخر.. من يبصق.. من يرقع.. هي الفوضى والألفاظ النابيه التي أكرهها والتي بسببها أكره شارع أبو سمك.. دخلت الفصل فهجم عليَّ تلميذان وخطفا الحقيبة وفتحاها في عنف وكاد يمزقان ما بها من كتب.. وكما أخذاها مني في عنف القيا بها في عنف أشد وغضب لأنهما لم يجدا فيها طعاماً.. وكدت أبكي وأنكفأ فوقها سعيد عامر وأحضرها لي قائلاً :

- معلش.

- عيال قليلة الأدب.

- من عندكم.. من بحري..

- من ولاد مين عشان أقول لأبويا..

- عبده أبو شاطيه وعلى جعل..

.. دقَّ الجرس فدخل كل التلاميذ الفصل فأسرعت وجلست على تختتي.. بعدها دخل المدرس يمسك بخيرزانه فوقف التلاميذ تحية له لكنني قمت متثاقلاً.. تقدَّم نحوي المدرس غاضباً وهو يزعق :

– مش عايز تقوم ليه يا بجم..
وقفت خوفاً منه ونظرت اليه في غضب وتمنيت لو قذفته بشئ في وجهه.. ولّما رآني أنظر اليه في غضب قال وهو يرفع الخيرزانه ويلسعني واحده فوق ظهري:
– أعَّرفك تقوم إزَّاي..
جلست وبكيت بحرقه ووضعت وجهي بين كفّي وتشَّنجت..
وسمعت سعيد عامر يقول للمدرس :
–العيال خدو منه الشنطة ورموها.. والصبح أكلوا منه السندوتشات..
–مين هَّمه يا سعيد..
–عبده أبو شاطيه وعلى جعل وجنبات..
أوقف المدرس التلاميذ وضرب كل منهم مرتين بالخيرزانه فبكوا ألماً.
.. أفقت من بكائي ورحت أنظر حولي بعدها شخصت عيناي في وجه المدرس وفي اشمئزاز قلت في نفسي :
–مش هاسيبك.. لازم أضربك..
قلتها في همس مرتان سمعها التلميذ الذي يجلس بجانبي فقهقه وقال ينصحني :
–هدِّى.. لما ترَّوح قول لأبوك..
–برضه مش هاسيبه..
–قول لأبوك..
–يلعن أبويا وأبو المدرسة..

-هانروح فين.. لازم المدرسة..
-أنا عايز أطفش منها..
-ياريت وأنا راخر..
-إسمك إيه..
-محمد أبو سليمان..
-من بحري..
-من الكفر..
-ليه كل ولاد الكفر كويسين..
-مش عارف..

كان المدرس أبو جلابيه وخيرزانه قد جلس جول دُرجه يأكل في شراهة سندوتشات الفول والطعمية التي إشْتراها من مطعم حسن تنَّك.. فهاج الفصل وراح كل تلميذ يكلِّم الآخر وانقلب الفصل إلى سويقه صغيره.. وكان وقتها يعتبر من الحضارة لدى أي شخص في القرية كان تلميذاً أو مدرساً إذا إشترى فول وطعمية من عند حسن تنَّك يقه ده تقدم في الحياة.. وكان الناس يعتبرونه متمرداً على العيش والجبنة الطعام التقليدي في البلده.. وكان في القرية مطعمان.. في الناحية الغربية مطعم زكي الطوجني وفي بحري حسن تنَّك.. أما الكفر سمعت بعد ذلك أن فيه الكثير من بائعي الفول والطعمية..

عدت إلى البيت في هذا اليوم وحكيت لأبي ما حدث طيلة النهار.. فسكت الرجل ولّما طال صمته قلت له :

-هيَّ دي المدرسة..

– أيوه.. زمان كان كُتاب..

– العيال مش متربيه..

– أهاليهم السبب..

– والمدرس حمار..

– وهانعمل إيه..

– إنت مش هاتروح المدرسة..

– ليه..

– تقول للمدرس بتضرب إبني ليه..

– لو ضربك تاني هاروح.. تبقه قوم بسرعة..

– يابه دي حركات خاييه.. من المدرس..

– دا مدرسك..

– إذا كان كل المدرسين زي كده.. يبقه عليه العوض..

– إنت صغيَّر لا رحت ولا جيت ومش عاجبك حاجه..

– إبدا يابه.. ودَّيني مدرسة نضيفه فيها عيال مؤدبه زي ولاد الكفر..

– وهانجيب دي منين..

– مافيش مدرسة في الكفر..

– لأ..

– طيب وهمّ دول مدرسين ..

– معلهش يابني إستحمل..

وكانت أمي وأمي لبيبه يضحكان في صوت واحد على الحوار مع أبي.. وكان أبي يبتسم.. ورحنا نتناول طعام العشاء حول طبلية كبيرة.. سعاد البنت تكبرني بخمس سنوات وكانت في مدرسة الحاج دردير للبنات وصلت في الدراسة لسنة رابعة وقعدت.. وعبد العزيز يصغرني بعامين وهو لم يذهب إلى المدرسة بعد.. ومحمد الصغير عمره عامان تجلسه أمه في حجرها وتطعمه معنا..

ذهب أبي بعد العشاء إلى دكان عبده أبو سعده ليجلس مع أصحابه يشربون الشاي والجوزه.. كان ذلك عاده كل ليلة مع أصحابه حداد الكيلاني وأبو عياد وعبد العزيز الصاوي وغيرهم.. وفي هذه الونسه كل ليلة يتحدثون عن الزرع والقلع وثمن القطن والبطاطس وسعر البرسيم واللبن.. ساعة ساعتين ويعود كل منهم إله بيته.. وكنت أشعر بأنني أكثر حرية في الكلام مع أمي وأمي لبيبه بعيداً عن أبي.. وفي هذه الليلة الأولى بعد أول نهار كالكابوس في مدرسة الأغنام كانت أمي لبيبه حريصه أن تسري عَنّي وأنه يجب علّى أن أتقبلّ واقع البلد وحياة الناس والتعود على شقاوة التلاميذ وحمورية المدرسين فقالت :

– مشكلتك يا حسن إنكّ بتعيش حياة غير العيال دي..

– إزّاي العيال دي مش ليها أهل وبيوت زيّي..

– الناس دي كلهم غلابه.. العيال دي ولاد ناس على أدّهم.. المدرسة بالنسبة ليهم جنه..

– وبالنسبة لي جحيم..

– إنشف يا حسن إنت رهَّيف أوي.. روح شوف العيال بتوع شروة حسن..

غير أن أمي إنحمقت وكأن أمي لبيبه تقترب بإبنها من مَّيهَ البْركه:

– لأ يا لبيبه بعيد الشر من شروة حسن..

– ما اقصدش يا حميدة إحنا عايزين نقوَّيه..

.. زهقت منهما ودخلتُ غرفتي الصغيرة لأنام.. نمت وأنا أحلم أحلاماً ثقيلة وكأنِّي في كابوس..

كانت أختي سعاد تنام مع أمي لبيبه في سريرها وفي نفس الغرفة ينام عبد العزيز على كنبه ومحمد على كنبه، ولّما تعوَّد الثلاثة على ذلك كان أبي يأخذ أمي لبيبه إلى القاعه ليلتقي بها ثم تعود لتنام مع الأطفال الثلاثة..

.. في هذه الليلة إستيقظت على صوت آذان الفجر بصوت دردير حجاج.. قامت أمي تصلي ولكن لم تكن تعرف أنني مستيقظ وعندما توضأت وعادت للغرفة لتصلِّي نامت مَّرة أخرى على الكنبة و لم أدعها تدخل في نومها وقلت :

– عايز أشرب..

– حاضر..

وجاءتني بشفشق الماء وشربت وحاولت أن أنام بعدها لكني رحت أفكَّر.. كيف سأذهب إلى المدرسة ثانية.. لم تمضي دقائق ودخل أبي على طراطيف أصابعه واقترب منها وقال..

هامساً وهو يضع يده على كتفها :

– حميدة.. حميدة قومي..

– عايز ايه..

– تعالى القاعة..

– حرام عليك الواد صاحي..

وعملت بأنني أشخِّر وأغطس في نوم عميق واستمر شخيري حتى يأخذها.. فقال أبي :

– قومي الواد رايح في سابع نومه..

– دا لسه شارب مَّيه.. خلّيني بكره..

– قومي يا بنت الكلب..

– أنا بنت كلب روح منَّك لله..روح لها هَّي على النَّدهه..

– آخر مِّره بقولّك تعالى..

– هاقوم مش عشانك علشان الواد مايصحاش.. إنت فايق مافيش غير السخام ده..

سبقها إلى القاعة وهي الغرفة المواجهة لغرفتي.. راحت إليه وهي ضجره وحتى تقصر شُّره..

ويبدو أن أمي لبيبه بعد صلاة الفجر لم تنم أو أنها كانت تسمعها في الصالة عند باب المنتصف.. شعرت بأقدام حافية تكحت في الأرض وبأنفاس تتهدَّج.. إستقرت الأقدام وسكتت الأنفاس ولكن كان هناك صوت ينبعث من داخل الغرفة التي بها أبي وأمي..

نزلت من سريري في هدوء خطوت حافياً نحو الباب فتحته في هدوء.. رأيت أمي لبيبه تضع رأسها على باب القاعة.. ظَلْلتُ أتابع أمي لبيبه وهي تكاد تدخل رأسها في الباب مخترقة الخشب.. كنت مندهشاً بل مذهولاً.. هكذا تتصنت زوجةُ أبي على أبي وأمي.. تُرى عن ماذا تتنصت.. لم أدري بنفسي وأنا أبكي في صمت.. دقائق وتشنجت.. سمعت أمي لبيبه صوت بكائي.. إنزعجت السيدة وانفلجت وهرولت إلى غرفتها عندما وجدتني خلفها..

عُدت إلى فراشي وتركت باب الغرفة مفتوحاً.. تغطيت بلحافي ونمت على جنبي لأرى باب القاعة الذي مازال مقفلاً وصوت ينبعثُ منه يعلو أحيانا ثم ينخفض.. خفْت على أمي من أبي.. هل يضربها.. هل يعاتبها.. هل يشتمُها.. لَكن الأصوات مسالمه ساكنه ليس فيها منازعة.. تأكدت أن أبي لا يضرب أمي.. تُرى ماذا يفعلان.. ثم رحت في نوم عميق وأنا مازلت مندهشاً.. ماذا يجرى.. وما الذي كانت تفعله أمي لبيبه.. ظل ذلك معي حتى الصباح.. قمت من نومي فوجدت أمي تقعد عند الكانون وتسخَّن المياه ليستحم أبي.. دخلت الحمام ثم عدت إلى غرفتي لأنام على الكنبه مستيقظاً.. جاءتني أمي بعدها بصينيه صغيره بها إفطاري.. بيض مسلوق وزبده وكوب لبن..

إنتهيتُ من إفطاري ثم جلست على أرضيه الغرفه لأرى أمي وهي تدخل أدوات الإستحمام إلى القاعة.. تدحرج الطشت الكبير.. ثم كرسي خشبي (كرسي الطشت) ثم حلة كبيرة بها الماء البارد وأخرى أصغر منها بالماء الساخن بعدها طبق نحاسي فيه صابونه وليفه وكوز وحجر..

والغريب أن أمّي قفلت باب الغرفة ثانية عليهما يبدو أنها تساعده في الاستحمام أم أنهما سيبعثان ذلك الصوت ثانيه.. تمنيتُ أن أسمع الصوت طيلة هذا النهار وأن لا أذهب إلى المدرسة البغيضه.. وقبل أن يدق جرس المدرسة بعشر دقائق كان أبي يأخذني لليوم الثاني من يدي حتى باب المدرسة.. كان أبي يمسك كفي الصغير في يده.. كنت أريد أن أنزع يدي منه.. إنني لا أستمتع بالحياة كما هو.. إن له زوجتان.. واحدة في أول الليل والثانية بعد الفجر.. الأولى تتهيأ له وتريده لها فقط والثانية يأخذها عنوه بعد أن يشتمها ويلعنها.. هكذا أيقنتُ تماماً دون أن أسأل أحداً.. وأيقَنتُ أيضاً أنني طفل صغير غلبان لا أملك شيئاً كما يملك أبي.. وأنه علّى أن أصبر على بلائي في تلك المدرسة..

* * *

يعني إيه الكفر؟. هكذا في فسحة أحد أيام المدرسه سألت حسن جمال فوزي فقال :

– لا أعرف..

– وسألت على مختار..

– هي حته مقطوعه من البلد إما في الجنوب أوالشمال في أي قرية..

– برضه يعني إيه..

– ما اعرفش أكتر من كده..

.. ذهبت إلى سعيد عامر الدسوقي :

– يعني إيه كَفْرِ.

– أحسن حاجة تيجي معايا النهارده تشوفه..

كنت قد عقدت العزم على رؤية هذه الناحية ربما أجد فيها شيئاً أملكه ويمتعني ويجلب لي الهناء مثل أبي.. مشيتُ مع سعيد على حرف الترعه نحو جنوب البلده.. أول الكفر ترعة السويقة الممتدة شرقاً مخترقة الأراضي الزراعية حتى سوق الجزارين والبهائم والقماش.. وكان سوق البلده يوم الخميس ولو كان اليوم الذي أذهب فيه إلى الكفر هو يوم خميس لما إستطعت أن أمشي في السوق إلاَّ بصعوبة بالغة.. كانت أراضي السوق مهجورة لكن بعده بدأت البيوت على الجانبين تنوِّر وكأنها تضحك.. وبدأ سعيد قائلاً :

– هذا أول شارع في الكفر.. شارع نور الدين فيه كانت تسكن بهيه نور الدين كانت جميله وكان لها بنت جميلة أيضاً، وفي نفس هذا الشارع يوجد التومرجي إبراهيم غانم وهو الذي يحقن مرضى القرية كلهم بالحقن والإسعافات الأولية.. هو أصلاً من قرية براجيل مركز الشهداء..

– وبيت من هذا..

– بيت عبد الشهيد الأبيض مدير سنترال البلد..

– وهذا البيت..

– محمد النسناس المدرس الشاطر يلبس طربوشاً أحمراً وبيده منشَّة الذباب.

– وهذا..

– بيت مختار رسلان أشهر بقّال في القرية..

– وهذا..

– بيت عبد المحسن الخطيب المدرس..

– وهذا..

– بيت حسن رسلان المدرس بمدرسة صبحي والذي يخاف منه التلاميذ لأنه يضرب بالشلوت..

– وهذا..

– بيت محمد عبد العظيم تاجر بقاله.. شقى.. بيتاجر في الحشيش متجوز من بحري..

– وهذا..

– بيت عبده سالم إبن نائب العمده..

– وهذا بيت..

– عبد الرحيم صالح المدرس.. لهم أرض عندكم بحري في سكة رحيله..

– كنت أريد أن أمشي على حرف الترعه..

– هذه بيوت الكفر أصبحت الآن على الجنبين.. الترعة للآخر تودّي للغيطان..

– طيب أنا مخنوق عايزين نروح الترعه..

– مش تشوف بيوت عبد البر..

- مش معقول...
- أحسن وأنضف بيوت في البلد...
- خلّيها في يوم تاني..
- أنا عايز أرَوّح.. عايز حاجة تلينه...
- وأنا راخر.. هوَّ فين بيت الخيالة لظيمة البدري..
- في الناحية التانية..
- وديني..
- تعال ورايا بسرعة..

جرى سعيد وخلفه جريت حتى كان بيت الست لظيمة.. وقف كلاهما بالباب هنيهه بعدها جرى سعيد مَّره أخرى ولكن إلى بيته.. كان الوقت متأخراً وكان على حسن أن يجري منقلباً إلى بيته في بحري.. وهناك أمام البيت وجد كثيراً من الرجال والنساء يبحثون عن حسن ربما يكون قد سقط في الترعه..

***

" في بيت لظيمة"

عندما رأيت بيت سميرة بنت لظيمة البدري خياطة الكَفْر إنشق قلبي ودق شوقاً لرؤية سميرة أول علاقة لي بالمرأة.. وربما يضحك الكثيرون عندما أقول أحببت سميرة رغم صغر سني.. علاقة حب وشوق من طفل في الخامسة والنصف يوم مشوار المدينة مع فتاة لاتتعدى الثمانية عشره ربيعاً..

نويت في يوم الجمعة أن أذهب إلى بيت الخياطة حيث تكون سميرة.. ولأول مَّره أؤلف حكاية لأمي..

في صباح الجمعة عندما ذهب أبي إلى الحقل ذهبت إلى أمي وهي تخضُّ القربة واحتضنتها ورحت أقبِّل يديها.. فأخذتني في حضنها بيد وراحت تخضُّ القربة باليد الأخرى ثم أزاحتني قليلاً عنها في رفق حتى تخرج بيديها زبدة القربة وتضعها في الدست، ولّما إنتهت قالت وهي تغسل يديها في حنفية الصالة :

– ليه إنت في رجلي النهارده.. رايح جاي معايا ليه.. قوللّي يا حبيبي..

– أنا عايز أعمل كيس قماش..

– مش فاهمه..

– كل العيال بيروحوا المدرسة بكيس..

– طيب دول ولاد فلاحين على أدُّهم.. إحنا عندنا شُنط جلد..

– أنا عايز أبقه زي العيال..

- خلاص إنت حر اللّي يعجبك..

- أروح أعمله النهارده..

- عارف الخياط..

- عارف الخياطه..

- مين..

- الست لظيمه..

- دي بعيده في الكفر..

- عرفت بيتها..

- يالهوي رُحت الكفر..

- ماتخافيش علَّى.. أنا رُحت مع سعيد..

- سعيد مين..

- سعيد عامر الدسوقي..

- دول من الكفر..

- هاروح دلوقتي..

- مااقدرشي أسيبك تروح لوحدك..

- يامَّه والله عارف السكه..

- الترعه..

- هامشي بعيد عن حرف الترعه..

- لأ.. تروح معاك أم ابراهيم..

- خلاص تروح معايا..

- والقماش..

- نشتريه دلوقتي..

- لأ.. عندي قماش كتير..

.. ودخلت أمي غرفتي حيث دولابها ولفت قطعة قماش جديدة وكأنها تكوِّر رقاقاً، ونادت أم إبراهيم قائله :

- يا أم إبراهيم عارفه بيت لظيمه الخياطه..

- في الكفر..

- خدي حسن والقماشه دي.. وآدي حته زبده وحاجات تانيه..

- وبعدين..

- إديها القماش وقوليلها النبي حارسه عايز كيس مدرسة..

- وبعدين..

- أقعدي معاه لّما تخلّص.. وسلميلي عليها أوي واديها الحاجة..

- وايه تاني ياستي..

- إديَّها الحاجة قوليلها دوقي زبدة أم حسن..

- حاضر ياستي..

– حسَّك عينك تسيبيه من إيدك.. عينك عليه والترعه..

– وإذا جرى منِّي..

– إجري وراه..

– وإذا طبش في الترعه..

– أطبشي وراه.. مالك ياوليه إنت عبيطه ولاَّ إيه..

.. إنتويت تدويخ ام ابراهيم.. جريت منها وراحت تجري خلفي وأنا أضحك وتهرول خلفي وهي تبكي.. واقترب من حرف الترعه كأنني ساندلش في مياهها وتضرب بيدها على صدرها وتصرخ.. ومن الناس من كان يجري خلفي ليمسك بي ومن الناس ايضاً من كان يضحك عليها ويقولون لها.. ماتخافيش دا بيحارنك..

.. وصلنا إلى الكوبرى المؤدى الى المستشفى.. تركناه خلفنا ودخلنا يمينا ومَرْرنا على صف بيوت قديمة أنيقة وأخرى جديدة شيدِّت بالطوب الأحمر.. أمسكت بيدها.. أشفقت عليها.. كانت تبكي.. أنا فعلاً بهدلتها.. كفاية عليها كده.. وقلت لها ونحن نقترب من بيت الست لظيمه :

– أد كده بتخافي عليَّ..

– إنت أمانة وغالي لَّما تضيع مِّني أو يجري لك حاجة أروح أنا فين..

– ماتدخليش معايا جَّوه..

– طيبِّ أديِّ الحاجة للست وأرجع أقعد على الباب..

– إوعى تقعدي معايا جوَّه..

– خلاص يانن عيني.. كلامك أسمعه على راسي..

.. طرقت أم إبراهيم الباب الخارجي للبيت ونادت قائله بصوت عال :

– ياست لظيمه.. ياست لظيمه..

.. ودخلت حتى باب البيت الداخلي وأنا أتبعها وطرقت الباب الداخلي ونادت بصوت هادئ :

– ياست الكل.. ياست الكفر كلُّه..

خرجت الينا سيدة في أواخر العقد الخامس من عمرها.. ترتدي جلباباً أنيقاً مزركشاً باللون الكحلي الفاتح تقعص شعرها في ضفيرة خلف رقبتها وفي يدها منشَّه للذباب.. وقالت وهي تفتح الباب بعد أن رأت وجهينا :

– يانهار أبيض.. زارنا النبي.. حسن إبن خالي الحاج..

– أيوه ياستي.. صباح الخير..

– خشي ياأم إبراهيم.. خش يا حبيبي..

.. وانحنت فوقي ثم إثنت ركبتيها وراحت تقبلّني وتحضنني بقوه.. وظلت أم إبراهيم واقفه.. وأخذتني السيده وأجلستني على كنبه بالصاله وقالت للخادمه :

– إزَّي الست حميده ولبيبه وخالي الحاج..

– كلُّهم بيسلموا عليك أوي.. ودي حاجة من الست حميده وبتبوسك..

– ودي قماشه إعمليها لحسن كيس مدرسه..

وراحت السيده لظيمه تضحك بصوت عال بعد أن أخذت منها اللفه.. ثم أمسكت بلفة القماش وتابعت قائله :

– ياه.. دي قماشه غاليه خسارة.. أنا عندي قماش تاني أرخص وحلو أوي..

خدي دي إديها لستك تاني.. أقعدي يا أم إبراهيم..

– ما قدرشي..

– أقعدي..

– سيدي حسن قال لي أقعدي عا الباب..

– خلاص دا يريِّحك..

– أيوه يا ستي.. أنا طالعه.. راحتي برَّه..

وابتسم حسن ثقه في نفسه واغتباطاً بولاء الخادمه.. وراح يجوب بناظريه نحو الأبواب المقفله بالصاله ودخلت السيده إحدى الغرف وأتت له بطبق به كيكه وبرتقاله وصباع موز ووضعته بجانبه على الكنبه قائله :

– حاضر يا حبيبي ها عملِّك كل حاجة..

وحدَّق حسن فيها وقال في توُجس :

– خاله.. فين سميره..

– نايمه..

– عايز أشوفها..

– يا روح قلبي حاضر.. كُلْ الأول وادخل صَّحيها هاتفرح أوي بيك..

وكدت أُنط من شده الفرح لإمتنان السيده بي وثقتها في.. أدخل صَّحيها هاتفرح أوي بيك.. وراحت العبارة تطنُ في أذني وأنا في منتهى السعادة.. سأدخل عليها غرفتها وأراها نائمة.. سأوقظها في رقه.. سأناديها في همس.. يا سميره.. يا سميره.. دقائق وانتهيت من قضم قطعة الكيكة واصبع الموز.. بعدها قلت للسيدة التي تجلس إلى ماكينتها وتقوم بحياكة الكيس بعناية وحب :

– دايما ياخاله.. كيكتك حلوه أوي..

– ياروح قلبي.. كلّك ذوق..

وأشارت إلى أحد الأبواب قائله :

– خش بقه صحّيها.. لك تقدر عليها.. دي نومها تقيل أوي..

وتصنُّعتُ الهدوء وأنا أمشي نحو الباب ونقرتُ نقرتين.. ثم لويت الأوكره.. ودخلت حافياً.. وأجلت بناظري إلى سريرها.. تاه نظري بين رقه فراشها ونظافته وبين جسدها الممشوق فوق ثوب السرير..

.. كانت شبه عاريه ساقيها حتى جزء من ردفيها ولباس قصير يحضن جسدُها بين الساق والسُّره.. أي ساقين وأي جسد وأي وجه نائم كأنه خيمه من نور.. إلى أي جزء من جسدها ينتهي

نظري.. كان لباس صدرها يمتلأ بنهدين عجيبين.. دارت رأسي في ثنايا شعرها المنكوش وتاه عقلي وارتبكت ورحت أحضن صدري بكلتا يدي وكأنني جالس مؤدب في المدرسة.. إنني أمام مدرسة حقيقية.. تموت كل مدارس البلده وتذهب أمام لوحة جمال لفتاة واحدة فائقة الجمال في ذلك الكَفْر البديع.. أيُّ مدارس وأي مدرسين وأي عيال جرابيع في تلك المدارس.. أنت يا سميره مدرستي حين جلست في حجرك ونحن مسافران إلى المدينة ومدرستي حين عدت معك.. أنت يا سميرة تخلّيتي عني ولم تأت إلى بيتنا كما وعدتيني.. أنا الذي أتيت.. أنا الذي أريدك.. أنا الذي أحُّبك.. معك حق كيف تحبين طفلاً صغيراً.. لقد جاملتيني فقط وهاودتيني ولك كل الحق.. ليس مهما أن تهتمي بي وأن تأتين وأن تحبيني.. لابد لك من فارس شاب من عمرك.. لابد لك من عازف ماهر يتقن العزف على جيتارك.. لا يوجد في بحري البلد فارس واحد.. إنهم جميعاً أجلاف.. وفي الكفر لا أعرف إن كان هناك فارس.. لا أعرف.. ولكن أكيد طالما أن هناك فتيات جميلات مثلك.. أكيد أن أمهات هذا الكفر الجميل قد أنجبن فارساً يكون لك..

.. حاولت تجميع قواي ولم أستطع إنهرت أمامها ورحت أنظر اليها.. إلى جسدها قطعة بعد أخرى حتى تجّمد الجمال في عروقي واستطعت أن أنطق :

– سميره.. سميره.. أنا حسن.. أنا حسن..

إبتسمت كأنها تحلم وتحركت رأسها كأنها تسمع من يناديها..

– سميره.. أنا حسن.. أنا حسن ابن خالك الحاج..

غطّت ساقيها وأخذت نفساً عميقاً وانعدلت بجسدها قليلاً كأنها تنام بين جنبها وظهرها.. إبتسم حسن وتشجّع وقال :

– سميره أنا حسن.. سميره أنا جيت.. سميره إنت حلوه أوي..

تأكدت أن ذلك صوت طفل صغير.. وتأكدت قبل أن تفتح عينيها أن هذا طفلاً مدللاً.. لأن ليس في البلده كلها أطفال بهذه الرقه.. وإن كان في الكفر أطفال فلا يوجد طفل تعودت عليه أو يتجرأ عليَّ ويدخل غرفتي.. ولما ناداها ثالثه..

– سميره أنا حسن.. حسن.. فاكره لما رحت معاك أشمون..

ومَّدت يدها نحوه وفتحت عيناها في رقه وتثاءبت : إنه حلم لذيذ.. ياه.. وملأت عيناها بكامل وجهه وأمسكت كف يده وزعقت في صوت حالم وهي تنقلب بجسدها نحوه :

– روح قلبي تعال.. روح قلبي تعال يا حسن..

أخذته في أحضانها كأنه رجل.. أخذت الطفل في أحضانها وانكفأت بوجهها فوق وجهه وراحت تقبلّه كأنها تقبل رجلاً.. إستسلم لها الطفل.. لكنها إبتعدت عنه قليلاً وراحت تبكي.. لم يكن الطفل يستطيع أن يفعل لها أكثر من ذلك.. إنها تقبله وهو يستسلم ولا يعرف كيف يقبِّل.. إنها في حاجة إلى من يكشف عنها أوراقها.. إنها كانت تحلم حلماً جميلاً عنيفاً برجل يدخل إلى عالمها.. لم تستيقظ لتجد رجلاً يحقق لها ما كانت تحلم.. إستيقظت فوجدت طفلاً وليس عليها إلاَّ أن تقبِّل البراءة في عنف.. كانت تحتضنه ماستطاعت كمن تريد أن تدخله في كل جسدها وراحت تنادي في همس بالغ ما استطاعت أن تطفئ نار شوقها :

– روح قلبي حسن.. روح حناني كله.. أدخل جَّوايا.. مافيش غيرك أحضنه.. مافيش غيرك أبوسه.. مافيش غيرك حبيبي..

راحت تقلّب في الطفل يمنةٍ ويسره قرابةِ الساعة حتى إنطفأ لهيب جسدها.. كيف؟

* * *

جلستُ على حافة السرير وسال الدمع من عيوني.. وكلما إنهمرت الدموع وسالت بغزاره شعرت أنَّ كمداً في داخلي لا يريد أن ينتهي.. ألم نفسي يعتصرني.. وكان عليَّ ألا أظهر لها بأي آلام.. هي كانت في عالم آخر كمن وجدت عصفوراً وأخذت تداعبه حولها.. كنت أريد أن أظهر أنني سعيد وأنها في قلبي حتى الآن حبي الأول أو علاقتي الأولى بالمرأة.. وكم تمنيتُ الآن لو بقيت علىٍ علاقتي الروحيه الأولى بها.. كنت أشعر بها إنها إمرأة عاليه جداً جميلة ورقيقة وفاتنة.. أما الآن فماذا أسمِّى هذا العنف والعض واللت والعجن الذي فعلته معي.. إنها الجسد بلا صاحب.. كم من الفتيات مثلها في هذا الكَفْر.. الكفْر الذي تشوقتُ إليه هل مازلت أتشوَّق اليه.. يجب عليَّ أن أقوم الآن وأخرج إلى الصالة للست لظيمه لآخذ كيسي وأذهب.. إننا نقترب من آذان العصر وأم إبراهيم المسكينة أما زالت قاعده عند باب البيت..

ارتدت فستاناً فضفاضاً مع ملابس أخرى تحته.. خلعت وارتدت أمامي كأنها تتلذَّذ عذابي.. كنت أريد أن أغوص في داخل عينيها الكحيلة الفاجرة وحاولت أن تخفِّف من ضعف مقاومتي لها أثناء تهجمها عَليْ فحاولت أن تجعل من إبتسامتها صفاءاً يسعدني

فتذكرت في لحظة رحلة الذهاب والعودة من والى المدينة.. ليتها ظلّت بهذا الصفاء وظلّ في داخلي شوق إلى حب واحد روحي.. إنني مازلت طفلاً لا أقدر ولا أعرف ولا أستطيع مزاولة ذلك الحب الرغبة مع أي إمرأة.. ليتني ما دخلت عليها.. ليتني ما تأملتها.. ليتني ما طاوعتها وانطويت لها.. ولكن ما باليد حيله وما حيلة طفل في السادسة مع فتاة يافعه يانعه في التاسعة عشرة ربيعاً، وكل علاقتي بها وبأمها أنها من الأسر التي تنادي أبي خالي الحاج.. ماذا فعل هذا الخال بنساء القرية.. وهل الست لظيمه هي المرأة الوحيدة في الكفر التي تنادي أبي بالخال.. ما سر هذا الخال.. وما سر ابن هذا الخال.. ما سر حسن دون أبناء القرية.. الترعة وحرف الترعه ونساء عاريات بلا خجل.. سميرة الحب الى المدينة.. والآن سميرة كانت حباً أتمناه.. لكنني الآن لا أقدر عليه.. إنني طفل أتأمَّل وأتذوق وأتمنى.. إنني لست قادراً الآن على عمل شئ لسميرة مما تريده أليس في البلده رجال.. أين رجال الكَفْر.. يبدو أن الدنيا من حولي تفتقر إلى الرجال وفي داخل البيوت المقفولة توجد سميرة وكثيرات مثلها يغتصبن الأطفال.. إنهن لا يملكن غير ذلك.. إنهن جميعاً ينمن في فراشهن عاريات ويحضنَّ الحلم الذي ما إن طلع الصبح ذهب الحلم وبدأ واقع الحرمان..

.. كل فتاة وامرأة جميلة تتدللُ قدر جمالها.. سميره تعيش في بيتها هانئة.. تهيأ لحسن أنها تعيش في عالم من الحرير وأنها هي وأمها منفصلتان تماماً عن كل أهل القرية..

.. اضطجعت في سريرها وراحت تتأملني.. وكنت أحاول أن أدخل شعاع عيوني في أم عينيها متسائلاً مندهشاً كأنني أقول لها من أنت.. إبتسمت وكأنها أدركت ماذا أريد أن أقول لها :

– ياحسن.. من أنت.. أنت طفل بديع..

– أنا طفل ولكنني طموح..

– لا يجرؤ طفل في القرية أو الكفر أن تكون له هذه الجرأة..

– إنني لم أتجرَّأ عليك في شئ..

– دخلت عليَّ غرفتي وأنا نائمة..

– سألت عنك.. فأرشدتني أمك إلى غرفتك..

– لولا أنك غال عليها ما فعلت..

– من أنتم.. ولماذا أنتم تملكون هذا الجمال وهذه الإناقة..

– أمي ليست من هنا..

– وأبوك..

– من هنا..

– أين أبوك..

– مات..

– أليس لك أشقاء..

– لي شقيق واحد..

– أين هو..

– دائما في البحر..

– ماذا يعمل..

– قبطانا..

– ماذا يعني..

– يعني سائق باخره..

– ولماذا لا يأت..

– أرسل لنا خطاباً بالذهاب اليه في الاسكندرية..

– وهل تتركان القرية..

– ربما في القريب..

– والكفر والبلد هونان عليك..

– يا حسن يا روح قلبي أنا هنا محبوسه..

– كيف..

– إذا خرجت لأشتري أي شئ من السوق أو البقال.. التفَّ حولي الصغار والكبار..

– لماذا..

– إنك ترى أهل القرية جميعاً.. ناس غُشم.. عندهم كبت وعنف متزوجين من نساء حافيات فلاحات غلابه..

– ولكن في الكفر كثير من الشباب المتعلّم..

– الفرق أنهم يرتدون جلاليب نظيفه..

– ألا يوجد واحد منهم يكون جديراً بك..

– لا.. ومن أين أعرفه وكيف.. إنني أخاف من الشارع.. إنهم لو استطاعوا أن يخطفوني ويعتدوا عليَّ لفعلوا..

– وكيف فهمت ذلك..

– من كلامهم السخيف والمتعجرف من نظرات عيونهم الحقيره..

– إذا أنت مطارده من أهل القرية..

– إننا نعيش على جنب واحد..

– إننا نعيش في الأسر أو في المنفى..

– هل أنت قريبة لنا..

– أبداً.. لّما مات أبي تعرضَّت أمي لظلم رجل كبير..

– الرجل من الكفر..

– نعم..

– أي ظلم..

– كان يريد أن يقيم علاقة مع أمي بنفوذه..

– وما علاقه ذلك بسؤالي..

– عِلم والدك بذلك.. فجاء إلى الكَفْر وأوقف الرجل عند حَّده..

– وهل لأبي مثل هذا النفوذ..

– والدك ورجال معه من بحري يحملون الشوم والبنادق.. والدك كان قائدهم..

– شئ جميل أعرفه عن أبي الآن..

– ومن وقتها خاف الجميع في الكفر يخافون أن يقترب أحد منهم من بيتنا.. على فكره.. أهل القرى يخافوا مايختشوش..

– ومن وقتها أيضاً تنادي أمي والدك بخالي الحاج.. وكثير فعل والدك لنا..

– مثل..

– يرسل لنا كل شئ من الحقل.. بطاطس.. بصل.. ثوم.. كل الخضره والفاكهه التي يزرعها..

– بدون شئ..

– لا شئ.. إنه رجل فاضل حقاً..

– وأمي لم تفعل شيئاً لكم..

– يكفى علاقتها الطيبه بنا فمن وقت لآخر تزورنا هي وأمك لبيبه..

– أتمنى أن أكون مثل أبي وأمي..

– سوف تكون مثلهم وأكثر.. وسكتت برهه ثم طفقت قائله :

– على فكره من هم مثلك عندما يكبرون يجب أن يهاجروا من قراهم..

– إلى أين..

– إلى أي مدينة واسعة..

– وبلدى..

– بلدك ولدتك وترعرت فيها..

– مازلت غير قادر على فهم معنى الهجره لي..

– سوف تتخذ قرارك بنفسك..

– وعليه أنت ستسافرين الى الاسكندرية..

– وأنا سعيده لذلك.. شئ واحد سيحزِنني..

– ما هو..

– فراقك أنت ياحسن.. لاتندهش.. أنت طفل صغير لكنك رائع..

– أنا رائع.. ولكنني لم أفعل شيئاً لأستحق تقديرك..

– يجب أن يحافظ عليك وأنت صغير..

– أمي وأمي لبيبه تحافظان علىْ..

– أنت تختلف في هذه القريه عن بقية الأطفال وأعرف أنك تعيش في بيت فيه حياة خاصة لك..

– إستطعت بنفسي أن أبعد عن أطفال حارة أبو سمك وأولاد بيت أبو شنب إن هؤلاء أسوأ ما في الناحية البحرية من أطفال..

– هذا جميل.. مع من تلعب.

– لا ألعب الآن مع أحد.. ولكنني أستمتع بالجلوس على حرف الترعة وأتأمل الناس فيها..

– لا يوجد على بر الترعة غير نساء الفلاحين..

– كنت أستمتع بسيقاهن العاريه وهن يغسلن القمح والمواعين والملابس..

– ما الفرق بين جسدي وأجسادهن..

– إنني لن أجلس على حرف الترعة بعد اليوم..

– وأجساد النساء من يتفرَّج عليها..

– بعد أن رأيت جمال جسدك اليوم فإنني أشعر بالخوف والقرف من كل شئ فيهن..

– تجاهلني..

– عندما رأيتك مسحت كل ما رأيت.. ولا يجب إذا كنت أعرف معنى الجمال أن أنظر إليهن مرَّة أخرى..

– إن هؤلاء النسوه قليلات الحظ.. إنهن غلابة أولاد غلابة.. إن أي إنسان من نوع اللبن الذي شربه من ثدي أمه ونوعية طعامه يتكون الجسد..

– يبدو هذا صحيحاً.. إن هؤلاء يأكلون الجبن الحادق والبصل والمش وإنَّ أمهاتهن يرضعنهن من ثدي جاف لبن ناشف من خلاصة البتاو والجبن والمش.. ليس فيه غذاء..

– لقد فهمت.. ولذلك تجد أجساد النساء مثل عود الحطب أو مثل فرع الجميز من شدة القهر..

– ليس الذنب ذنبهن..

– لا.. ولكن ليس أيضاً ذنب أزواجهن أو أهلهن.. إنه الفقر الذي يورث..

– إنها أجيال وترى القرى غارقه في أعمال تورث ومناطق للفقراء وشوارع معروفه منذ مئات السنين ولا يستطيع هؤلاء الفقراء تغيير حياتهم لأنه ليس هناك من يقودهم ولا يوجد مثل أعلى من بينهم تجدهم غارقون في غيهم..

– لا أفهم..

– إنهم جميعاً يغرقون في إحتساء الشاي طيلة الليل وتدخين الجوزه والسجائر.. ويختلطون مع بعضهم رجال ونساء وتجد من العلاقات الجنسية بينهم مالا يستطيع عقل بشرى أن يتصوره..

– دخلت مَّره شارعاً يسكن فيه الفقراء فوجدته مظلماً من أوله لآخره..

– إدفع أبوابهم تراهم.. إصعد إلى سطوح بيوتهم في الصيف.. تلصص على قاعات نومهم في الشتاء.. تجدهم هردبيسه عيسه..

– ماذا تعني هردبيسه..

– إنها ليست هريسه أو بسيسه كما تظن.. أقصد لا حق ولا باطل تستطيع أن تفّرق.. والباطل هو الحاكم.. والظلام ينتشر والمرأة التي ترقد لواحد ترقد لجميع من في الحاره والرجل الذئب في

كل حارة يعتاد كل النساء فيها.. وتجد في ذلك علن.. العلن المخفي.. ولذلك تجدهم في الصباح مهدودي الحيل مستهلكين.. خلصانين.. يحضنون كل ألوان ضعفهم ويذهبون إلى الحقل أجراء خدَّام عبيد لأصحاب الأرض ويحلم كل منهم أن يعود إلى بيته في المساء ليمارس ما اعتاد عليه منذ ولادته.. إنه الميراث من الخوف والخضوع والضعف والذل الذي يأكلون منه ويرضعونه صباح مساء..

– كيف توصلت إلى ذلك وأنت تعيشين في النعيم.. إن بيتكم وسط بيوت الأغنياء فكيف عرفت كل هذا وأنت بعيدة عن هؤلاء..

– من البائعات والخدامات والطباخات والشغالات منهن.. إن أسهل ما عند هؤلاء الناس أنهم يحكون كل شئ وبالتفصيل وبلا خجل.. وكثيراً ما حكت لي أمي وأبي قبل أن يموت.. وأنا ألستُ من الكفر..

ألم أعش في هذه القرية الكبيرة التي تضم كفرنا تسعة عشره عاماً.. لقد نلت الإبتدائي والإعدادي في القرية.. وحصلت على الثانوية العامة من المدينة . الإختلاط مع زميلاتي والحكى والحواديت والتلافيق والمكر والنصب والسرقة وروايات الحب والعشق والزنا.. لقد ورمت عيني مما سمعته..

– من أجل ذلك ستذهبان إلى الاسكندرية..

– أخي أحمد له شقة في الإسكندرية وعمله هناك وهو يحتاجنا بجواره.. ليس لنا غيره وليس لنا شيئاً هنا غير هذا البيت..

– وأنا..

– أنت الدنيا كلها.. أنت صغير لكنك عالم جميل.. إنني لأول مَّره في حياتي أترك نفسي وجسدي لواحد من الرجال.. إطمأننت إليك.. لكنه الكبت والحاجه لأن تفكَّ فتاة نفسها.. صحيح كان ذلك مع طفل صغير لم يبلغ السابعة من عمره بعد.. ولكنني سعدت بك قدر ما استطعت ويكفي أن قلت ما في نفسي لك سواءاً كان خاصاً بي أو خاصاً بأحوال القرية.. أعرف أن كل ماحكيته لك كثير عليك وعلى رأسك الصغيرة.. تكلَّمتُ معك وأفضت كأني أكلِّم نفسي..

.. وبكيتُ وراحت تمسح دموعي وقلت لها :

– عندما تذهبين إلى من أذهب..

– لا تذهب إلى أحد..

– قطعت اللعب مع أطفال القرية الأوباش وسأمنع نفسي من الجلوس على حرف الترعه.. أين المتنفَّس لي..

– إصبر.. إقرأ.. تأملّ.. ذاكر..

– أصبر على شئ هو أقوى مني.. وكيف يتعلم صبي صغير الصبر..

– اقرأ..

– ماذا اقرأ.. أرنب.. شرشر.. جلال يأكل الفول.

– تأمل..

– أتأمل ماذا.. كنت سأتأمل جسدك ووجهك كما تأملته اليوم.. ولكن الى أية فتاة جميلة أذهب اليها بعدك لأ تأملها..

– التأمل ليس في جسد المرأة ووجهها فقط..

– لقد تعلمت التأمل في ذلك فقط..

– ذاكر..

– أذاكر التفاهات من مدرسين لا حول ولا قوة لهم في التربية والتعليم..

– إذهب إلى الصلاة.. صلى كثيراً..

– هذا شئ قوى لا أقدر عليه الآن.. إنني أصلّي بجوار أمي كل صلاة..

– إذهب مع والدك في المسجد وإذهب إلى الدكان والسوق والحقل.. لا تترك أبيك حتى تتعلّم ما يصنعه الرجال..

– ربما أجد في الحقل مع أبي ما قد يعينني عن التأمل.. وقد أجد ما أتأمله..

– سوف تجد.. هناك الكثير في الدنيا حولنا ما هو جدير بالتأمل..

– إنني لا أجد الآن أفضل ولا أجمل منك لأ تأمَّله..

– إن وجه المرأة وجسدها واحد من مئات الموجودات الجديرة بالتأمل.. وإن مخلوقات الله وآيات السماء والأرض والجبال

والشمس والقمر لهي أجدر ما في الوجود لنتأمله.. ولكنك لن تستطيع ذلك الآن لأنك صغير..

– إنني غير قادر الآن على إستيعاب هذه الأشياء..

– عندما تكبر ستذهب إليها وحدك.. الآن اذهب مع أبيك الى الحقل..

– مثل ماذا سأجده..

– الزرع.. البحر.. الحصاد.. الحيوانات.. المراكب فوق فرع النهر.. الفلاحات..

– سأذهب ولكنك ستذهبين..

– سوف أذهب وأرسل لك عنواننا هناك وعندما تكبر تأتيني..

– سأجدك متزوجة..

– حتى..

– وهل أستطيع تأملك وأنت متزوجة..

– الذي حدث اليوم لن يحدث وأنا متزوجة.. ولكن تأمل وجهي.. كن لنا وزوجي صديقاً وأخاً.. ألا تعمر الحياة الإنسانية بأشياء ومعاني أخرى أفضل وأنبل..

– لا أعرف..

– سوف أرسل لك عنواننا وبعد أن يشاء الله تعال إلينا..

– أكيد سوف آت..

– تكون بيننا الخطابات أليس هذه وسيلة لإتصال الود..

– سوف أراسلك وأقول لك كل أخباري..

– سوف أحكي لك عن الإسكندرية وعن حياتي فيها..

– يا صبر..

– صحيح جاءك الصبر.. أليست هذه وسيلة لتغذية الصبر.. ياحسن من يصبر ينل..

– ياصبر..

***

"الخميس وشلةِ المرتزقه"

عندما عدت إلى البيت وقت المغرب مع سميره قابلتني أمي وهي تلومني عما أفعله:

– لو لم تكن مع سميره لضربتك..

– معلهش يا طنط.. كان لازم نشبع منه قبل ما نسافر..

– دا بقه شقى أوي.. ها تسافروا فين..

– إسكندرية..

– والبلد..

– ما نقدرش نقعد أكثر من كده.. البلد مافيهاش حاجة..

– هاتوحشونا أوي.. خلاص مافيش ناس هانزورها واحنا والله ياطنط مافيش أحسن منكم في البلد كلها..

– والبيت..

– نقفله.. يبقه خالي الحاج يبيعه..

– كتير بنشكر ماما على الأكياس.. أم ابراهيم جابتها من بدري..

– لأ أبداً دي أقل حاجة..

كانت أمي وأمي لبيبه يجلسان مع الضيفه في المندره ومنذ بداية الحديث الذي دار بينهما رحت أقلّب في رأسي ماذا غير الشاي الذي أحضرته أمي لبيبه لها آتى به لسميره.. هرولت إلى غرفة

الغموس.. وأخذت أكشف الحلل والدسوت بها.. إلى أن وجدت في مقطف برتقالاً ويوسفي.. ملأت صحناً منه وحملته إلى المندرة وقدمته إلى سميره..

– دوقي برتقاننا..

راحت أمي وأمي لبيبه تضحكان في سعادة وكأنه سيده كبيره في بيت تقدم لضيوفها الواجب وقالت أمي وهي تضرب كفاً بالآخر :

– عمره ما عمل كده لحد.. أد كده بتحب سميره..

– وأنا بحبه وبموت فيه.. وهو الشئ الوحيد في البلد اللى هاحزن عليه..

– ربنا يخليك يابنت.. تبقى إبعتي عنوانك..

– ضروري ياطنط..

– هاتيجوا لينا إسكندرية..

– مالناش دعوه بيها.. دي بتاع الأفرنج..

– تعالوا زورونا..

– نفسنا نروح اسكندرية.. كفاية الجوابات..

أكلت سميره برتقاله بعدها إنحنت فوق حسن فقبلت كف يده ثم اهالت قبلاتها على خديه وبكت.. وقدمت لها أمي لبيبه فوطه لتمسح دموعها.. ثم قالت وهي تقبل أم حسن وأمي لبيبه :

– هاتيجوا إمتى..

– هاتسافروا امتى..

– بعد إسبوع..

– بالكتير ثلاث أيام.. هانجيب الحاج ونيجي..

وجرى حسن نحو الباب ووقف فيه ومد ذراعيه حتى لا تخرج سميره وسط إندهاش الجميع من لطف الصغير وراح ثلاثتهم يضحكون في إبتهاج من حركات الطفل..

خرجت سميره من الباب الكبير حتى باب السور وحسن يمسك بطرف ثوبها مودعاً وظل معها يمشي حتى حنفية مياه خليفة الأكرت..

عاد إلى أمه ولبيبه فأمسكا به وراحت كل منهما تقبله على حُسْن ما فعل.. دخل بعدها غرفة نومه وانكفأ في فراشه وغطى وجهه وعمل كأنه ينام حتى لا يرى أحد دموعه..

بعد العشاء أفاق من دموعه قليلاً وساعده على ذلك عودة أبيه من الغيط.. وكان الرجل عندما يدخل البيت وهو يمتطي حمارته يحمل في مقطف أمامه مالذّ وطاب من خيرات الغيط.. وقبل أن يجلس على مصطبه ساحة المنزل الخارجية.. ليسأل بصوت جهوري:

– فين حسن..

– خرج اليه حسن وجلس بجواره.. كانت عيون ولده حمراء من كثره البكاء فقال له والده..

– مال عينك..

– كنت بعيط..

– ليه..

– سميره هاتمشي..

– مش فاهم..

وتدخلت لبيبه

– سميره بنت لظيمه هايسيبوا البلد..

– على فين..

– اسكندرية..

– طيب واحنا مالنا يا حسن.. بتعيط على ايه..

تضحك لبيبه

– عيل ومتعلق بيها.. وسميره بتحبه أوي..

– كل البنات في السن دي بتحب الاطفال اللي زيه..

ويضحك الرجل بصوت عال وشعر بأن حسن لا يعجبه كلامه فتابع الحاج قائلاً:

– يعني من دلوقتي ها تتعلق بالحريم.. إنت هاتبقه مصيبه..

– هو الحب والبراءة مصيبه..

– يعني لسه بدري على كده..

– سيبني أحب..

– خلاص يا حسن حب الدنيا كلها..

– ربنا يخليك يابه.. يعني أحب زي مانا عايز.. حب ربنا.. حب الناس.. حب الزرع.. حب المدرسة....بس حب البنات لسه بدري عليه..

– إذا حبي لسميره هو كل حبي للدنيا..

– والله أنا مستغرب.. بتقول كلام كبير أوي كإنك راجل كبير..

– مش معنى إنت بتحب.

– أنا لما كبرت اتجوزت..

– حبيت أمي لبيبه وأمي..

– حبيت أمك لبيبه..

– وأمي..

– إتجوزت أمك علشان الخلف..

– يعني مابتحبش أمي..

– هو فيه حد مايحبش مراته..

وكانت أمي بالداخل لم تسمعه ماذا قال عنها ولكن أمي لبيبه كانت تقف في باب غرفتها وكانت السعادة تكاد تنط من عينيها.. ولم أكن سعيداً على ما قاله أبي ولذت بالصمت وزادني في كلامه حزناً.. ومضى بعض الوقت فيه جهزت امي طبليه العشاء في الصالة الداخلية للبيت.. ونادتنا بأن العشاء جاهز.. إلتففنا جميعاً حول الطبلية.. الزوجتان وسعاد أختي التي تكبرني بخمس سنوات والتي

دائماً تجلس بجوار أمي لبيبه.. وعبد العزيز الذي يصغرني بعامين ثم محمد عمره ثلاث سنوات.. والغريب الذي لاحظته بل واعتدت عليه أن إخوتي الثلاثة لا يتكلمون ولا يحكون ولا أحد يهتم بهم.. وكأن البيت ليس فيه إلا حسن وقلت لنفسي لماذا؟.. ولم أجب على سؤالي.. كانت سعاد في الرابعة الابتدائية في مدرسة البنات إعتزلت الدراسة لما انتهت من السنة الرابعة.. كانت تنام ليل ونهار مع أمي لبيبه في فراشها وكان عبدالعزيز بعيداً عن أمي ينام في غرفة أمي لبيبه على الكنبه.. تعودا على ذلك منذ الصغر.. أما الصغير محمد فهو لا يدري بشئ ولا أحد يهتم به.. إنه ينام على كنبه في المندره أو في ركن فوق فرن القاعة.. كانت غرفتي وفراشها ودولابها والكنبه التي بها أنظف غرف البيت.. وكنت اعتقد دائماً أن سعاد وعبد العزيز هم أبناء أمي لبيبه وأن محمد هذا قد وقع من قعر القفه.. لا أعرف من تكون أمه..

وهكذا توزعت العواطف والحب في البيت وشعرت بأن هذا ظلماً ولكنني لم أفعل شيئاً لرد الظلم ولم أسأل أبي عما يحدث لأنني في نهاية الأمر كنت سعيداً بأن أكون وحدي موضع الإهتمام وأن أكون كل شئ.. ولكنني في يوم سألت أمي ولم يكن أحد يسمعنا :

– لماذا تنام سعاد وعبد العزيز في غرفة أمي لبيبه..

– أبوك عودهما على ذلك.. شئ من الحب..

– شئ من الحب على مين..

– على مراته..

– مش فاهم..

– علشان ماتنامش لوحديها ويونسوها إكمن ما عندهاش ولاد

– بس كده ولادك بعدو عنك..

– فعلا يابني وأنا سبتهم تربيهم لبيبه.. مش مشكلة ربنا عوضني بيك

– ومحمد الغلبان..

– دا راضي بأي شئ.. تعرف لو نيمته في زريبه البهايم مش هايقول لأ..

– وهو ليه غلبان..

– هو كده طفل بيحب الغلب والصبر عنده جميل.. ومابيعيطش.

– طيب هاتيه ينام معاي.. لأنه غلبان اوي..

– مافيش مكان.. وهو مش داري بحاجة دلوقتي..

– ولما يكبر..

– ينام برضه مع أمك لبيبه..

– إنتِ اللي عايزه كده.. قلبك قاسي يامه..

– لأ والله يا حسن.. أنا مش هاقدر أحبهم أكتر من كده..

– ومش عايزه حد تاني ياخد قطره من حبي ليك..

– يانهار إسود يامه أد كده حبك ليه..

– يابني هي جت معايا كده سيبها تمشي طالما الكل مستريح..

– أنا بحب محمد.. هاتيه جنبي..

– ماينفعش..

– ليه..

– لأن ولادي الثلاثة بيعملوها على نفسهم بالليل ومش قادره أنضف كل ده..

وفي كل صباح إعتدت أن توقظني أمي في رقه بالغه فأصحو وأنام وأتدلل وإذا زدت في دلالي عليها قلت لها لن أقوم إلاّ إذا جاءت أمي لبيبه وأيقظتني.. تذهب وتنادي ضُرتها لتوقظني وتأتي لبيبه وهي سعيده لأنني طلبت ذلك فتقول أمي لبيبه:

– حسن قوم المضرسه. حسن المضرسه.. (تقولها بالضاد) تنادي ثلاث واربع وفي الخامسة أطلق ضحكه عاليه وأقوم.. كنت أستمتع جدا بقولها المضرسه.. فتسعد السيدة وتذهب الى غرفتها مع أطفالها..

وفي وقت الذهاب الى المدرسة يكون أبي على وشك أن يعود من الغيط.. إن أبي يذهب إلى الغيط كل صباح بعد صلاة الفجر راكباً حمارته الركوبه (يعني ببردعة حمراء)، وطيلة طريقه الى الغيط الذي يبعد عن البلده كيلو مترين يقرأ القرآن بصوت مسموع يسمعه من بجواره من الناس رجال ونساء الذين يذهبون الى الغيط لبدء أعمالهم وكانت النساء تذهب الى الغيط في هذه الساعة البدرية لحلب الجاموس والبقر.. ولا مانع إذا قام واحد من الناس رجل أو إمرأة بعرض شكواه ومشكلته على أبي ربما يجد لها حلاً.. وكان الجميع ينادونه يابه الحاج أو ياخالي الحاج .. وعلى ما يصل أبي إلى

الغيط في هذه الساعة البدرية يكون قد حل بعض المشاكل للناس أو وعد بحلها أو أعطى موعداً بعمل جلسه لها إذا كانت مشكلة مستعصيه لا ينفع فيها الكلام على الماشي..

.. وكان لأبي صوت قوي عال.. فإذا سعل في الطريق سمعته كل البيوت على جانبي الطريق وكذلك إذا كح أو عطس.. كما يقولون رجل له حس.. وعند سماع صوته أيا كان يعطس أو يسعل يستيقظ كثير من أصحاب بيوت الحقل قائلين :

– قومي يابت النهار شقشق أبوك الحاج وصل..

– قوم يا سليم النهار شقشق عمك الحاج وصل..

– قومي يا ستيته صلي قبل الشمس عمك الحاج جه..

– قوموا ياولاد إجهزوا للمدرسة أبوكوا الحاج زعق..

وقبل أن يصل أبي مترل الغيط يكون النفر (العامل الزراعي) قد استيقظ من صوت عمه الحاج طيلة الطريق.. يقوم ويغسل وجهه ويصلي ثم يشعل النار في حفره بالأرض أو في وعة الفخار.. يشعل النار ليتدفأ ثم يعمل الشاي بعد أن يسخن (العيش والبتاو) ليتناول الفطور معه عمه الحاج.. وكان الحاج رجل متواضع فهو يقصد أن يتناول بعض الطعام مع العامل في الصباح أو في الظهر أو في المساء ليشعر العامل بأنه مثله تماماً ويرفع من روحه وكان العاملين في حقلنا يحبون أبي لتواضعه ومعايشته لهم في كل شئ.. وعلى ما ينتهو من الطعام يكون العامل أو العمال قد حكوا لأبي مشاكلهم أو أمورهم لأنه قريب منهم وهم في الاساس يرتاحون للحكى معه.. وعندما يبدأ العمل وفي خلال النهار يكون الرجل قد وجد حلاً أو

حلولاً لمشاكلهم وأوجاعهم حتى ولو بالرأى.. إنه رجل يحل مشاكل الناس جميعاً والأولى بذلك من يعمل عنده..

وكان من العادات الجميلة كل شقشقة نهار أن كلاب الحاج في الغيط يستيقظون أيضاً على حسه وكانوا ثلاث كلاب أكبرهم سعيد ثم قرطي ثم برعي.. يقف الكلاب صفاً واحد يهزون ذيولهم مبتسمين مبتهجين لقدوم صاحبهم.. وقبل أن ينزل من فوق حمارته يكون الكلاب قد شب (قفز) كل منهم لأعلى تحية لعمهم الحاج.. وكان يأتي لهم ببقايا البيت في البلدة.. كالعظم والشغت والطبخ والأرز الذي قد يلقى به ستات البيت في الزبالة.. يأتي للكلاب بهذا الطعام الطري ليبرهم ثم يعطي لهم من طعام الغيط البتاو والعيش الكفاية كي يشبعوا.. وفي هذه الايام من أول الخمسينات كانت الكلاب ضروري تربيتها ووجودها في كل حقل لحراسته والدفاع عنه من الذئاب والثعالب التي كانت كثيره جدا في هذا الزمان وكان للكلاب فوائد كثيرة منها حراسة الزرع والمحاصيل والبهائم من عبث اللصوص..

هي ساعة يمكثها الرجل في الغيط أو ساعتين حسب ظروف العمل في الغيط ثم يعود الى البلده ليدخل في غرفة أمي لبيبه لينام قليلاً والتي تدعه يرتاح وإذا قام حكيت له كل أحداث البيت.. وإذا كان يريدها نامت له وريحته على الآخر.. إنها الزوجة المطيعه لزوجها.. إنه إبن عمتها ستيته وهي بنت خاله محمد درويش.. لقد أنجبت منه إثنى عشر بطناً ولم يعش منهم طفلاً واحداً.. إنهم يموتون بعد شهور قليلة من ولادتهم ربما طبياً لقرابتهم وفي الآخر هي حكمة الله.. وكان الرجل إنساناً وعطوفاً معها عندما أعطاها سعاد

وعبد العزيز وعندما كبرا كانت سعاد شديدة الالتصاق بأمها لبيبه وعبد العزيز.. وكانت المسافة بعيدة بين الام وهذان الابنان لان الام مرتاحة لذلك وهي لا تحب بشدة غير حسن.. ثم بعده محمد المعلق بين المندرة والقاعة.. انه الشريد الطيب الساكت وكانت السيدة مأمعه وجميلة زوجتا عبد العال إبن عمتي كانتا يطلقان عليه الخرنج وذلك عندما كبر قليلاً وذهب الى المدرسة.. يقولون له ياخرنج فيضحك..

جاء أبي بوالدتي من قرية تلوانه مركز الباجور منوفية والهدف الذرية.. وكان للرجل مواصفات أن يأتي بواحده مليحه الوجه بيضاء طويلة بضة الجسد وكانت أمي هي تلك التي يريدها.. كان جدي أحمد فوده يملك أرضاً زراعيه تتعدى ثمانية أفدنة وكان من أحسن زراع البطاطس والقطن في تلوانه وكان أيضاً من أفضل الفلاحين الذين يقومون بتربية العجول والبقر والجاموس.. وكان سبب زواج أبي بأمي بقره.. ذهب أبي ومعه صديقه إبراهيم عوض ليشتري أبي بقره من عند هذا الرجل .. لمح أمي وهي تعدي أمام المندرة لملأ حلة الطبخ من مياه الطلمبة الموجودة في داخل البيت.. ولما سألت أبي لماذا أعجبت بأمي واخترتها زوجه لك قال :

– لمحت كعب رجلها.. أبيض أبيض.

– بس كده..

– كانت بنت أد الشمروخ.. كانت شرخه..

– إني أراك لا تحبها الآن كما تحب امي لبيبه..

– للأسف أمك مش ناعمه بترفس.. وعلشان كده بروح للبيبه مابتوجعش دماغي..

– ليك حق يابه..

– إنت زعلان..

– طبعاً زعلان..

– قولها تبقه ناعمه شويه..

وكنت أحزن كثيراً للمسافة التي بين أبي وأمي.. أن أمي تعطيه نفسها تأديه واجب وهي راضيه بذلك.. إن كل همها أبنائها.. وبالذات حسن إنه بالدنيا كلها إنه يملأ قلبها وعقلها..

أول ما أنجبت أمي سعاد.. بعدها ولدت سعيد ومات بعد ثلاث شهور.. بعده ولدت سامي ومات بعد اربعة شهور.. تعقد الرجل نفسياً ولولا إيمانه ماصبر.. وكان يصبر ويطلب من الله ولد وكان جميع أهله وأحبائه يدعون له بالولد.. أما أعظم أهل زوجته لبيبه فكانوا لا يريدون له ذلك حتى تعود زوجته حميدة إلى تلوانه لأنها لم تحقق له الهدف ويخلو البيت من ضره وليكون بيت حداد هذا مرتعاً لهم من طعام وشراب ومال.. هكذا كان الحال ويرأس هذا الهدف من أهله خالته أم الرزق الورك ونجيب شقيق لبيبه وكذلك عبده ومرات عوني شقيق لبيبه وهي إمرأة سليطه اللسان وكانت تكره أمي وترمي عليها بالنقوزه والتريقه وتدعي غنيمة أبو راكية.. رأيت ذلك بعيني عندما كانوا يأتون إلى البيت جميعاً كل يوم خميس (يوم السويقه) ويقعدون جميعاً بربطة معلم أمام غرفة أمي لبيبه.. أم الرزق خالة أبي وعبد الرازق الورك زوجها.. ونجيب وزوجته سيدة وعبده

وزوجته تفيده وغنيمة مرات عوني وأحيانا عبد العال وزوجته بنت عبد الحميد أبو راكية.. يأكلون ويشربون ملأ بطونهم وعندما تمر أمي من أمامهم وهي تقضي حاجات البيت.. وهات ياضحك وتريقه ورمي كلام على أمي.. كانت شلة ناهبه بيئة من الناس وجميعهم أقارب أبي.. رأيت ذلك بعيني عندما كبرت وأدركته تماماً عندما بلغت الخامسة.. ولم يكن أمامي غير أن أدافع عن أمي.. أعددت عدتي يوم الخميس وأحضرتُ شمروخا كان في ركن القاعة وجلست أمام المندرة المواجهة لغرفة لبيبه.. جلست أنتظر الشله واحداً بعد الآخر.. وكانت أمي لبيبة تنظر الىَّ مندهشة.. لماذا يقعد هكذا.. لماذا يمسك بالشمروخ.. جلست هادئاً ولكن في تحفز وانتويتُ أن أضرب بالشمروخ كل من ينال أمي بكلمة أو تريقه.. وسألتني أمي في همس ليه قاعد كده.. فقلت لها في همس أيضاً.. هاتشوفي..

خالة أبي البغيضه وزوجها أول من وصلا أخذا مكانهما فوق الحصيره.. ثم نجيب وسيده زوجته وصلا من شروة حسن وعبده وزوجته تفيده عميره ثم عبدالعال وزوجته فريده ثم سليطة اللسان غنيمة أبو راكيه.. الطبلية الكبيرة وضع عليها مالذَّ وطاب من طعام البيت أكلوا جميعاً ثم أشعلوا الباجور لعمل الشاي وبدأت غنيمة مشهد التريقه عندما مَّرت أمي من أمامهم لتملأ القلل من مياه الطلمبة التي في داخل سور البيت وكانت أول القصيدة.. غنيمة :

- ياختي كنت جاية عشرة كيلو بقيت ميَّه..

لم ترد أمي.. فهذا شئ متعوده عليه..

واحد منهم لم يعجبه الكلام.. أخذ زوجته وقام الى السوق.. عبدالعال درويش وزوجته فريده انسحبا وذهبا.. لم يعجبهما الكلام.. وقال عبدالعال لغنيمة وهو يغادر القعده :

– عيب يا غنيمة..

وأمي تعود بالقلل..

غنيمة – مهما عملتيله مش هايعبرك.. إحنا جايبينك زي البقره علشان تخلف بس..

لم ترد أمي ومشت في طريقها إلى داخل البيت..

كان عليَّ أن أنطق بكل قوة.. خبطت العصا (الشمروخ بقوة في الارض وقلت بصوت عال مبحوح موجهاً الكلام لغنيمة..

– يامرة يابنت الكلب مالكيش دعوة بأمي..

إندهش الجميع وقال نجيب

– وانا كنت باحسبك طيب ومؤدب.. دي بتهزر مع أمك

حسن

– أمي مابتهزرش معاكم ياولاد الكلب كلكم..

غنيمة

– طب أسكت دا إنت حبيبي.. دا أنت ابن حبيبنا أنت بتحب أمك أوي كده..

حسن

- أمال أحب مين يابنت الجزمة..

عبده

- دا الوضع مابقاش زي الأول.. بقه فيه حد يدافع عنها..

أم الرزق

- العِّيل قليل الأدب يتكسر رقابته..

حسن

- كسر رقابتك يامرة ياكبيرة يا شايبه ياعيبه ياأم دقه.. جتك نيله دا إنت عامله زي العِرْسَه..

قام عبده وأخذ زوجته تفيده في يده وقال وهو ينصرف :

- لأ لأ.. دا الأمور إتغيرت..

أم الرزق

- رايح فين أقعد لما ييجي أبوه يربيه..

حسن

- يربي مين يا أم الشعور.. يامره ياشحَّاته ياواطيه.. خدي جوزك الجربان وامشي من هنا..

أم الرزق

- يانهار إسود.. طيب أنا هامشي ياله ياعبد الرازق.. لما ييجي حداد لو ما مشاك إنت وأمك مش هاكون خالته..

حسن

– كـــ.. على ك.. أم أبوك أمشي يامره ياعرَّه..

غنيمة

– كده تشتم خالة أبوك.. صحيح مش متربي زي أمك..

جريت مندفعاً نحوها وبكل قوتي ضربتها على ذراعها بالعصا بكل ما أوتيت من قوه.. رقعت غنيمة بالصوت فدخل بعض النساء الى البيت اللاتي يذهبن الى السويقه فصرفهم نجيب قائلاً :

– مافيش حاجة إمشي يامره إنت وهيَّ..

.. إنفضَّت قعدة السويقة وهرولوا جميعاً من جلسة الهبر والسوء والنميمة.. ولو استطاع أي منهم أن يفعل شيئاً في حسن لفعل.. إنه ولد أبيه الغال.. وأخذت أم الرزق غنيمة أبو راكيه إلى مستشفى القرية في الكفر ليتم الكشف على ذراعها.. وأول من قابلت أم الرزق وغنيمة وهما في طريقهما إلى المستشفى السيدة زكية زوجة سالم الصاوي التي بادرتهما قائله :

– إيه فيه إيه يا أم الرزق..

– حسن ضربها بالشمروخ..

– أكيد ضايقته بحاجة..

– لأ أبداً طالع لأمه بيكره أهل أبوه..

وفي شجاعه قالت السيدة زكيه :

– دانتو معروفين في الحته كلها جايين تنهبو! وتاكلوا وعايزين تطفشوا الوليه بعد ما جابت له تلات عيال..

– بتحبوا الغريبه عن بنت البلد.. إحنا أهل الحاج ومايقدرش يستغنى عنا..

– لو كنت خالة الحاج بصحيح كنت تجبي ولاده عن أي ناس تانيه.. لكن إنت طول عمرك مره ناب..

– إنت بتشتميني يامرات سالم..

– والله لأقول لعبد العزيز الصاوي سلفى إنتو عايزين تعملوا إيه في الغريبه دي.. علشان يلحق ويعدل راس الحاج حداد..

حدثت هذه المداولة الحامية لّما تمكنت زكية الصاوي من الامساك بأم الرزق من شمارها في غيظ وأوقفتها هي وغنيمة أبو راكيه وادهم كلمتين حلوين همّه خلاصه ما يقوله ويعرفه دار الصاوي أقرب دار إلى دار الحاج حداد.. وفي سعاده بالغة أخبرت السيدة زكية كل النساء اللاتي يملأن المياه النظيفة من حنفية خليفة الأكرت التي تتوسط المسافة بين دار الصاوي ودار الحاج حداد.. وفي كل سرور وفرح قالت للنساء :

– شوفوا ربّنا حسن كبر وضرب غنيمة على دراعها بالشمروخ..

وترد سيدة تملأ وعائها بالماء :

– أتاري أم الرزق واخداها وريحه ناحية المستشفى..

وتهز سيدة أخرى رأسها وتقول في حكمه :

– بيبهدلوا الغريبة أم العيال أكتر من عشر سنين وكل حاجة ليها آخر..

إمتلأ وعاء السيدة زكيه الصاوي بالماء الصافي وحملته فوق رأسها وتركت الخبر بين نساء الحنفية واحده تقول للتانيه ومافيش واحدة إلا لما فرحت ودعت لحسن بالعافية علشان يطلّع المرتزقه من بيت أبيه.. وكلما قابلت زكيه إمرأة في الحته قالت لها تطور الأحداث في بيت الحاج حداد حتى وصلت إلى دارها.. وهناك قرب باب البيت كان حداد إبنها وعبد الحميد إبن أخت جوزها يلعبان على دكة خشبية فقالت لهما من شدة فرحتها :

– إنتو عارفين حسن بن الحاج حداد

وفي صوت واحد قالا :

– أيوه.. داحنا بنحبه وبنلعب سوى.. فيه ايه حصل ايه..

– ضرب بالشمروخ غنيمة الغجرية بنت أبو راكيه..

– ليه يامه.. غنيمة دي مين..

– هاحط الحله وآجي أفهمكم..

– إحنا بنلعب معاه وخلاص..

كم سعدت السيدة حميدة فوده بإبنها.. أخذته ودخلت غرفته وأشعلت كوز البخور وراحت ترقى ولدها من الحسد.. ودخلت لبيبه غرفتها وراحت تفكر في ماذا تقوله لحبيبها الحاج.. وهل تستطيع أن تقول أن حسن غلطان.. إنه مهما كان طفل والطفل أبداً ليس لأحد حق عنده.. إن عمتي أم الرزق هي التي شجعت غنيمة على شتيمة الولد وأي ولد ليه حق يدافع عن أمه.. أجيبها من الآخر علشان أحمي نفسي.. هاقول للحاج.. خالتك غلطانه

وغنيمة غلطانه وحسن ليه حق.. بعد كده يا حاج هادخلهم القوضه وأقفل عليهم يبقوا بعيد عن حسن وأمه..

وعند الظهر وصل الحاج من السوق كان يبيع جاموسه قطعت اللبن.. راح الحاج يعد في فلوسه ثمن الجاموسه مرة أخرى ودسها في جيبه وكان يجلس على المصطبه بجوار الصومعة التي يخزنون فيها القمح.. أخذ نفساً طويلاً وقال للبيبه:

– أمال فين جماعة الخميس..

– مشيو..

– ليه مشيو بدري.. كلو وخدو راحتهم وشبعوا..

– أيوه ياحاج.. هاقولك على اللي حصل وأحلف بالله أقول الحق..

– فيه ايه. ايه اللي حصل يالبيبه..

– غنيمة إتنقوزت على حميده وهي ريحه جايه بتقضى شغل البيت..

– وبعدين..

– وخالتك رُخره ما سبتهاش تريقه..

– وبعدين..

– حسن شتم خالتك ردت عليه غنيمة وسبّت أمه..

– وبعدين..

– قام حسن بالشومه وضرب غنيمة على دراعها..

– يانهار اسود كل ده وأنا في السوق..

– وفين غنيمة.. إتعورت..

– خدتها خالتك وراحت بيها المستشفى.. مطرح الضربه ورم شويه..

– وفين حسن..

– جوه مع أمه..

ونادى حسن

– يا حسن.. ياحسن..

جاء حسن ووقف عند باب الوسط فقال لولده في هدوء وهو يكضم قليل من الغضب :

– ليه تعمل كده ياحسن..

وفي شجاعة وهدوء أيضا قال حسن :

– لو واحدة شتمت أمك هاتسكت لها..

وارتبك الحاج وسكت ثم طفق بعد برهه :

– قالو لأمك ايه..

– يتغمزوا عليها في الريحه والجايه والكل يضحك.. أمي زي البقره تخلّف وبس..

– أمي كانت عشرة كيلو وتخنت من أكل الحاج..

ونظر الى لبيبه شذراً وقال :

– ليه يا لبيبه يحصل وانت قاعده..

– مابقدرش على خالتك وعلى غنيمة..

– طيب يبقه الولد ليه حق.. أنا لو مكانه هاعمل كده..

– شوف ياحاج أنا معاك في أي حاجة تعملها..

– يا ليبيه خلّي بالك حميدة مش هاتمشي..

– وأنا قلت كده ياحاج..

– أنا دلوقتي صحيت وعرفت مصلحتي.. كام عيل من حميده..

– كل دول .. يا حاج..

– سعاد وحسن وعبد العزيز ومحمد.. أربع عيال..

– مش فاهمه يا حاج.. إنت بتعايرني علشان ماخلفتش..

وراحت لبيبه تبكي بصوت عال.. ولكن الحاج تجاسر وقال :

– عَّيطي زي ما انت عايزه.. إملى الدنيا عياط..

– يعني مش هامك ياحاج.. مابتحبنيش ياحاج..

– الله يخرب بيتك وبيت مخك.. أحبك حاجة وولادي حاجة.؟.

– يعني بتحبني..

– بحبك يالبيبه خلاص ارتحتي..

وراحت تمسح دموعها وهنهت بالعياط ثانيه وطفقت تقول :

– خلاص طالما بتحبني خلاص..

– هاتعملي إيه في بتوع الخميس..

– إنت عارف إهم من الغيطان ولما بيجوا السوق مالهمش حد غيري في البلد..

– طيب وغنيمة ليها طلب ايه..

– بتيجي تاكل..

– وخالتي وجوزها..

– بتيجي تاكل إنت عارف جوزها ما عندوش الكوته..

– وعبده ومراته بيتهم في البلد..

– وبعدين ياحاج.. ما إنت عارف بيت خالك كلهم غلابه..

– والحل..

– ييجوا الخميس عادي بس مايقعدوش في وسط الدار..

– دخليهم جوه القوضه عندك..

وتقدم حسن نحو أبيه وأمسك يده في حنان ثم قَبل كف يده وقال في هدوء:

– إسمع كلامي أنا يابه..

ورق قلب الرجل لولده وترغرغت عيناه بالدموع وقال وهو يحتضنه قول ياحسن..

– إحمي بيتك يابه.. هاتحصل المشاكل دي تاني..

– يعني ايه..

– مافيش حد ييجي هنا..

– دول أهلي برضه ياحسن..

– أمي لبيبه تاخد الأكل وتروح بيت عبده وياخدوا راحتهم هناك..

– إيه رأيك يا لبيبه..

– هاتحرمني من بيتي ياحاج..

– يازفته إحنا مش عايزين مشاكل خالص.. خللي الخميس عند أخوك..

ونظرت إلى حسن وهي محتاره لأنها وجدت أبيه يمشي ورا كلامه.. سكتت وراحت تبكي..

– يالبيبه آخر كلام.. مافيش خميس هنا.. خدي اللي انت عايزاه وروحي بيت اخوك..

– كده خلاص..

– يا لبيبه.. دا الصح الناس هاتاكل وشي.. أنا عايز أكوش على ولادي..

– طيب شاور اخوك دردير في الكلام..

– أخويا دردير فحل جاموس مايعرفش غير نفسه وبيته جنب بيت عبده أخوكي.. هايقول الكلام اللّي يرّيح دار خالي..

– برضه شاوره..

– أشاور مين .. هاشاور محمود..

– محمود قطيعه..

– محمود من زمان رأيه ولادي وبس علشان كده بتكرهيه..

– إحنا كلنا بنكره محمود..

– عارف كل الدراوشه بتكره محمود.. ناس كتير أوي بتكرهه لأنه بيقول الحق..

– يعني الدار بقت على أد ولادك بس وأنا ماليش فيها مكان..

– إنت ليك قوضه في الدار وبتاكلي وتشربي وتتكسي زي أي واحد في البيت.. أنا مّديك سعاد وعبد العزيز كأنهم ولادك..

– خدهم..

– إنت مره بنت كلب زي أمك بنت البُكل غِلّبت خالي وطلّعت ايمانه..

– أنا بنت كلب وأمي صفتها ونعتها..

– الدريه الزفت بتجيب لأهلها اللعن..

– أنا مش ها قعد في البيت ده..

– إنت تعبانه يالبيبه خدي هدومك وامشي أحسن..

***

"سميرة تغادر القرية"

كان أبي يكن للسيدة لظيمه البدري أم سميرة كل معزه وكانت هي تبادله نفس المعزَّه رغم أن والدي يرتدي جلباباً وعمامه مثل كل الرجال الذي نالوا قسطاً من التعليم في الأزهر.. ولم أر ابي مَّره مع هذه السيدة إلاَّ وهي تهمس في أذنه بكلام وكذلك أبي يهمس في أذنها.. وأخيراً عندما نغادر بيتها أو ندخله تقول عبارتها المشهورة:

– إزَّيك ياخال الحاج.. سلام ياخال حداد..

وأنا بيني وبين نفسي.. يعني إيه.. بقه كل النسوان في البلد أبويا خالهم.. هوَّ أبويا أخو كل ستات البلد.. وسألت أمي في يوم عن هذا العرف الدارج عن ابي فلم تجب وراحت تضحك في خبث.. ولَّما ضغطت عليها في سؤالي لم تجبني شيئاً.. فقلت لها لماذا لا تغاري على أبي ولا تدافعي عن زوجك.. فأجابتني إجابة شافيه:

– إن رصيد أبيك من الحب في البلد كثير ولا أستطيع منع هذا الحب.. وانني بصراحة أشعر بالغيظ عندما أجد وأرى وأسمع هذه العبارة من النساء لأبيك.. لماذا لا يكون معنى ذلك إلا نبلاً وحباً واحتراماً.. لماذا نأخذ مثل كل أهل البلده أي معنى ونوجهه إلى معنى خبيث.. لماذا نحن أهل القرى كثيرى الظنون.. لا أعرف يا بني لماذا يحب أهل القرى الفتنة والنميمة والخبص.. لا أعرف..

– من أسال يا أمي حتى أعرف..

– إنه تاريخ إجتماعي لقرية.. دع التاريخ يتكلّم.. دع التاريخ ينتشر.. دع الحب بين الناس في يسر وسهولة لا تسأل عن شئ طيب بين الناس.. دع الناس تحب وتذهب الى ما تستريح إليه يا حسن دع الناس جميعاً يقولون.. يا خال الحاج..

حملت أم ابراهيم فوق رأسها قفص فيه تشكيله من الطيور.. وأمسكت أمي في يدها حقيبه بها الفطير المشلتت وأمسك أبي بحقيبة أخرى بها الخبز والجبن والزبد.. دخلنا إلى بيتها واهالت القبلات من أمي للظيمه ومن لظيمه لحسن ومن لظيمه لأبي وبكت وهي تحتضنه.. أما سميره فما كان لها إلاّ أن أخذت حسن في حجرها كما فعلت في رحلة المدينة وراحت هات يابوس.. ولم تتركه من حجرها ولم تتركه من حجرها إلاّ وهي تقدم واجب الشاي والبارد والكيكه للضيوف.. وكانت أم ابراهيم قد ذهبت كعادتها لكنها هذه المرَّه عادت إلى البيت لتكون مع سعاد وعبد العزيز ومحمد حتى يصل أصحاب البيت.. وكانت المفاجأة أن السيدة لظيمه أعطت لخالها الحاج توكيل موثق في المحكمة ببيع المترل.. وناولته ورقة بالعنوان في الإسكندرية.. وطالت الدردشة والونسه وعبارات الحب وحكايات عن الكفر حتى منتصف الليل.. كم بكت سميره وهي تودِّع حسن وكم بكت لظيمه وهي تحتضن الحاج بكلتا يديها وكم قبلّته وهكذا فعلت مع أم حسن..

وقبل أن يغادر الضيوف الباب الداخلي للبيت قالت لظيمه لخالها الحاج :

– بكره هاتيجي عربية النقل لنقل العفش إلى الإسكندرية..

– مين هايروح مع العفش..

– أصحاب العربية من أشمون عارفنهم وهايروح السواق على العنوان ..

– وأنتم هاتركبو مع مين..

– عربية أجرة من أشمون..

– يبقه لازم آجي الصبح عشان أكون معاكم وأجيب أنفار تبعنا تشيل وتساعد..

– ياريت ياخال..

– فيه حاجة تانيه آجي إمتى بكره..

– هاصلّي الفجر واستناك..

– طيب عايزه حاجة يا سميره..

– عايزاك طيب يابه الحاج.. تبقه خد الكرتونه دي بكره وأشارت بيدها إلى كنبه بالصاله..

– فيها إيه الكرتونه..

– كتب بابا.. كتب قديمه ومجلات.. يمكن تنفعك يابه الحاج..

وفجأة زعق حسن– لأ أنا عايز الكتب..

وربتت على ظهره السيده لظيمه– خد يا حبيبي الليِّ إنت عايزه لّما تكبر يمكن تلاقي فيها حاجة تنفعك..

وخرجت السيدة حميدة من الباب وبعدها حسن تمسك به سميرة حتى الباب الخارجي.. أما السيدة لظيمه فكان لها مع خالها الحاج حديثاً هامساً لدقائق ختمته بقبلة على ظهر كف يده.. وقال مودعاً لها.. ما يكون ليك إلاّ الخير..

***

لا أعرف كيف وصلتُ بيتي ونمت حتى الصباح وأعلم علم اليقين أنني لم أرها بعد.. وأي إسكندريه هذه التي أذهب إليها عندما أكبر وأرى سميره ثانية، في الصباح وجدت أن عقلي يجهل ذلك الذي وجدت نفسي فيه.. طفل بلا هويه.. طفل يتخلى عنه الحب وهو الشئ الوحيد الذي به يشعر أنه أقوى إنسان في قريته.. إن الكَفْر كله لا معنى له بدون سميره وإن صفحات حياتي ليس فيها شيئاً بعد أتصفحه، إن الأشياء في داخلي لن تنسجم مع بعضها بعد سفرها هذا فهل أضلّ طريقي وأتخبط في الظلمات.. ليتني أعود إلى عادات وألعاب الأطفال في قريتي لو كان في ذلك حلاً لأجد طريقي.. ليتني مثل الأطفال في شارع أبو سمك حتى لا أشعر بأي شئ حولي غير الإنصهار مع بقية أطفال قريتي.. إنني لن أذهب إلى أحد في قريتي أو الكَفْر حتى يدلّني أو يجعلني أحبه.. أحب كل من حولي من كل قلبي.. إن بعد سميره لن يكون ذلك الحب والصفاء الذي كان ينعش حياتي كلها.. إن بيت أبي وأمي الذي يحتويني ويطعمني ويسقيني وغرفة نومي في سريري وحنان أمي علّيّ ورعاية أبي لي.. كل ذلك المحيط الجميل حولي لن يغنيني الآن عن حب سميره ولن يعوضني فراقها..

وفي هذه الليلة الأولى التي أجد فيها البيت بدون أمي لبيبه فماذا يكون حال أبي.. وعندما عدنا إلى البيت كان إخوتي سعاد وعبد العزيزُ ومحمد قد ناموا جميعاً في غرفة أمي لبيبه وكانت أم إبراهيم تستعد للعودة إلى بيتها بمجرد عودتنا.. وكان البيت خالياً من زوجة ثانية تأخذ دائماً الرجل بدلا لها وطراوتها.. وهكذا البيت خالياً.. أين دلال أمي وطراوتها لماذا لا تجعل من هذه الليلة الخالية ليلة يحلف بها هذا الرجل.. وقلت لنفسي سأرى.. ماذا سيفعل كلاهما بالآخر هذه الليلة.

نمتُ حزيناً أفكّر في سميره ونام أبي في المندره منتظراً بعض الوقت حتى أنام ليأتي ويأخذ منّي أمي كالعادة إنها أبداً لا تذهب إليه.. أهو كبرياء أم برود أم أنها لا تحب الرجال.. لا أعرف.. كالعادة لم أنم تعودت أن أسمع أبي وهو يدعو أمي.. وكيف يدعوها الرجل في شوق وهي تتمنع بل ترفس كما قال أبي.. وقلتُ في نفسي أن أمي سوف تبدع الليلة مع أبي إن البيت خال من المرأة الأخرى.. وكدت أنفجر من الضحك حين دخل أبي على أطراف أصابعه واضعاً كف يده على كتف أمي في رقه وحنان ورجاء وقال في صوت خفيض :

– حميده .. حميده قومي الواد نام..

كانت ستغفو وتدخل في نومها العميق وعندما تدخل في نومها فإنها تشّخر وكنت أنام على شخيرها بعمق وكنت أشعر بأمان الدنيا حولي عندما أسمع شخيرها.. تنبّهت لصوته فسكتت ولم ترد لكنه تابع :

– قومي تعال القاعة..

– أقوم أروح فين طول عمرك فايق.. عيب العيال كبرت..

– نهارك إسود ماعندكيش دم هوَّ إنت مش مره..

– لأ عندي دم.. روح لليِّ بتقولّك ياخال.. روح للّي بتبوسك وتحضنك..

– كويس إنت بتغيري عليَّ.. قومي وتعال..

قعدت وهات يارص- شوف أنا مش زي لبيبه .. أنا إتعقدت مَّنك.. كام واحده بتقولك ياخال في البلد دي.. أنا عايزه أعرف السر.

– يابت ماتبقيش خايبه.. دي وراثه والحضن والبوس بتاع لظيمه برئ.. دي زي أختي..

– إنت راجل بارد واخد الدنيا بالعرض إتجوِّز واحدة تالتة.. أنا ماليش نفس منَّك بعد الليِّ شفته الليله..

– آخر مَّره بقولك تعال..

– مش جايه..

– الله يلعن أبوك.. الله يلعن تلوانه كلّها..

– آه لو عرف حد من أهلي إنكَّ بتشتمني..

– على جزمتي..

– أهلي كلهم قضاه ومستشارين ناس كبار أوي..

– برضه على جزمتي..

– كتَّر خيرك روح بقه سيبني.. أنا مش بتاع رجاله.. الواد هايصحى..

وفي لحظة إنفعلت وصعبت علَّى أمي وأزحت الفراش من فوقي في لحظة فارتبك أبي وزعقت أمي فيه :

– كده أهو الواد صحي..

وتلعثم أبي ورجع إلى الوراء خطوتين وفاجأه حسن قائلاً وهو ينتحب :

– ليه يابه بتشتم أمي.. أمي غلبانه يابه.. هات لبيبه يابه.. هات لبيبه يابه.. سيب أمي يابه.. علشان خاطري مالكش دعوه بيها..

– ياهوي يابني إنت بتعَّيط..

وانكفأ الرجل على حسن بعد أن تقدَّم خطوات نحو فراشه وراح يبكي لبكاء ولده..

وأخذ يربت عليه وهو يقول :

– معلهش يابني سامحني.. حقَّك علىَّ مش هاشتم أمك تاني.. حتى شوف.. ورجع الرجل خطوتين وراح يبوس على رأس أم حسن وهو يقول حَقك علىَّ ياحميده.. سامحوني.. خرج الرجل باكيا من غرفة ولده ومشي إلى سور البيت ليتوضأ من الطلمبة بعد أن مسح دموعه وصلي ركعتين ودعى الله أن يهديه ويطفئ لهيبه نحو النساء.. وقال وهو ينعدل على الكنبه لينام كأنه يقنع نفسه بعدما

حدث.. يا إمَّا أتجوز تاني أو أحسن أروح أجيب لبيبه من بكره.. كل واحده منهم ليها عازه وبلاش وجع دماغ بعد كده مع حميده..

إتخذ الرجل قراره ثم نام.. وفي أذان الفجر ذهب إلى المسجد وصلى بعدها أخذته قدماه إلى طريق الترعه المؤدى إلى الكفر.. وهناك وجد بيتها مضاءاً والأبواب مفتوحه له.. كانت لظيمه ترتدي أحلى ثيابها وكان فراشها نظيفاً معطراً.. أخذته في حضنها بعد أن قفلت بابها بإحكام وذهب الحاج معها في جماع وجماعين وثلاثة حتى أذان الظهر.. وكان عليهما أن يتفقا وأن يتكلما في ترتيب أمورهما فقالت له لظيمه :

– ياحاج هاتيجي اسكندرية كل أد إيه..

– كل شهر كويس..

– ياريت.. إوعى تنساني.. إوعى تنسيك لبيبه إن ليك زوجة إسمها لظيمه..

– هيَّ لبيبه بس وحميده..

– حميده مالهاش فيك.. دي ست بتاع ولادها..

– إوعى يعجبك راجل من إسكندرية..

– مافيش راجل في اسكندرية يعمل تلاته في صبحيه وهوَّ في السن دى..

***

"رحيل وعوده بعدها الحقل"

رحلت القافله بعد العصر وعاد الرجل إلى بيته بكرتونه الكتب.. وكان قد بقى بعض الأثاث من بيت لظيمه فوضعه الحاج فوق عربه كارو لتنقله إلى الحقل ولّما رجع الرجل من الغيظ عند العشاء كان حريصاً أن يعرف ما نوع الكتب والمجلات التي أهدتها اليه سميره.. مجلات أزياء لنساء مانيكان وأخرى فنيه وثالثة كتب عن الأدب والشعر والقصة أما الكثير منها دينيه وعدة مصاحف من كتاب الله..

وضع الرجل الثلاثة مصاحف في رف كُتبه بالدولاب القديم مع كتب دينيه كثيره كان قد درسها في عامين قضاهما في الأزهر وتذكر أيام دراسته في القاهرة عندما كان يسكن في حي الباطنيه قرب الجامع الأزهر، وكان رفيقه في الدراسة عبد الرازق عفيفي وهو قريب له ومن نفس القرية.. كان والده على أبو عافيه يملك من الأرض ما يزيد على ثلاثين فداناً وكان في حاجة لمن يكتب له حساباته وكان الرجل شغوفاً في أن يسمع القرآن كل يوم بصوت إبنه.. أخذ القرار وفي يوم سافر إلى القاهرة وفي غرفة حداد بالباطنية وأمام زميله عبد الرازق عفيفي دار الحوار :

– قوم ياحداد..

– على فين يابه..

– على البلد..

– والأزهر يابه..

– مش عايزينه كفايه كده..

وتدَّخل عبد الرازق– على فين ياخال على دا حداد شاطر..

– الأرض واسعة واخواته محمود ودردير مابيعرفوش يكتبوا وأنا عايز واحد يمسك حساباتي ويقرا القرآن لّي كل يوم..

وكشَّر في وجه حداد وقال في صرامه :

– قوم يا حداد عبِّي هدومك وكتبك..

– يعني مافيش راجعه يابه..

– يابني كفايه كده.. أنا عايزك مع إخواتك هاجِّوزك وتعيش الدنيا أحسن من كده .. سكت حداد ويبدو أنه كان يريد أن يسمع أبيه أكثر خاصة عندما قال له أجِّوزك.. قام حداد وملأ قفه وبؤجه بهدومه وكتبه وقال :

– خلاص يابه سمعاً وطاعه..

حزن عبد الرازق لفراق زميله وقريبه حداد.. غادر حداد ليساعد والده.. غادرا الباطنية إلى محطة الرفّاص عند نيل الساحل في حنطور إلى حيث تقع شنشور خلف قرية الخضره وهي إحدى المحطات الرئيسية للرفاص.. وبقى الشيخ عبد الرازق عفيفي يواصل دراسته الأزهرية حتى حصل على أعلى شهاده فيها وعمل في الاسكندرية مديراً لمعهد ديني وكان مشهوراً بعلمه فلما جاء الملك عبد العزيز في زياره لمصر عام ١٩٤٨ كان يريد أن ينشأ دار إفتاء في المملكة فأخذ معه مجموعة من علماء مصر ليكونوا نواه لتكوين دار الإفتاء السعودية.. سافر الشيخ عبد الرازق عفيفي إلى المملكة

ومعه مجموعة من النابغين خريجي الأزهر.. عاد بعضهم بعد ذلك ولم يتحمَّل قسوة الحياة في السعودية وبقى الشيخ عبد الرازق عفيفي من المجموعة.. ظل هناك حتى توفى بها عام ١٩٩٥ وكان الشيخ هو الرجل الثاني في المنصب بعد رؤساء دار الإفتاء في المملكة وكان آخرهم الشيخ الباز..

سمعت هذه الحكاية منه عشرات المرات.. كان يحكيها بصوت الجهوري الأخنف عندما كان يندم على تركه الأزهر وفي أخرى عندما تضيق به الحياة في أعمال الفلاحه بالقرية.. وكان في أنف أبي لحميه بسيطه وكان أخنفاً قليلاً.. ودمه خفيف فعندما يتكلّم كأنه يقلّد الأخنف.

تذكر أبي ما دار به في أيام صباه الأولى مع الأزهر وأبوه وعودته الى القرية وتذكرت أنا حكايته هذه الذي كان دائم الحديث عنها..

وضع الرجل الكتب الدينية والمصاحف في دولابه مع كتب الأزهر التي ما زالت باقيه.. وضعها وشعر بالتعب فلم يستطع أن يذهب إلى الحقل ونام بالكنبه قرب المغرب.. وراح حسن يخرج الكتب الأخرى والمجلات من الكرتونه ويرصها في شكل منظم في شباك المندره.. إنها له وسوف يتصفحها واحده بعد الأخرى.. لم يكن يستطيع أن يقرأ بعد.. لكنه أحَّب الصور التي في المجلات وكان للكتب القديمه رائحه فكان يشمُّها وبعد أن يشمها يحضن كتاباً بعد الآخر ويضعه في مكانه بشباك المندره.. إلاَّ أنه بعد ذلك وضع بعض الكتب والمجلات على المنضدة كأنه رجل كبير يزاول القراءة ويجلس حول المنضدة جالساً فوق مقعده الخيرزاني ويتصفح وكان يقلّد من

رآه منذ عام عندما آخذته أمه وهي تزور أسرتها في تلوانه وعرجت على عمها عبد القادر فوده في فيلته على شاطئ البحر الفرعوني للسلام عليه.. في هذه الزيارة كان عمها يتحدث معها وهو جالس إلى مكتبه يتصفح كتبه القانونية.. وكان عمها هذا يعمل مستشار إحدى محاكم الإستئناف بالقاهرة ومات الرجل قبل المعاش مات في عام ١٩٥٤.. لم ينسى حسن مشاهدة عم والدته وكم تمنى أن يكون رجلاً مهماً عندما يكبر ويجلس إلى مكتبه ويتصفح هذه المراجع الضخمه كما رأى عم أمه..

نعود إلى مساء ذلك اليوم الذي عاد فيه والد حسن من وداع السيده لظيمه البدري وإبنتهما سميره.. حتى بعد أن قام من نومه كان جسده متعباً وتمنى أن يعاود النوم حتى الصباح.. لكن زوجته حميده جلست في مقابلته وراحت توقظه..

– حداد قوم.. قوم ياحداد..

– سيبيني أنام..

– طبعاً جاي مهدود.. بالله عليك رحت الفجرية تعمل إيه للست دي..

وهو يتثاءب

– علشان أقعد معاها شوية..

– إوعه تكون فاكرني حماره..

– إنت أبداً دا إنت أم ولادي وغاليه عندي..

– أنا فعلاً أم ولادك بس خايفه عليك..

إنفلج الرجل وقعد

– من ايه خايفه..

وفجرها كالقنبله..

– قوللّي بصراحة إنت مرافق الست دي من زمان..

وهو يكضم غيظه وغضبه..

– نهارك إسود يا حميده.. دي زي أختي..

– أمَّال إيه حكاية خال دي.. دي عاملاها زي اللبانه في بقها..

– إحترام مش أكتر..

– وهيَّ الست المحترمة تحضن راجل غريب عنها وتبوسه وأدَّام مراته..

– الست دي طبيعيه فيها شوية عبط وأنا من عادتي أسيب كل واحد على حاله..

– بصراحة إنت راجل بتستهبل فيها أوي..

– اللي عايزك تعرفيه أنا راجل خريج أزهر.. أقصد عرفت الدين شويه..

– كل الشيوخ بيقولوا كده.. يبقه الواحد مربِّي دقنه ويعمل البدع من تحت لتحت..

– طيب إنت عايزه إيه..

– هاقول للبيبه..

– هاتعمل ايه لبيبه يلعن أبوك وأبو لبيبه..

– لبيبه هاتكلك لو قلت لها اللي حصل..

– علشان تعرفي لبيبه دي عندي ولا حاجة..

– ما تقدرش تستغنى عنها دي هيَّ الأرنبه اللي أول ما تمسكها ترقد..

– إنت عايزه الجد.. أنا راضي عنها علشان مطيعه..

– وأنت راضي عِّني أد إيه..

– مش راضي عنّك..

– إسمع يا حداد إذا كنت باعملّك أرنبه باعملها غصب عِّني.. تعرف عشان إيه..

– عشان إيه..

– علشان أخلّف عيال..

– مش كفايه كده..

– فيه ست بتعمل أرنبه علشان بتحب جوزها.. وفيه ست تعمل أرنبه علشان تخلّف..

– وانت ليه مابتحبنيش..

– أحَّبك إزاي.. لمّا تخلّي لبيبه في أسبوع جوازي منّك تنام معانا في قوضه واحده.. إنت قتلت الحب في قلبي. يبقه أحَّبك إزاي من غير قلب..

– يانهار إسود إنت لسه فاكره..

– عمري ما أنسى.. بس إنت إزَّاي تخلّي مراتك القديمه تنام مع الجديده في أسبوع دخلتها.. مين قالّك تعمل كده..

– بصراحة هيَّ اللي أصرت على كده..

– ليه..

– علشان تشوفني معاك..

– تبقه دي مجرمه.. وإنت مجرم أكتر منها..

– ممكن تكون دي غيره علّى..

– على فكرة أنا مش حماره.. إنت راجل حمار ومجرم كمان..

– ليك حق..

– عمر دا ما يحصل في بلدنا.. اللّي إنت عملته ده عين الجهل..

– طيب مانا فرقتكو تاني بقت كل واحده في قوضتها..

– والله .. ياخسارة عليك.. بعد ما قتلتني..

– إنت قلت لحد من أهلك على الكلام ده..

– لو قلت لحد من أهلي يشيلوك من عينيهم ومش هايبقه ليك قيمه عندهم..

– كتَّر خيرك يا حميده..

– لازم أستر عليك علشان إنت جوزي وأبو ولادي اللّي يعَّرك يعِّرني..

– على فكره برضه إنت السبب في اللّي عملته..

– إزَّاي..

– في أول ليلة كنت مكسوفة مِّني أوي.. وتاني ليلة برضه مكسوفه..

– وتالت ليله..

– شويه..

– جبت لبيبه في رابع ليله..

– لّما قلت إتّحركي شويه وخليك خفيفه وحركه وقولي كلام زي اللي بتقوله لبيبه.. ماقلتيش.

– هو إنت عايز واحده تعرف كل حاجة وتعمل لك زي وزي.. هو إنت مأجرني ياحداد.. عيبك إنك جرئ أوي.. على فكرة إنت راجل فاجر وأجرمت في حقي وعمري ما هاسامحك..

– علشان كده جبت لبيبه.. عشان أذلّك وأدِّبك..

– لا أدبتني ولا ذلتني.. إنت قتلت الحب في قلب ست.. وعلى فكره تلاقي كل الرجاله في بلدكم زيك كده.. بهايم وحيوانات..

– لأ لأ .. في كل بلد فيها وفيها..

– يعني الأمر لله.. أنا ماليش غير ولادي..

– أفهم من كده مش هاتصلّحي نفسك..

– حاول إنت تصلّح وعايزاك تعرف مش كل الستات زي بعض..

– إنت بتديني الأمل..

– الأمل إنك تقول يارب يمكن الحال المعوج يتعدل..

شعرتُ بأن رأسي ستنفجر من هول ما سمعت من أسرار بين أبي وأمي ورحت أفكر.. أفكر في غير هذا العالم الذي أعيش فيه.. إذا كان بيت أحد الموسرين في القرية به هذه المشاكل فما حال بيوت الفقراء.. كانت تدور رأسي بين ثلاثة بيوت.. بيت عمي دردير وزوجته منصوره وإبنتاه سعديد وتحيه وابنه عبد المنعم.. وبيت عمي محمود وزوجته مجيده وأولاده سيد وعبد الرحمن وعادل ونبيله.. وكان له بنات أخريات متزوجات.. وبيتنا.. ولم أكن أعرف ما هي الحياة في بيت أعمامي وكنت أريد أن أعرف ولكنني في نفس الوقت كنت أريد أن لا أدخل بيوتًا مقفله.. بعد هذه الفترة من حياتي كنت طموحاً لأن أعرف ماذا في هذه الحقول الواسعة.. حقل أبي والحقول التي تمتد هنا وهناك والبحر والسواقي والترعه والزريبه التي فيها تحلب النساء الجاموس والبقر وغرفة التبن وجرن القمح.. كان العالم واسعاً حولي كيف أستطيع استيعابه.. وكان أسوأ شئ في حياتي بعد هذه الفترة هي فترة المدرسة الإبتدائية.. وكم كنت أكره مدرسيها وتلاميذها وفصولها وجدرانها.. ولولا التلميذ سعيد عامر الدسوقي وعلى مختار القطان وحسن جمال فوزي وجميعهم من الكفر هؤلاء الذين أحببتهم وأحببت التعامل معهم في الفصل وفي حوش المدرسة وكذلك ثلاثتهم كان نفس الشعور والإرتياح.. كانت علاقتي بالثلاثة علاقة تلاميذ مؤدبين مهذبين فعلاً من بيوت عرفت كيف تربي أبنائها.. وكنت أكره التلاميذ خاصة من عائلات أبو شاطيه وهاده وحتحوت والجّمال وجنبات والبهي

وجبريل وأبو شنب والظيظي والظنيتي وأبو طنش وحنضل.. حاولت أن أقلع نفسي من كل هذا العالم ماستطعت وأنا صغير.. ومضى يومان كان أبي فيهما يفكّر في أن يأتي بزوجته من بيت أبيها، وكان يثق في حب إبنته سعاد لها وكأنه يريد أن يأتي بها بناءاً على طلب سعاد وعبد العزيز.. فبعد أن تناولنا العشاء في ليلة ونحن جميعاً نجلس على حصيره في وسط الدار الداخلية قال أبي لسعاد :

– إنت كده مبسوطه بتنامي في السرير لوحدك..

– لأ يابه.. وسكتت..

فقال لعبد العزيز :

– وانت كده مبسوط كنت بتتناقر مع أمك لبيبه..

– أنا عايزها تيجي علشان بتحكي لي حواديت..

– أنا أحكيلك..

– لأ هيَّ حواديتها أحسن..

– طيب قول لأمك كده.. قالها بخبث..

هزت أمي رأسها وقالت :

– وليه اللف والدوران ياحاج.. روح هاتها..

– صحيح إنت عايزاها..

– إنت شايف إني مقصَّره في شغل البيت.. البيت أحسن مما كانت هنا..

– أجيبها عشان سعاد وعبد العزيز..

– ياحاج روح هاتها إنت ماتقدرش تستغنى عنها.. هي كافوري تحت الطلب..

– المهم تكوني راضيه..

– كويس والله إنك بتدور على رضاي..

– أنا عايز البيت كلُّه يبقه مرضى..

– المهم شلة الغجر ماتجيش هنا تاني وإنت شفت بنفسك حسن عمل إيه..

– المشكلة إن أهل أمي غلابة وماهمش متوى غير هنا..

– غلابه بس غجر مش مؤدبين..

– طيِّب هدِّى..

– حافظ على بيتك بقه بكفاية حداشر سنه من التريقة والنقوزه علّى في الريحه والجايه.. أنا استحملت كتير..

– والحل إيه.. هايقولوا مراته مشَّت عليه..

– هايقولوا حسن كبر وحاش عن أمه..

– طيِّب أحاول أرضيهم..

– إرضيهم برَّه.. إديهم قمح ودره ودقيق.. إديهم فلوس هات لهم لحمه..

– المشكلة إن كل ده بياخدوه.. القعده دي كانت زيادة..

– الزيادة دي خليها لولادك.. بقه عندك أربع عيال..

– الموضوع يكون علاجه شويه شويه..

– بقه لهم كام سنه واكلينك..

– من يوم ما تجوزت لبيبه وقبلها..

– كام سنه..

– أنا متجوز لبيبه من ثلاثة وعشرين سنه..

– لو كان حد من إخواتك بيحبَّك كان قالك بكفايه..

– دردير عايز بيتي يتخرب وعمره مصاحبهم وعايز بيتي فاضي وبيته يبقه مليان..

– ومحمود..

– محمود بيكرهم وهَّم بيكرهوه.

– أكيد نصحك في يوم..

– ياما قالّلي.. بلاش الوسيه بكفاية.. بقه ليك ولاد..

– وترد عليه تقوله إيه..

– كنت بتجنبه..

– يبقه محمود بيحبَّك ياحاج..

– المسأله دلوقتي لازم أنا أحب مصلحتي وراحة ولادي..

– في إيدك..

وساد الصمت بعدها.. ودخلت السيدة حميدة قاعة الغموس لتدخل باق الطعام في أوعيته.. همس الحاج في أذن سعاد وعبد العزيز :

– خُشوا البسو الجزم علشان نروح..

وفي صوت واحد – نروح فين يابه..

– نجيب أمكم لبيبه..

وفي صوت واحد – هيه.. أمي لبيبه جايه..

سمعت أمي صوت إبنيها سعاد وعبد العزيز فتداركت بأن إبتهاج إبنيها من كلام لزوجها، وقالت السيدة حميدة وهي تأخذ بقايا الصحون من فوق الطبليه :

– ما هَّم دول ولاد لبيبه.. خلّيها تاخدهم مش إنت اللّي عملت كده..

– العيال بيحبوها خلّيها ماشيه زي ما هي ماشيه..

وهَّزت السيدة رأسها وكأنها تنعي حَّظها :

– بكفاية علّى حسن ومحمد..

وضحك الرجل بصوت عالٍ هَّز أرجاء البيت..

– هَّي متقسِّمة..

– كل دا مايهمنيش.. بكره يكبروا ويعرفوا مين أمهم..

– كده عين العقل..

– عين العقل إنك تجيبها على أساس..

– أساس إيه..

– غرزة يوم الخميس ماتحصلش تاني..

– لّما أجيبها هاعرّفها كل ده..

– بكفاية خمسة وعشرين سنة كلوا عضمك..

– وأنا مش داري..

– إنت بتتريق..

– لا والله هاحاول أفوق..

***

سهر الحاج حداد حتى منتصف الليل مع أهل خاله وعاد ومعه لبيبه.. كان عبد العزيز قد أخذه النوم فحملته أمه لبيبه على كتفها حتى وصلوا البيت.. ونامت سعاد في حضن أمها وراحت لبيبه كعادتها تحكي لها حواديتها حتى نامت.. وكان الرجل قد اضطجع فوق كنبة ثانية بغرفتها ينتظرها وحتى تنام سعاد كما نام عبد العزيز.. بعدها أخذها في شوق إلى القاعة وعلى فرن القاعة الدافىء ظلت معه حتى الصباح.. ولم يصلّي هذا اليوم في المسجد كعادته كان قد راح في نوم عميق بعد مجهود مع زوجته المطيعه.. ولّما طلعت الشمس كانت أم حسن في وسط الدار تخُض القربه في بداية أعمالها المترلية كل يوم.. وكانت تسمع مبتسمة تخبيط الكوز في الحله وتخبيط الكرسي في الطشت.. كانت لبيبه حريصه على أن تحميِّ رجلها وتدعك كل جسده بالليفه.. خرجت لبيبه من القاعة

وتركت زوجها يرتدي ملابسه فوجدت ضُرَّتَها تخرج السمنه من فم القربه فقالت لها :

– صباح الخير ياحميده..

– يسعد صباحك يالبيبه..

– قوليلي أعمل إيه..

– أكنسي الدار.. هاتيها من بَّره..

– فين المقشه..

– المقشات كتير عند السور..

– هانخبز النهارده..

– هانعمل فطير..

– يعني بعد كده أعجن الدقيق..

– أيوه.. ما تريَّحي النهارده إنت تعبانه الحاج تعبك طول الليل وضحكت السيدة لبيبه ملأ فيها وقالت :

– وانت ياختي خلّي بالك منه برضه بصراحة مابقتش قادره عليه..

– إنت بتضحكي عليه يالبيبه..

– لأ والله صدق..

– إنت ناعمة أوي.. إنت مبسوطه من كده.. أحلف لك بإيه الكلام دا من ورا قلبك..

– ليه كده ياحميدة بتظلميني..

– طيِّب ياالّه أكنسي وبلاش مكر الضرايز..

– أنا بحبك ياحميده..

– كمان.. إنت جايه حنيِّنه عليّ أوي.. إيه فيه إيه..

– خلّيني أكنس الأول واليوم طويل نقول كل حاجة..

وخرج الرجل من القاعة وهو يسعل وفي نفس الوقت مبتهج القلب فقال لحميده..

– صِّحي حسن..

– لسه شويه..

– طيب أنا رايح الغيط..

– إتأخرت النهارده أوي..

– راحت علّى نومه..

– لأ.. عجبتك لبيبه أوي الليله..

– هاعملّك إيه.. إعملي زِّيها..

– روح الغيط أحسن..

أخذ الرجل حمارته من الزريبه وخرج بها من البيت وعند باب السور إمتطى ظهرها قائلاً حا.. جاك وجع في اللّي يكرهك.. كان يحب حمارته ودائما كان يقول لها هذه العبارة.. وعند دار الحاج

أمين إنعدل فوق حمارته وراح يقرأ القرآن بصوت مسموع.. وكلّما قابله فلاح عائد أو ذاهب إلى الغيط قال له:

– إتأخرت النهاردة يابه الحاج..

والفلاحات العائدات من حلب اللبن قالت واحدة بعد الأخرى:

– ناموستيك مالها النهارده ياخال الحاج..

وكان الرجل يرد بابتسامته المعهوده وضحكته التي توقظ الناس على جانبي الطريق..

استيقظ النفر بعد الشمس على صوت نحنحه الحاج واستقبلته كلابه كالعاده بصوتها المبجوح.. هيه هيه.. كان الرجل يريد أن ينام بعد أن تناول الفطور مع النفر وشرب شايه.. دخل بعدها غرفه التبن ونام وتغطّى بعباءته السوداء وراح يشخّر شخيره المعهود ونام بالقرب منه كلبه قرطي..

***

"الشريك الرّزل"

في قريتنا يطلقون على العامل الزراعي الذي يعمل بصفة دائمة عند صاحب الأرض كلمة الشرِّيك.. وأحيانا.. النفر.. وكان يعمل لدينا في معظم شهور السنة نفران منهما، ومن الأعمال المعتادة بعد وقت الظهيره يذهب أحد الأنفار لإحضار الغداء من البلده وفي ذهابه يحمِّل الحماره نقله رتش إلى زريبة البلد ليفرشها في أرضية الحظيرة لتكون أرضيتها دائما نظيفة من وسخ حمارة الحاج التي دائماً تبات في زريبة البيت مع الحاج في الرايحة والجاية..

كان شريكاً (نفراً) بارد ساقعاً يقولون عنه إنه بيتمحَّك.. يعني لكع عامل نفسه سيد شويه ومن دون العمال الذين عملوا عند الحاج يرتدي جزمه في قدميه على غير عادة الانفار في ذلك الوقت يمشون حفاة الأقدام سواء في الحقل أو في الذهاب إلى القرية والعودة منها.. إسمه الشحات وهو من عائلة الحاج ولكنه من أسرة فقيره.. عند باب البيت الخارجي باب السور سعل وتنحنح حتى ينبه أهل البيت أنه قادم وسيدخل بحمارته إلى داخل البيت حتى يصل إلى الزريبه ليرمي الرتش في أرضيتها ويفرشه فيها.. وعندما يدخل وأمامه الحماره محَّمله بغبيط الرتش يسعل ويتنحنح مَّرة أخرى قبل أن يدخل من الباب الداخلي للبيت فيمسك الحمارة من رقبتها حتى تقول له السيدة لبيبه :

– أدخل الطريق وسع..

وكانت العادة في بيتنا أن أمي لبيبه هي التي تتعامل مع الأنفار.. أدخل ياشحات.. أخرج بَّره إستنَّى لّما نجهز الغداء.. الحاج قالّك

إيه.. تضع له الغداء في مقطف أو في طبق من الخوص أو في مشنة حسب طبيعة الأكل المرسل الى الغيط وتضعه له عند عتبه باب البيت الداخلي ليأخذه في يده ثم يمتطي حمارته خارج البيت من فوق حجر كبير وضع خارج باب السور.. وكان هذا النظام يعرفه كافة الأنفار الذين يعملون في غيط الحاج.. وكانت لبيبه هي التي تتعامل مع الأنفار فهي من البلدة وتعرف كيف تتعامل معهم بالشخط والنطر والتعليمات هكذا أفهمها زوجها زد على ذلك أنها ليست بالمرأة الجميلة التي قد تتعرض في بعض بيوت أصحاب الأرض لنظرات الأنفار قليلي الأدب أو البجحين.. وكانت السيدة يعرفها جميع الأنفار بأنها سيدة جادة شديدة تعطي الشَّريك على دماغه إذا تجاوز في أي شئ.. وكانت التعليمات لحميدة ألاَّ تتعامل مع أي عامل من العاملين في الغيط.. فهي الجميلة صاحبة الجسد المثير الذي يكون مطمعاً لنظرات هؤلاء العمال حتى ولو كانت نظراتهم من تحت لتحت.. ولقد أعجبت حميدة بهذه التعليمات لأنها تحب في داخلها ألا تتعامل مع هذا الصنف من الناس وكانت كذلك في بيت ابيها لا تتعامل مع أنفار الغيط في شئ ولا يراها أحد إذا دخل أو خرج في بيت أبيها.. وكانت هي دائماً تتدارى في الغرف الداخلية حتى يخرج النفر من زريبة البيت التي تكون عادة في آخر بيوت الفلاحين.. وكانت الشغاله أم ابراهيم شرفه تساعد في أعمال البيت مثل الكنس وخاصة كنس الممشى المؤدية الى باب البيت الداخلي والتي تبدأ من باب السور أو باب الترعه.. تحمي الفرن بأعواد الحطب أو القطن تولّع كانون الطبيخ تحمل الحطب والقش من السطح وترصُّه عند الفرن.. تقشّر الثوم وتنظفّ الكنيف.. تملأ المياه

في حلل الطبيخ أو تحمل حلة الاستحمام من الكانون إلى مكان الطشت في القاعة.. تقضي كل حاجيات البيت وتشتريها من البقال والسوق.. تحمل اللبن الى ماكينة الخض وتعود به بعد خضه.. تقضي كل أعمالها المعروفة كل يوم ولّما تنتهي من أي عمل تتقوقع في أي ركن تجلس فيه لتنتظر ما تمليه عليه أي من سيدتي البيت.. وكانت دائما تحب الحكى عن إبنتيها حسنيه وعطيات وإبنيها شوقي وعبده شرف.. وعن الناس في حارة حسين حنضل وأم الرزق الديبه.. حكايات عن الناس هنا وهناك وهذا ما يطيب للسيدتان سماعه فهي جلاّبة الأخبار صباح مساء.. وكان لها قفشات ونكات وحكايات عن أهل حارتها يفطّس سيدتا البيت من الضحك.. وكان يطيب لهما أكثر عندما تذهب الى دار دردير أو محمود لقضاء أي حاجة من عندهما.. كانت شديدة الإهتمام أن تأتي بأي أخبار من عندهما وتسهب لتاً وعجناً فيما رأت هناك.. هكذا كانت تراعي وتجتهد في عملها تماماً لتحافظ على أكل عيشها وكان ذلك يمشي في كافة بيوت أصحاب الأرض في القرية فإن لم تكن الخادمة ناقلة أخبار وحكاية بل وخباصة فإنها ليست ذات قيمة ومنفعة ويجب أن تكون هناك واحدة بدلاً منها.. وهذا ما كانت ترغب فيه سيدات البيوت أصحاب الأرض لأن النساء فيها لا يخرجن من البيت.. يقولون عنهن الناس محّجبات وأحياناً محجوبات معناها أن النساء في تلك البيوت لا يخرجن إلى الشارع أو السوق أو يتعاملون مع عامة الناس.. فكنَّ جميعهن في حاجة إلى شغاله تقوم بنقل كل أخبار البلده بواسطه الشغاله الواعيه الصاحيه.. بمعنى نهائي إن لم تكن الشغاله خباصه فليس لها أي لزوم. وكان للشغاله أجره

شهرية وتأكل وتشرب من طعام أهل البيت أو من بقايا طعام أهل البيت وفي آخر اليوم بعد العشاء تذهب إلى بيتها وهي تحمل بعض الطعام لأبنائها مما أجادت به سيدة البيت عليها..

***

حضر الشحات الى البيت ومعه نقله رتش وبعد أن فرشها هرول مسرعا الى الكنيف.. رأته لبيبه فاندهشت ليست هذه عادة الانفار أن يقضوا حاجتهم في كنيف البيت.. عندهم الغيط واسع ودورة مياه المسجد قريبة من البيت.. وضعت لبيبه إصبعها في فمها وكأنها تكلّم نفسها :

– بيعمل إيه إبن الكلب ده.. نهاره اسود..

ويبدو أنه لما أنهى ما في جوفه وجد أن ابريق الكنيف ليس به نقطة ماء فنادى قائلاً :

– يا أم إبراهيم.. شويه مَّيه.. وكرَّرها..

ولم تكن أم ابراهيم في داخل البيت.. فزعقت لبيبه :

– بتعمل إيه يابن الكلب جوَّه..

– معلهش ياست لبيبه لحقت نفسي بالعافيه..

– آخر يوم في عمرك ياواطي يا إبن الواطي..

– معلهش ياست لبيبه فين أم ابراهيم شويه مَّيه معلهش أبوس إيدك..

– أم إبراهيم مش هنا يا إبن الوسخ.. إطلع بوسخك بسرعه إجري.. أحسن الست لو شافتك هاتدِّيك بالجزمه..

فتح باب الكنيف وجرى خارج البيت إلى دورة مياه المسجد..

كانت السيدة حميدة مشغولة بحسن في القاعة تدَّعك له جسده بالصابون وتضع فوق رأسه وجسده كيزان الماء الفاتر.. وكلَّما شعرت بأنه يتلذَّذ الإستحمام ويلعب بكف يده في الماء وينشل منه ويرميه فوق رأس أمه كانت الأم تضحك لسعادة ولدها وتكرِّر دورة استحمامه وتنظيفه من جديد كأنها تلعب معه..

خرجت السيدة من القاعة فحكت لها لبيبه عن النفر.. وأخذت حميدة تضرب كفا بالأخرى وتقول :

– أهو دا اللّي ناقص.. هَّو كده مالوش قُعاد.. تجاوز حدود البيت..

– وهوَّ فين..

– جرى للجامع..

– الحاج في الغيط..

– أيوه..

– لَّما ييجي نقوله..

– تفتكري يعمل إيه فيه..

– هايمشيه إلاَّ دي..

ولّما دخلت أم إبراهيم وهي تحمل مقطفاً فوق رأسها به ما اشترته من السوق.. عرفت الخبر من سيدتها لبيبه وسرحت وهي تضع يدها تحت ذقنها وتجلس قرب الفرن.. غير أنها قالت بعد أن إستمعت إلى كل ما جرى..

– على فكره هو عملها قبل كده.. كذا مره..

فانزعجت لبيبه وقالت :

– واحنا كنَّا فين..

– إنت كنت نايمه والست حميده قافله قوضتها عليها.

– ماقلتلناش ليه..

– يعني هاكون السبب في قتله..

– برضه تقولي .. ليه تسكتي على حاجة زي دي..

– خلاص ياستي بصراحة الواد دا لكع من دون الإنفار اللّي شفتهم..

– شفت منه حاجة..

– كفاية عملة الكنيف دي..

– أهو ماجاش تلاقيه عمل فرار.. خدي الغدا إنت وودِّيه الغيط..

– حاضر..

حملت أم إبراهيم الغداء فوق رأسها وذهبت إلى الغيط وكانت جد سعيده لأنها ستخبر الحاج بما حصل من شحات، وكان من

عادة الحاج إذا أخبرته بشئ جديد نقدها قرش صاغ فتفرح وتشتري به ما في نفسها لأبنائها من السوق.. حكت للحاج كل شئ.. فاستحلف له وقال :

– هَّو فين دلوقتي..

– ما اعرفش الست لبيبه بتقول راح وجرى على الجامع..

– طيِّب أنا عايزه..

– ما اقدرش عليه يا حاج..

– طيب روَّحي إنت وخدي القرش ده.. وأنا هاتصَّرف.. قولي لهم في البيت الحاج هايرِّبيه..

– وانحنت فوق يد سيِّدها وقبَّلتها..

كضم غيظه وانتوى أن ينهره ويؤدبه بعد ذلك يطرده.. ونادى النفر الثاني ويدعى رجب الشامي من مجيريه :

– يارجب..

كان رجب في المربط (مربط البهائم الخارجي) وكان الحاج يجلس في مدخل الزريبه بعد أن فتح بابها.. دقيقة وقف رجب أمام الحاج قائلاً :

– أيوه ياعم الحاج..

– ماشفتش شحات..

– مستخبي في الدره..

– جه من البلد..

– من شويه وباين عليه عمل حاجة وخايف ودخل الدره..

– هاته..

وهرول رجب الى داخل الغيط ليأتي بشحّات وكان الكلب سعيد يجري خلفه والكلبان قرطى وبرعي جلسا قرب الحاج ليتناولا طعامهما الذي يلقيه صاحبهما أثناء تناوله الطعام.. لم تمضي دقائق إلاّ وكان شحّات يقف أمام الحاج وهو في حالة يُرثى لها كأنه يقول للأرض إنشقّي وابلعيني.. أخذ الحاج ينظر إليه في قرف حتى إرتبك وقال وهو يهزُّ رأسه :

– يعني إنت صاحب البيت أو أخويا ولاّ يمكن خلفّتك ومادريتش..

– غصب عنّي والله.. معلهش سامحني..

– ياه واحد في منتهى الجراءه والسماجه واللكاعه.. عرفت إنّك بتعملها على طول..

– أبداً دي أول مرّه..

– إنت كدّاب إبن كدّاب .. قولّي إنت عايز إيه.. عايز تنحك في النسوان..

– لأ والله أنا ناديت لأم إبراهيم..

– وبعدين ناديت للبيبه.. ياإبن الكلب.. هيَّ أمّك زانيه أكيد إنت إبن حرام.. مايعملش كده غير إبن الحرام..

– إشتمني إضربني كل حاجة تعملها فيّه أنا غلطان..

– أخويا ما يعملش كده.. وبعدين إنت شايف إن لبيبه بعد الخدامه أو الخدامه التانيه.. لبيبه دي بنت خالي الراجل اللّي كان طول عمره صالح..

لبيبه دي مراتي.. ولّما ناديتها عملت لك إيه..

– قالت لي إطلع يابن الجزمه ياوسخ إطلع بوسخك على بَّره..

– يعني إنت كنت تتصوَّر إنها هاتجيب لك المَيَّه لغاية الكنيف..

– أنا غلطان يابه الحاج.. إعمل اللي إنت عايزه فيه..

وقام الحاج نصف قومه وبصق في وجهه فمسح البصقه بيديه وقال لرجب :

– خده وفي عود الزنزل (شجرة) كتِّفه.. علشان هاخلّيه عبرة للملأه كلها تتفرَّج عليه..

وانحنى الشحات أمام سيده وقال في خضوع :

– أنا عن نفسي هاروح أحضن عود الزنزل ورجب ييجي يربطني بالحبل.. علشان أنا فعلاً غلطت ..

.. ولم يكن هناك أحد بالملأه يستطيع أن يقول للحاج ماذا تعمل أو يمنعه ورأى أخوه دردير من بعيد أن هناك رجلاً يتم ربطه في الشجرة فجاء مندهشاً.. وقال لرجب :

– فيه إيه..

– مش عارف الحاج قال لي كده..

– عملت إيه يا شحات..

– حوش عني يابه الحاج..

– عملت إيه..

– عملت وماعملتش يابه الحاج..

وكان محمود يتابع من بعيد وهو يقف عند شجرة التوت الكبيرة فلّما رأى حداد يتقدم نحو الشجرة المربوط فيها الرجل ويمسك بيده خيرزانه.. هرول محمود واقترب من حداد وهمس في أذنه :

– فيه إيه ..

.. حكى له حداد في صوت هامس ما فعله النفر..

فقال محمود :

– دا يموت مش ينضرب..

– طيب نموته..

– بعد إيه.. بعد ما فضحت الدنيا دا كان يموت من سُكات..

– ياريتني قلت لك قبل ما أربطه..

– خلاص إديله العلقة التمام إجلده ولّما تتعب أكمل أنا..

.. ونزل الحاج حداد على كل مكان في ظهره يضربه بقسوه وأخذت اليته نصيباً كبيراً من الضرب المبرح وراح الشحات يجأر فالتف الناس من الغيطان والدور المجاوره يتفرجون وجميعهم عرف بالحكايه وجميعهم ايضاً قالوا يستاهل.. واد لكع.. يتمحك في كل نسوان الغيط بارد مخبول لازم يتربي..

- ظل شحات يجأر حتى سكت من شدة الألم حتى تقطّعت أنفاسه و لم يعد يستطيع أن يجأر.. فقال دردير :

- كفايه فكه يا رجب ..

هَّز حداد رأسه وقال لمحمود :

- مش كفايه..

- كفايه بس مشّيه دا مالوش عيش هنا خالص..

- هوَّ دا اللي هايحصل..

.. حمله رجب وآخرين إلى الظّل خلف غرفة التبن وراح مع الآخرين يدهنون ظهره الدامي بطين من الترعة بعدها ذهب في نوم وهويئن.. واستطاع أن يفيق قبل المغرب.. ونادى الحاج رجب ونقده حسابه ليعطيه له وقال لرجب :

- قوله مانشوفش وشه هنا تاني.. وأدَّامه بالكتير أسبوع ويمشي من البلد كلها وقال رجب في رجاء "

- معلهش ياعم الحاج.. حكاية يمشي من البلد دي صعبه.. معلهش.. وانحنى رجب على يد الحاج ليقبلها..

شد الحاج يده منه وقال :

- يروح مصر.. جمال عبد الناصر فتح مصانع بياخد فيها كل الناس..

- هاقوله ياعم الحاج..

***

"حسن يعاتب أمه"

بعد أن تدارك حسن حال البيت وموقف أمه الصارم من أبيه وكيف أن والده يحب لبيبه ودائما يلقى بنفسه بين أحضانها.. فقال ولماذا لا تكون أمي حبيبته وأم العيال في نفس الوقت.. فبعد عشاء أحد الأيام ذهب والده إلى دكان عبده أبو سعده ودخلت لبيبه لتنام ومعها سعاد وعبد العزيز وتم ترقية محمد الصغير بناءاً على رجاء حسن لأمه بأن تضع له دكه خشبيه صغيره في ركن خلف سريره وتفرش فوقها لحافاً قديماً أو حراماً (مثل البطانية) في هذا الزمن لم يكن في البيوت بطاطين ولكن ألحفه وأحرمه.. ويبدو أن محمد قد سعد بذلك لأنه سمع رجاء حسن لأمه وكان وقتها يبلغ عامه الثاني.. ففي يوم مبيته الأول فوق تلك الكنبه إبتسم لحسن واحتضنه وقال في تلعثم :

– أحَّبك يا حسن..

فقال له حسن :

– كده يا حبيبي إتقسمت صح.. سعاد وعبد العزيز مع أمهم..

وأنا وإنت مع أمنا..

ضحك محمد وبس ولكن هل فهم.. إنه ابن عامان المهم أنه ضحك..

في الليلة الأولى لمبيت الصغير محمد معهما في تلك الغرفة شعر حسن بشئ من الإطمئنان وأنه يستطيع أن يفعل أشياء أخرى تصلّح من بيت أبيه.. وكان شغله الشاغل منذ وقت أن يفاتح أمه في رقه

وأدب.. لماذا لا تكون رقيقه مثل لبيبه.. لماذا لا تكون له طيِّبه ليِّنه.. لا تكون له ست..

.. ذهب محمد في النوم وغطاه حسن بعناية وعند قدم أمه الممتده على الكنبه قعد حسن فقالت له أمه :

– قوم في سريرك..

– مش جايلي نوم..

– أقعد في سريرك..

– أنا عايز أتكلّم معاك يامَّه..

– عايز ايه..

– عايزك تبقى زي لبيبه..

– يابني إنت مش عارف حاجة..

– عايز أعرف..

– دي حكاية طويله..

– علشان خاطري إحكيها..

– دي حكايه واحده من كتير..

– عَّرفيني حكاية حكايه..

– طيب.. لكّنها سكتت..

– سامعك يامَّه..

.. كان سنّك سنتين وفي ليلة من الليالي سمعت صوت عال في قوضه لبيبه وكانت القوضه مقفوله.. قرّبت من الباب سمعت صوت تاني عرفت إنه صوت نجيب أخوها بيقول لأبوك وكأنه يأمره :

– إنت غيّرت إتفاقنا دلوقتي عندك سعاد وحسن.. أكرشها بقه..

– بس علشان الولاد..

– لأ ياحاج حداد دي تروح دار أبوها وكفايه عليك دولت..

– الولد لسه صغير..

– تاخده معاها ولّما يكبر شويه نجيبه..

– ودا كله عشان إيه يانجيب..

– علشان أختي ترتاح..

– هيَّ شكت لك..

– طبعاً قالت لي كل حاجة..

– صحيح يا لبيبه..

– ماتزعلش ياحاج.. أنا ها أربي الأولاد أحسن تربية..

– طيّب إنت دلوقتي سعاد خدت عليك والواد هاياخد عليك..

– بالحنان ياحاج ماتخافش علّيه..

– بس كده أبقه مفتري..

– أبداً كل الناس بتعمل كده والبيت ما يسعش غير ست واحده وانت بتحب أختي وجالك الولاد عايز إيه تاني..

– ياه دا إنت خلصت الموضوع يا نجيب..

– وبعدين دي غريبه ومش من بلدنا.. بكفايه عليها كده وليه تاكل من خير بلدنا..

– على فكره هَّي من بيت وأبوها راجل معاه بدل الجنيه ألف.. أروج راجل في تلوانه أحمد فوده..

– يا سيدي يلعن أبوها على أبو تلوانه كلّها..

– طيب حاسب شويه يا نجيب..

– لأ مش هاحاسب هَّو الجد يزَّعل..

– بس دا مش ظلم..

– أبداً.. كل الناس بتعمل كده..

– اشوف..

– والله لو ما عملت كده بالكتير بكره هاقطعك..

– مش فاهم إزَّاي..

– تقاوي البطاطس مش هاجيبها لك.. زراعه البطاطس أنا أشطر واحد في البلد بيزرع بطاطس أرضك كلّها مش هاوليها.. أنا خايف عليك وعلى أرضك هاسيبك تغرق بيقه لا طلت غيط ولا بيت..

– إنت بتهدِّدني يا نجيب..

– دي في الأول والآخر أختي وإحنا خدَّامينك طول العمر علشان خاطر أختي.. هي دي الحكايه..

– يعني أنا هامشي بكلامك..

– إنت حر هو دا كلامي.. وإنت في الأول والآخر ابن عمتنا عايزين مصلحتك وأختي هاتربى ولادك.. وإنت بتحبها.. أختي نعم الزوجة ليك.. عايز إيه تاني..

.. وتاه الرجل وشعر بأن كلام نجيب من ناحية واقعي ومن الناحية الأخرى فيه ظلم لحميده وازَّاي ولادها هايعيشوا بدون أمهم الحقيقية.. وراح الرجل يفكّر.. بعدها انصرف نجيب.. ولّما سمعت يابني كل الحكايه رجعت قوضتي وبعدين دخلت المندره وقعدت أعَّيط.. كان سنك ساعتها سنتين ونص عيطت في سريرك خدتك ورحت أطبطب عليك وقعدت في المندره تاني وإنت في حجري وقعدت تعَّيط تاني وأنا أعَّيط..

– وبعدين يامَّه..

– نمت في حجري.. خدتك في سريرك ونمت جنبك..

– وبعدين..

– بعد شويه قمت نمت على الكنبه..

– هيه..

– جه صحاني وقالي تعالى ورايا القاعة النوم خدني ومارحتش القاعة..

– أيوه وبعدين..

– جالي وزغدني في رجلي ومَّره واحده زعق وقال :

.. أقسم بالله مش هاصبر عليك ومماليك عيشه عندي والله إن قعدت فيها تاني..

طبعاً إنفلجت وطفقت قائله :

– إنت بتتلكك.. إنت راجل مفتري جاي مزقوق عليَّ.. رِّبنا قال الرحمه..

– على بيت أبوك من بكره..

– زي ما انت عايز..

.. وانصرف إلى لبيبه وهو يدعى عليْ وشعرت بهما وهما يدخلان القاعة وبعد وقت سمعت ضحكتها المعهوده وكأنها تغيظني.. نمت يابني وحِّملت أموري على الله..

– والصبح حصل إيه..

– كالعاده جاءني اللبن من مكنة الخض وحطيته في القربه بعد ما فضِّتها.. عملت السمنه والجبنه بعد ما صليت.. وجت أم ابراهيم بعد الشمس قعدت أدَّام الفرن تحمي علشان أخبز.. ظهرت لبيبه وصبحَّت عليَّ من مناخيرها.. قعدت أدَّام الكانون تسَّخن مَّيه علشان تحمِّي أبوك.. وسكتت..

– وبعدين يامَّه..

– لبيبه جابت له الفطار وقعد يفطر على باب القاعة بعدها جاب الحمارة من الزريبه وقال وهو يسحبها إلى الخارج :

– النهارده هابعت لأبوك ياخدك..

– إعمل اللّي إنت عايزه..

وكانت لبيبه جد مبسوطه وفي الرايحه والجايه في وسط الدار تغنّي أغنيات تغنيها البلاد وقت الأفراح.. كانت فرحه وبلا خجل في غناها وقلت .. قلبها جامد أوي من كلام ليلة إمبارح طيب أصبري ياحميده أمَّا أشوف آخرتها إيه.. وكانت أم إبراهيم شرفه تتعجّب وتنظر إلىْ وإليها لأنها مندمجه في الغنا..

وهزَّت أم إبراهيم رأسها وضحكت بصوت خفيض وقالت للبيبه :

– صلاة النبي يا أم إبراهيم مالك فرحانه أوي النهارده..

– وليه مافرحش بقه لي كتير متنكّده..

– إفرحي ما خِّدش حايشك..

وكانت لبيبه تُدْعي أحياناً أم إبراهيم.. كان ولدها ابراهيم الذي عاش أربعة شهور قد شعرت بغلاوته وأحسَّت به ولّما مات مثل بقيه أخوته دعاها الناس بهذا الإسم..

– وبعدين يامَّه..

– جه أبوك من الغيط.. جاب الباميه والباذنجان والخيار وحاجات كتير عايزها من الغيط.. وكعادته أحضر بنفسه طبق العسل الأسود وخلط به قطعة زبده وراح يأكل خلفي من العيش السخن الذي أخرجه أول بأول من الفرن..

وكانت أم إبراهيم لها دم خفيف وأحياناً تهزَّر مع أبوك بالكلام.. قالت له وهو يأكل:

– إنت بتحب عيش أم حسن..

– ما هي لبيبه اللّي عاجناه..

– لبيبه النهارده ماعجنتش ياحاج.. أنا اللّي عجنت..

– بطلّي عجن يا أم ابراهيم.. أنا عارف إنت مَّياله لحميده..

– الست دي نوَّرت بلدنا..

– بطلّي عجن جتك الغم .

.. أبوك قام وغسل إيده وسحب حمارته مرة أخرى إلى الخارج وقال لي :

– أبوك جاي الليلة..

– علشان..

– يشوف صِرفه فيك..

– القوى عليه رِّبنا..

خرج أبوك ومازالت لبيبه ريحه جايه تغّني وأم ابراهيم تكاد دموعها تغطّي وجهها لّما سمعت لغة تهديد أبوك ليَّه وشعَرتْ أن في الأمر شئ وزاد بكائها.. لم أكن أستطيع أن أمسك نفسي وراحت الدموع تنساب من عيني بغزاره.. ياترى إيه اللّي هايحصل الليله لأن كلام نجيب سمعته كله ياترى إيه اللّي ها يحصل :

– وبعدين..

– أبوك راح لمختار حجازي كان بيشتغل عندنا وعارف بيتنا في تلوانه..

– ليه..

– قاله روح تلوانه للحاج أحمد وقوله الحاج حداد عايزك ضروري الليله..

– عرفت منين..

– عرفت الحكايه كلها بعدين..

بعدها أبوك راح للحاج حسين وهو ابن أخته ودعاه لحضور الجلسه بالليل.. وكان الحاج حسين يوافق على كلام خاله وعشان كده دعاه.. وراح لأخوه دردير علشان يحضر..

– ومحمود..

– محمود ها يبَّوظ الجلسه ومش ها يوافق على كلام حداد وها يفّشله.. وطبعا يابني محمود بيكره الدراوشه على طول الخط..

– يعني جاب الناس اللّي على أد كلامه..

– الحكايه طويله أوي يابني.. بكفايه علشان تنام..

– مش هانام كملّي يامه..

– طيِّب إمسح دموعك وبطلّ عياط..

– طيب قولي..

جاءني أبي ومعه عبد العظيم الحر.. كل منهما يركب حمارته.. جلسا في المندره قدَّمت أم إبراهيم لهما الواجب من شاي ثم

برتقال.. دخلت سلّمت على أبويا وعلى عبد العظيم وخرجت.. ثم دخلت مَّره ثانيه جلست بجوار أبي وسألت عن أمي وأهلي بتلوانه وكان الرجل يرد باختصار وكأنه يشعر أن في الأمر شئ وهَّز رأسه قليلاً وقال هامساً ناحيتي :

– حداد عايزني ليه..

– باين هَّو وأهل مراته متفقين على حاجة..

– زي إيه..

– يمشوني من هنا وياخدوا ولادي مِّني..

– هَّي دي الفوله.. ياخساره على الدنيا.. طيب هوَّ ماسك عليك حاجه..

– تلكيكه يابه..

– زي إيه..

– مكسوفه يابه ما قدرش أتكلّم..

– مقصَّره في حقه..

– إنت هاتسمع كلامه..

وكان أبوك في دكان عبده أبو سعده جه بعد شويه.. خرجت وقفلت الباب.. الباب الوسطاني اللّي بيفتح على المندره.. واربت الباب قليلاً حتى أسمع.. وبعد التحيات والسلامات جاء الحاج حسين والحاج دردير.. يابني باختصار أبويا قال :

– خير يا حداد..

– يا حاج أحمد.. بنتك مغلباني..

– فسَّر.. بنتي عملت حاجة وحشه..

– هَّي لّما تقصَّر في واجبي يبقه دي حاجه حلوه..

– ما قدرتش تعالج الموضوع بينك وبينها..

– لأن إنت عالجه.. خد بنتك أنا مش عايزها..

– عايز تطلقها يعني..

– بعدين نشوف الموضوع ده..

– يعني كنت عايزها تخلّفلك وبعدين ترميها زي ما ناس كتير بتعمل..

– أبداً الموضوع إنها مقصَّره في حَقّي وبتعصاني..

– في كل الأحوال هاخد بنتي والولد لسه صغير محتاجها..

– خد الولد معاها..

– والبنت..

– البنت دي تستحمل وهَّي مع لبيبه على طول..

– طيِّب أنا الصبح هاجي أخدها..

– لأ دلوقتي..

– الدنيا ليل وبتمطَّر وأنا جاي والطريق ضالمه لو الحماره عترت في السكه هايقع الولد وأمه..

– علىَّ الطلاق منها الليله تمشي وما تبات فيها..

– ياه أد كده الكرم وأد كده الأخلاق.. ماكنتش كده ياحداد..

.. مين نزع من قلبك الرحمه.. ياخساره بنقول إحنا مناسبين أطيب راجل في شنشور..

– كل حاجة ليها سبب يابه أحمد..

– يعني إنت حكمت علينا لازم ناخدها معانا في الضلمه والمطرة دي.. إيه رأيك ياحاج دردير إيه رأيك ياحاج حسين..

ضرب حسين كفاً بالأخرى وقال :

– هَّو دا كلام خالي ما اقدرش أعارضه.

– وانت يا دردير..

– أنا.. أنا .. بلاش يا حداد تبقه رُد اليمين..

أبوك رفع إيده وقال :

– أنا حلفت وخلاص..

والحق دردير راح يعَّيط زي العيِّل الصغَّير وطلع مشي بعدها.. وحسين سلّم ومشي رجَّاله ورق.. أهي رجاله ورق.. أهي رجاله وخلاص..

– أد كده أبويا كان قاسي..

– للأسف أهله علّموه كده.. لكن هَّو أصله مش كده..

– وبعدين يامَّه روحتوا إزاي في الضلمه والمطره..

– دي حكايه طويله.. نام دلوقتي..

.. وفي الصباح كان قلبي يحمل غضباً نحو أبي وبدأت أبتعد عن زوجة أبي وبدأت أنظر إليها في غيظ، وكنت أتركها تحتضنني وتقبِّلني وبدأت أدفعها وأداري وجهي عن قبلاتها وأبتعد عن وجهها ورأسها.. وكانت تقول لي ولأمي :

– هَّو فيه إيه.. حسن إتغير.. فيه إيه حبيبي.

وكنت أهزُّ رأسي وأغرب عنها وأبتعد عن المكان الذي تقعد فيه..

وكانت عادات الصباح بينها وبين أبي.. هي في القاعة معه تحمِّيه وتدعك ظهره وجسده بالليف والصابون وضحكاتها الرَّنانه تجلجل في القاعة ويبدو أنها كانت تزيد منها لإغاظة أمي.. وقرب الفرن الذي يقع على شمال القاعة تقعد أمي على كرسي خشبي صغير وتخض القربه.. كانت أمي تعمل في صمت ولكن كان رأسها يحمل من الحزن الكثير.. وكنت أراها تبكي دون صوت وتمسح دموعها وكنت التصق بها وأقف بجوارها وهي تخض القربه وأضع رأسي فوق رأسها وأربت على كتفها بيدي وأقول :

– ماتزعليش.. ماتعيطيش..

– لأ يابني أنا كويسه..

– إنت حاسه بإيه.. إنت زعلانه..

– بيغيظوني يابني.. والراجل مش عادل..

– وانت زعلانه أوي من إيه بالضبط..

– مافيش ياحسن..

– طّيب خدي حقّك يامَّه.. حمِّيه واضحكي زيها..

– ليه يا حسن الكسوف ده.. يابني أنا مش بتاع كده وعمري ما عمل كده..

– عمري ما دخل في سباق معاها عليه..

– ليه.. مش حقك..

– برضه ماعملش كده.. أنا ست محترمه..

– طّيب ماتعيطيش وماتزعليش..

– أنا بازعل بس من تصرفات الناس..

– علشان ضحكتها..

– هيِّ بتضحك كتير مخصوص بالشكل ده عشان تغيظني..

– ما هو لتعملي زيِّها.. أو ما تزعليش..

– يعني إللّي بيقهرني الفعل..

– طيب ماتشيليش في نفسك.. أتركيها لله..

– يالّه أفطّرك.. أدخل القوضه وأنا جايه لك..

.. كانت أمي تطعمني طعاماً خاصاً.. خلاصة ما في البيت من زبده وبيض وكبده الأوز والبط والدجاج.. وكانت تطبخ للبيت وللأنفار في الغيط طعاماً خاصاً بهم وأنا طعام خاص بي آكله وحدي وكان إخوتي يأكلون من طعام الأنفار مع زوجة أبي ولم

يكن أحد من سعاد وعبدالعزيز يلاحظون ذلك لأنهم كانوا صغاراً.. أما محمد أخي الصغير كان يبلغ من العمر عامان فهو يأكل طعام الأطفال.. وكان أبي يعرف أن أمي تطعمني طعاماً خاصاً وكان راضياً على ذلك، وكانت زوجة أبي تعرف ولكنها لا تستطيع أن تبدي أي إعتراض لأن أبي موافق على ذلك، ولكنها كانت تقول مع نفسها في غرفتها أمام سعاد وعبد العزيز :

حكَم باولداه عليكم غلابه.. إنتو ولاد الجاموسه وحسن ابن البقرة..

وكان الأطفال لا يفهمون أي معنى لما تقوله.. وكانت أمي تضع لي الطعام على منضده بالمندرة وتتركني آكل وحدي قائله :

– كُل ماتخلّيش حاجة.. كل قبل ما حد ييجي..

ثم تخرج وتقفل علّى باب المندرة بالمفتاح وأحياناً كان المفتاح لا يقفل الباب لعيب في الكالون فكانت تقفل علىَّ الباب وتقعد أمامه حتى أنتهى من طعامي.. وكان أبي يرى هذا ويعرف أنني بالداخل أتناول طعامي فيضحك أو يبتسم ويداعب أمي قائلاً:

– هَّو حسن جوه..

– أيوه..

ويطلق الرجل ضحكته مَّره ثانية ويقول :

– ياريتني كنت حسن..

وتهز أمي رأسها وترد عليه قائله :

– شفته بعد مرار.. لّما تبقه أدُّه هاعملّك زيه..

– طيب يا حميده حتى في الرَّد ناشفه (كان يقولها بصوت عال وأخنف ولا أخفي أن أبي كان خفيف الظل رغم قسوته على أمي.. ولكن المشكلة كانت أنه لم يكن يعرف كيف يتعامل معها خاصة في أول أيام زواجه بها فتعقدت أمي من طريقة معاملته خاصة لَّما جعل زوجته الأولى تنام في نفس غرفة أمي في أول أيام الزواج.. إنه بذلك قتل الحب في قلبها ولَّما سألته لماذا هذا قال لها إنها هي التي طلبت ذلك اكثر وتأكدت من أنه لا فائده منه وأنه يعيش تحت تأثير زوجته ولَّما استمعت الى اهلها معه أيقنت أن أهل زوجته أيضاً لهم تأثيرعليه لدرجة أنهم يريدون التدخل الكامل في كل حياته)..

بعد ذلك كان كل هم أمي كيف تحافظ على أولادها خاصة حسن وكيف تستطيع بالصبر والتدبير أن تسيطر على البيت إدارياً ومالياً لَّما وجدت أن زوجها مهمل في التصرفات الماليه وأنه غير مواظب على زراعة أرضه بشكل جيد خاصة أنها تعلمت كيف تدار البيوت من الداخل من أمها السيدة شلبيه الشيخ وتعلَّمت كيف أن والدها يزرع أرضه بدرجة ممتازه ويقوم بفلاحة وتربية حيواناته بشكل جعله مشهوراً في الناحية كلها بأنه أفضل الفلاحين في زراعة ارضه بكل أنواع المحاصيل وأن الفدان الواحد يساوي ثلاثة أفدنه عند فلاح متوسط الفلاحه، وكان أبوها أيضاً أشطر المزارعين في مركز الباجور كله في تربية المواشي اللبن والعلف.. وكانت تقول لأبي دائماً :

– مش بكتره الأرض يا حداد.. راعي الأرض.. شوف أبويا الفدان عنده بيجيب كام فيرد أبي بلا مبالاه :

– بقولك إيه تعالى إنت روحي الغيط بدالي.. (كان يقولها بتريقه فتسكت أمي ولكنها كانت دائماً تفكّر في حل..

كان أبي في هذا الوقت يعطي أهل زوجته بسخاء.. قمح وذره وخضار وعنب هذا غير الفلوس.. والحق يُقال أنه يجب مساعده أقاربي بالقدر الذي لا يضر بيتي ولكني بهذا الشكل الذي بدأ يؤثر على بيت أبي لا يجوز.. هكذا رأت أمي ولكن كيف تستطيع أن تجعل هذه المساعدات بشكل لا يضر بيتها.. هل تنتظر لّما يكبر حسن ويمسك كل شئ.. إذا إنتظرت هاتكون خربت.. وراحت تفكّر كيف وطالت بها الإجابة حتى وصلت إلى عدة حلول..

***

"الليلة المظلمة وموت أم الرزق"

كنت أعرف أن أيام المدرسة تقترب وكنت أكره أن تأتي لما لقيته من ألم في عام الدراسة الأول.. ولّما مَّرت الأيام رتيبه كنت أصُّر من يوم آخر أن تحكي لي ما حدث في تلك الليلة الممطره.. ولكن أمي كانت تؤجِّل لما لها أثر حزين وسئ على نفسيتها.. وفي صباح أحد الأيام دخل بيتنا طفله من عمري ولّما دخلت من الباب الكبير الذي كان مفتوحاً هرولت إلى غرفة أمي لبيبه دون أن تقول لي شئ حيث كنت جالساً على المصطبه بجوار صومعة القمح وكانت أمي بالداخل تقضي أعمال البيت.. وفجأة بمجرد أن دخلت الطفله الغرفة سمعت صوتاً عالياً صراخاً من أمي لبيبه :

– عمتي ياروح قلبي ياحبيبتي.. ماتت إمتى.. وصرخت مَّره ثانية صرختين أشد وأعلى.. وهرولت أمي إلى غرفتها ودفعت بابها قائله:

– فيه إيه يا لبيبه..

– عمتي .. عمتي أم الرزق ماتت.. وهي تضرب بكلتا يديها على صدرها..

فدخلت إليها أمي وأمسكت بكفي يديها وقالت :

– إستغفري الله إهدى ماتضربيش صدرك..

– أعمل إيه .. ياشردي ياحزني.. ياخراب بيتي من بعدك..

وكان سعاد وعبدالعزيز مشدوهين لما يروه لأول مره.. إرتدت ملابسها بسرعة واسرعت خارج البيت وهي تولول.. ياويلك ياخراب بيتك يالبيبه.. والطفله التي اخبرتها تجري خلفها..

.. أمسكت بذراع أمي ثم تناولت كفها في يدي وقّبلته فقالت :

– ليه يا حسن..

– ماتت الأفعى..

– لأ يا حسن دي ماتت خلاص ماتقولش كده..

– أد إيه أنا مرتاح..

– ليه يا حسن دي خالة أبوك برضه..

– خالة أبويا بس بتكره أمي..

– علشان كده إنت فرحان..

– طبعاً فرحان.. أنا هاروح..

– تروح فين..

– أروح أشوفها..

– لأ تشوف إيه مالك..

– يامَّه هاروح أشوفها وهي طالعه وأتأكد إنها مشيت فعلاً..

– هاتتوه.. روح معايا بعد الضهر وأنا رايحه أعزي..

– لأ.. معلهش علشان خاطري.. لازم أروح.. لازم أتأكد بنفسي..

– هاتعرف تروح وتيجي..

– ماتخافيش.. هي بيتها جنب بيت عبده..

– يمكن تكون مش في بيتها هاتلاقيها في بيت عبده..

– خلاص أروح بيت عبده وأسأل..

– بعدما جوزها مات قعدت في بيت عبده..

وأمسكت أمي بذراعي حتى الباب الخارجي للبيت وهي تصف لي بيت عبده قائله:

– إنت عارف بيت أبوك دردير وراه على طول بيت عبده..

– خلاص خلاص..

– اتأكدّ وارجع على طول..

– لّما تطلع أدامي رايحه التُرب هاجي..

ولأول مّره في حياتي أجرى بهذه السرعة.. كم كنت فرحاً بموتها.. مات الناب الأزرق الذي كان يكره أمي ويكيد لها المكائد.. وهذه أول ضربه من الله لزوجة أبي..

في هذا الوقت من الزمان كانت العادة في قريتي يدقون الطبل للميت.. طبل الإعلان عن الموت أمام باب الميت يقف الطبال يدق بالعصا طبلته الكبيره والتي علقها في رقبته بحبلين وتتدلى الطبله حتى آخر بطنه وهو يضرب بخيرزانه قطعها نصفين وفي كلٍ يد فرع منها ويظل يدق طبل الإعلان أمام البيت ثم يستريح قليلاً بعدها يعاود الطبل.. وبعد أن يخرج المغسل ومساعده من البيت بعد تغسيل الميت يقوم الطبَّال بضرب الطبله برتم سريع معناه أن الميت سيخرج بعد قليل من بيته.. وبعد أن يخرج الميت في خشبته من البيت ويحمله الناس على أكتافهم.. يهرول الطبَّال ليمشي أمام الجنازه إلى القبر.. وكان في قريتي أسرة واحدة تقوم بهذا العمل وتوارثوها أباً عن

جد.. وهي أسرة أبو عوف وهم من عائلة شرف إحدى العائلات الغلابة والمكافحين في قريتي.. خرج من عائلة شرف بعد ذلك صحفيًا مشهوراً كان رئيس دار التحرير.. وهذا شرف يبذع واحد منها ويصير صحفياً من أسرة الطبالين في قريتي وكان أشهر هؤلاء الطبالين (عثمان أبو عوف ومحمود أبو عوف) وكان يطبِّل في جنازه أم الرزق أكبرهم عثمان أبو عوف..

إنتظرت الميته حتى خرجت من بيت عبده وكنت أجلس بجوار أبي ومشيتُ بجواره حتى المقبره وكان أبي يمسكني من كف يدي.. كان أبي حزيناً على خالته وكنت أنا سعيداً بموتها وتكاد طبول الفرح تدق في داخلي وكتمت فرحتي في داخلي حتى لا يسمعها أبي أو يشعر بها وهذا ما لا يجب..

في هذا الوقت آخر عام ١٩٥٣ كانت مقابر العائلة ستة أربعة منها للرجال واثنان للنساء، وكانت المقبرة مثل قبو في شكل مستدير.. وكان باب المقبرة يتم طلاسته بالطين بعد دفن الميت ويتم هدمه أو فتحه بازالة طوبه بعد طوبه حتى ينفتح الباب بواسطه التربى ومساعده، وكان رجلان غير التربي يدخلان من فتحة القبر إلى داخله ليأخذان جسد الميت من التربى ويضعانه بجوار العضم المجاور له أو الميت الذي قبله والذي ما زال جثة ولم يتحلل إلى تراب وعضم بعد وغالباً ما يكون هذان الرجلان اللذان يتناولانه من التربى في داخل القبر من أقرباء الميت.. جرى كل شئ في صمت وبدون بكاء أي رجل من أبناء أخيها وكذلك لم يبك أبي، وكنت شديد الحرص في أن أمسك بيد أبي خاصة عندما إنتابني الرعب وسرت في جسدي ورأسي قشعريره هزتني، عندما فتحوا باب القبر وحملوها

إلى داخل القبو المظلم.. مضى ما يقرب من نصف ساعة حتى إنتهى دفنها وتقدم أبي طابور الخارجين من المقابر حتى وصل إلى آخر طابوري المعزين، وهرول إليه نجيب درويش شقبة السيده لبيبه قائلاً:

– ليه إكتفيت بتشييع الجنازة ليه علشان غلبانه مالهاش حد..

– إنت ها تقطْمني يا نجيب عايز تقعد ليها إنت أقعد..

– هَّو أنا معايا حاجة.. بس دي خالتك..

– طيب يا نجيب دي خالتي.. خد.. يلعن أبو خالتي..

– خلاص يا حاج خلاص..

– أنا زهقت منكم زهقت..

ونظر نجيب إلى حسن شذراً وقال للحاج :

– يا حاج حداد إنت من يوم ما جبت العيال وما حَّدش عارف ياخد معاك لا حق ولا باطل..

– أنا سكْت كتير عليكم.. الواحد منكم عياله كبار ومن يوم ما تجوز داره مليانه عيال.. وأنا لسه غلبان عايش لي الولاد قرِّيب.. عايزين ايه فارقوني..

وتلعثم نجيب وقال :

– معانا العيال ومش عارفين نأكلّهم..

– أكّلهم يا نجيب..

– ساعدنا بس .. ساعدنا.. عايز غموس..

– إشتغل وشَّغل ولادك وبطل سرقه من على البحر خلّي ربنا يبارك لك..

– كل الصيادين بيصيدوا من على راس غيطنا وسيبنهم.. دا حق واللّي ما يجيبليش سمك كل يوم آخذ عِدُّته..

– إعمل ما بدالك بس ابعدوا بعيد عني..

– ماحنا بعدنا من زمان هو احنا بنخش دارك.. عايز تقطع القمح والدره كمان..

– وفلوس اللحمه.. كل أسبوع ليك وعبده ومرات أبوك فهيمه.. عايزين ايه تاني..

– الدار كانت مفتوحه كل يوم لينا..

– إذا كنت تقدر تروح روح..

– والشومه..

– خلاص من حق الولاد يدافعوا عن بيتهم.. وكل حاجة ليها آخر.. اليغمه خلصت يا نجيب..

– والله نصحت يا حداد..

– طول عمري عبيط مش كده يا نجيب..

– واجبنا عليك دا حنا ولاد خالك..

– أحمدوا رِّبنا قمح ودره ولحمه هو فيه حد بيعمل كده في البلد كلّها..

– محمود سلطك..

– بقه لي شهر ما شفتوش..

– دا بيكرهنا كُره..

– الحق دايماً يزَّعل..

.. إنسل نجيب من بيننا وقصد بيت عبده وقصد أبي بيتنا وهو يمسك بقوة كفَّ يدى.. وكنت سعيدا بكلامه مع نجيب ولم أنطق ببنت شفه وتنحنح وهو يدخل البيت فخرجت إليه أمي ووقفت في فتحة باب النص وقالت :

– الباقيه في حياتك في خالتك :

– البقاء لله.

***

حكيت لأمي ما حصل بين أبي ونجيب بعد دفن أم الرزق.. وعادت زوجةأبي في الليل وعزَّتها أمي كما فعلت مع أبي وكل ما قالته لبيبه عن هذا اليوم أن كلب عمتها ظل ينّوح بصوته طول اليوم حزناً على عمتها ولما كان يملأ الدار صراخاً زهق عبده منه وطلع اليه فوق سطح البيت وراح يضربه بعصا غليظه حتى فَّرا الكلب على سطح فهيم مطر المجاور لسطح عبده.. وكان عبده يزعق وهو يضربه قائلاً :

-هي ماتت وأنت هاتقعد لنا يلعن أبو سنطيلك..

وفي صباح اليوم التالي من ضرب الكلب وكْرشه الى سطح جاره فهيم مطر.. وجد الجار أن الكلب أسود مسلكع له رقبه منتوفه

مخيف وسأل عن صاحب الكلب فقال له فايز فرخه أن صاحبه عبده درويش وهو في الاصل كلب عمته ام الرزق فقال فهيم لفايز :

– تعال خده وديه لعبده..

– وأنا مالي..

– يا فايز عيب إنت ابن اخويا خد الكلب وديه لصاحبه..

– مش ناقص مشاكل مع عبده..

– خلاص هامّوته .. الكلب لابد فوق السطح وعمال ينوح وأنا مش ناقص قرف..

– إخلص منه ياعم..

– ساعدني..

في اليوم التالي رضخ فايز لعمه وطاوعه في إقامة مشنقة للكلب في وسط الشارع وكان منظراً مفزعاً عندما قام فايز بتعليق الكلب من رقبته بحبل في عامود المشنقة وظل الكلب يعوي وهو يخرج لسانه من فمه حتى مات أمام جمهره من أطفال الحته ومن اللّي رايح واللي جاي ولما كان لاطفال القرية في هذه الحته.. شارع الخارجة.. أن شقي الخارجه مطر سليم وهو شاب وقتها كان يقترب من العشرين عاماً.. كلما وجد كلباً أجرباً أو مسلكعاً أو مسعوراً أقام له في الخارجه مشنقه مثل التي أقامها فايز وأعدم الكلب.. واشتهرت الخارجة بموقعة شنق الكلاب في الناحية البحرية كلها.. لدرجة أن كل من أراد أَن يتخلص من كلب جاء به الى مطر سليم ليشنقه مقابل سندوتش فول أو طعمية وكان الذي

يتناول سندوتشات الفول والطعمية في هذا الوقت يعتبره الناس إنسان صاحب حضارة ومتقدم عن غيره الذي يتناول الخبز والمش أو البتاو والجبن..

ولقد كنت أشاهد هذه المشانق وأنا ذاهب الى دار عمي محمود من ناحية الخارجه لاحضر لأمي فحل خميرة، وأحياناً أخرى كان يأتي لي عبد الرحمن بن عمي محمود ويأخذني الى شارع الخارجه لأتفرج على مشنقة لكلب من الكلاب..

وفي يوم بعد مشانق الكلاب التي توالت بعد شنق كلب خالةأبي قلت لأمي وكأنني أشفي غليلي :

– تأكدت من إن أم الرزق ماتت بموت الكلب..

– مش فاهمه..

– يعني لو هي ماتت وعاش الكلب كأنها ماماتتش..

– تقصد ايه..

– لان الكلب من الآخر كان هايجي بيت قريبه علشان ياكل..

وضربت الأم كفاً بالآخر وقالت وهي تقهقه :

– أما إنت عليك كلام يا حسن أد كده فرحت بموتها يا حسن..

– عشان هي كانت محّركة الناس دي كلّها وفي الأول والآخر أقرب الناس لأبويا وكانت بالنسبة له نقطة ضعف..

– ماحّدش يفرح في الموت.. لكن ربّنا خلصنا من ناب الوليه دي..

– وعلشان كده ربّنا كريم أوي..

– طيب خلصنا من أم الرزق الورك. وباق.. وسكت..

– باق إيه..

– لّما أبويا عمل بكلام نجيب وحكم عليك إنت وأبوك تمشوا في الضلمه والمطره والبرق والرعد دا غير بعد نص الليل.. احكيلي عن اللي حصل..

– مش هاتعتقني لّما أبوك يروح الدكان والبيت يهدا ولبيبه تخش قوضتها.. هاحكيلك لما تدخل القوضه قبل ماتنام..

وكان أبوك حزيناً لأنه قرار قاسي وكان مندهشاً لأن أصول القرى التي تمشي عليها الأسر الطيبه لا تفعل ذلك أبداً.. ولكن كان أهل أبيك من الكراهية والتأثير على أبيك كبير فتغيَّر الرجل ولو علم محمود بالأمر لجاء ونهر أبيك وأثناه عن فعله ولكن أحداً لم يخبره وكان ذلك واجباً على دردير ولكنه سلبي لا يعرف أبعاد الأمور ضعيف الإرادة النقطة الوحيدة الطيبة فيه أنه بكى وانصرف.. نادانى والدك وقال :

– حضري هدومك.. إجدعني قبل ما تمطر..

ومن الخزنة (غرفة نوم حسن راحت الأم تعبئ هدومها وهدوم حسن وهي تبكي في صمت) .. وقام عبد العظيم الحر الرجل الاسود الذي جاء مع أحمد فوده وخرج إلى البيت ليحل رباط حمارته ويحكم رباط البردعه على بطنها وبكف يده راح ينفض بكفي يديه البردعه من أي تراب.. كان أبي قد قام ووقف بالصالة

وجسده يرتعش وكان وجهه متجهما وهو يترقب خروجي من داخل البيت.. والذي قهرني هو أنني وجدت لبيبه في أول مجئ أبي وهو يتكلم مع أبيك تقف خلف باب غرفتها وتسترق السمع.. وكانت ليلة مناها أن يكون قرار ذهابي بلا عودة.. وكانت سعاد أختك تروح وتجئ من غرفتها إلى المصطبه تجلس قليلاً ثم تهرول وتدفع باب غرفة لبيبه وكأنها تقول لها ما يجرى.. والذي زادنى حزناً أن البنت لم تبدي أي مشاعر أو قرب ناحيتي وكأنها لا تدري بأني راحلة ومن هذه الليلة تأكدت من أن سعاد أصبحت بنت لبيبه ولم تعد بنتي والتي ولدتها من بطني.. أخرجت سبتاً كبيراً به أغراضي وملابسي وهدوم حسن، وضعت السبت فوق المصطبه قرب صومعة القمح وعدت إلى غرفتك لأحملك فتنحنح أبي وقال بصوت مسموع :

– خلاص يا حميدة..

– هاجيب حسن يابه..

لففته ببشكير عرسي بعد أن لبَّسته أحلى ثيابه وكان الطفل بين اليقظة والنوم ولا يدرى بشئ ولا يدرك إلى أين تذهب أمه مع ركب أبيها، وصرخ وأنا أحمله وأحتضنه واعَّدى به من عتبة الخزنة.. وكان أبوك يخرج إلى الشارع ويقف عند شجرة الجميزة ثم يعود قلقاً وكأنه يتعَّجل الرحيل..

خرج أبي إلى باب السور بعد أن إطمأن منى بأن كل شئ جاهز.. نادى عبد العظيم وهو يخرج من باب البيت الداخلي :

– يا عبد العظيم هات الركوبه..

– حاضر يابه أحمد..

حَّل عبد العظيم رباط ركوبة أبي من حديد شباك المندره وسحبها إلى جدر شجرة مدقوق في الأرض بعد العتبه وقال :

– إركب يابه.. إركب يابه..

قالها عبد العظيم في حنان ورأيت دموعه تنزل بغزاره فوق صدغه..

ركب أبي وساعده عبد العظيم في تلبيس قدميه في ركاب البردعه وشَّد جلبابه لتغطي فوق قدميه حتى لا يلسعها برد الليله.. هَّز أبي رأسه وقال :

– هات السَبتْ يا عبد العظيم أدَّامي..

– أنا هاشيله على كتفي يابه أحمد..

– ماينفعش إنت هاتمشي ويدوبك تسحب الحماره.. هات يا عبد العظيم..

ورفع عبد العظيم السَبتْ من فوق المصطبه ومشى به حتى ركوبةَ أبي ووضعه بإحكام أمامه فقال أبي له :

– دي سهله أوي.. ركّب أم حسن..

صعدت بصعوبة فوق المصطبه وكنت أرتدي بنطلون تحت ملابسي ليحمي ساقي من البرد.. أمسك عبد العظيم بخدمة الحمارة (الحبل الي يربط وجه ورأس الحماره) ولم تكن حمارة عبدالعظيم بركاب مثل حمارة أبي فنادى أبي أبوك وقال كأنه يشخُط فيه :

– شوف حبل مجدول يا حداد..

وهرول أبوك إلى داخل البيت ودخل زريبه البهائم وأتى بالحبل بين يديه فأخذه منه عبد العظيم وربطه من ناحية كأنه سيضع فتحته هذه في رقبة جحش صغير ودون أن يلمس قدمي أدخل الفتحة حتى منتصف قدمي وفي الناحية الأخرى عمل نفس الفتحة وأدخلت قدمي.. خمس دقائق يابني وأصبحت حمارة عبد العظيم بركاب صنعه عبد العظيم وحتى لا تتدلى ساقي طيلة الطريق وأتعب من طول وقت المسافة بين شنشور وتلوانه.. خرج أبي وقال عند باب السور الخارجي عندما رأى أبيك واقفاً :

– سلام عليكم ياحداد..

– مع السلامة يابه أحمد..

كانت أول قنطره فوق ترعة عَّدى فوقها أبي بركوبته هي قنطرة زكي أبو شنب والتي تقع في مقابلة البيت ثم نحن وأنا احتضنك أمامي وعبد العظيم يمسك بحبل الحمارة ويهرول أمامها.. كان الطريق من قنطرة زكي وحتى آخر غيطان عبد العزيز الصاوي شريط ضيق وكان المطر قد كسى تراب الطريق وعادت قشره الأرض مبلوله بدرجة لو أن واحداً يمشي عليه بسرعة ممكن أن يتزحلق ويقع.. فكان أبي يمسك بلجام ركوبته حتى تمشي في ثبات ولا تهرول.. وكان عبد العظيم يهدئ من خطو حمارته حتى لا تتزحلق أقدام الحماره فيقع من عليها.. وكاد عبد العظيم يتزحلق فخلع حذاءه.. (كتانله)، وهي عبارة عن شبشب من الجلد مقفول عند صوابع القدم مفتوح من الخلف.. خلع الكتانله وامسكها بيده

وأحياناً كان يضعها تحت إبطه حتى يتمكّن من المشي فوق زحاليق الطريق.. وكان الطريق مملوءً بالكلاب، في كل دار على الطريق كلب أو كلبين و هي كلاب حراسة (بلدي) تنشط بالليل في الهبهبه والعويل لتثبت لاصحابها انها جديره بعملها.. كلاب حراسة بلدي معظمها جربان هلكان أو منتوفة الشعر لو رآها فايز فرخة أو مطر سليم لأقاموا لها المشنقة..

كنت أخاف على ولدي فاحتضنته بقوه.. مَّره ينام هنيهات ومَّره يصرخ ومَّره يريد أن يتدلى من فوق الحماره.. وعند دار قطب شاويش وهي آخر دار في ملك شنشور كانت المفاجأة التي بكيت لها.. كان قطب شاويش يقف أمام بيته وهي زريبه البهائم.. كان هذا الرجل صالحاً وكان له أخ يصغره إسمه شافعي يعملان في الحقل طيلة النهار وبعد المغرب يتعشيان ولمَّا تؤذن صلاة العشاء يقومان سوياً للصلاة بعدها ينامان حتى آذان الفجر.. كان قطب شاهين يتثاءب أمام داره.. كان قد أخذ قسطاً من النوم ثم قام ليشرب من طلمبة أقامها بجوار الزريبه.. لم يكن قد شرب بعد.. كان يعرف أبي.. وجد أبي أمامه فجأة فانفلج الرجل وجرى نحو أبي وهو يقول:

– أبويا أحمد أبويا أحمد.. إيه جابك الساعة دي..

وأمسك بلجام الحماره.. إبتسم أبي وقال له :

– مافيش حاجة إزَّيك يا حاج قطب..

إنفلج الرجل ثانيه لَّما رآني خلف أبي وأمامي ولدي فقال :

– ياهوتي يابه أحمد فيه إيه.. هَّي شنشور ما فيهاش بيوت..

– لأ إزَّاي إنت بكل شنشور..

– يابه أحمد مافيش صِّريخ إبن يوم يمشي في الليل دا دلوقتي..

– خلاص قَرَّبنا نوصل..

– فيه إيه يابه أحمد..

– أبداً أمها عيانه شويه واخدها علشان تشوفها..

– ودلوقت.. دلوقت يابه أحمد..

– معلهش ياحاج قطب سيبنا نمشي..

– طب أقعدوا عندي للصبح..

– معلهش البلد قَرَّبت..

– أبا أحمد أدَّام الطريق مقطوع هاتعدوا إزَّاي.. دا الراجل مايعرفش يعِّدي..

– مقطوع إزَّاي..

– بعد الترعة الجاية واحد بيروي.. بعد عزبة سعدعمر على طول..

– خلاص نترل ونعِّدي الحمير ونعِّدي وبعدين نركب تاني..

– إستَّنى لَّما أجيب الفاس..

وحمل قطب شاهين الفأس وتَقدَّمنا.. كان يريد أن يردم لنا القطع بفأسه حتى نعِّدي بسلام دون أن نقع.. كان الرجل معروف عنه في سكة رحيله بالطيبه والفطره والتديُّن.. مشى الراجل أمامنا وراح يرِّدد بصوت نسمعه جيداً.. :

– والله لّما أشوفك ياحاج حداد.. أكيد دا تدبير ولاد خاله.. آه من الكره.. هايتُّه الكره في البلاد لغايه فين.. حسبي الله ونعم الوكيل يالّلي كنت السبب.. أساس الكره في أبو عافيه من أبو شاطيه وآدي الدراوشه طالعين في الكار جديد.. بس دول فاجرين أوي في كرههم..

أخذ الرجل يقول ويعيد ويحسبن وهو يمشي أمام الركب الصغير حتى وصل إلى قنطرة ضيقة فوق ترعة صغيرة متفرعة من ترعة أكبر تسّمى ترعة أبو سليمان والمتفرعة من الترعة الأكبر الأم وهي ترعة شنشور..

وكنا قد إجتزنا عزبة سعد عمر على يسارنا، مشت الحمارتين خطوات قليلة حتى قال الشيخ قطب :

– هَّو دا القطع يا إما أردم أو نجيب طبليه خشب يمكن نلاقيها في الدار دي وأشار بيده ناحية اليسار.. دقيقة يابا أحمد..

وهرول الرجل إلى الدار.. دار السيدة فايقة الأرمله والتي تربيِّ ولديها محمد وحسين بعد موت زوجها منذ خمس سنين.. وكانت هذه السيدة تحرث وتروي وتحصد الأرض بيديها وقدميها.. وهذه أول دار في قرية قلتي الكبرى وهي قرية تتبع مركز الباجور.. تركنا قطب شاويش وراح هذه الدار ليسأل عن قنطرة خشبية نعّدي فوقها لأن هذا القطع في السكة ليس قطع فقط ولكن قطع تحته مروى أي تمر منه الماء لتروي أرضاً أخرى في الناحية المقابلة والتي تنتهي مساحتها عند شاطئ البحر الفرعوني.. إختفى الرجل عن ناظرينا خلف كوشه من البوص وسمعناه ينده بصوت عال :

– ياحاجه فايقه.. ياحاجه أنا الحاج قطب.. عندك قنطرة خشب .. نادى عدة مرات وسمعنا صوت إمرأة مكتوم يقول إستنى ياعم قطب.. أيوه ياعم قطب..

مِّرت دقائق فيها قعد عبد العظيم الحر مقابل القطع وراح يسمعنا القرآن بصوته ويقول بصوت دخل قلبي يابني :

أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها.. من القرآن الكريم من سورة النازعات.. وما قبلها وما بعدها مَقّلداً فيها الشيخ / محمود على البنا..

ومَّرت دقائق أخرى فيها جاءنا قطب شاويش يحمل قاعدة خشبية بين يديه وخلفه سيدة ترتدي جلباباً أسوداً وأول أن رأتنا ضربت يديها على صدرها وقالت :

– يالهوي أبويا أحمد..

وانهمك قطب شاويش في حبك المعدية الخشبية فوق القطع.

إستدار أبي نحوها قائلاً :

– إنت مين..

– مش عارفني يابه أحمد..

– لأ.. إنت من قلتي..

– أنا من ولاد أبو كيله.. وجوزي من ولاد سلام..

– أختي هانم متجوزه عبد الحميد عبدالعال..

– أيوه يابه أحمد.. أهو عبد الحميد عبد العال ده خال جوزي لزم..

– ياهار أبيض دا رِّبنا بعت لنا كل الحبايب على الطريق..

– طب تعالوا شوية يابه أحمد.. باتوا عندنا للصبح دا حنا قرايب..

– رِّبنا يبارك لك يابنتي كتَّر خيرك.. قنطرتك عملت الواجب وزياده..

– إحنا النهاردة شفنا النبي..

وقلت لها – رِّبنا يبارك لك في ولادك..

– رِّبنا يخلّيلك ياست حميده..

– وعارفاني كمان..

– طبعاً شنشور وقلتي وتلوانه بلد واحدة شوف النصيب أنا من تلوانه وجوزي من شنشور وانت من قلتي شوف الحب لّما رِّبنا بيجمَّعه مَّره واحدة..

وعَّدى أبي في سلام من فوق القنطرة الخشبية وعَّديت بعده بواسطة عبدالعظيم الذي سحب حبل الحمار في رفق وودعت الست فايقه وتواعدنا على الزيارة وظل عمي قطب شاويش يمشي خلفنا ويدعو لنا حتى وصلنا إلى الطريق الرئيس الذي يربط بين قلتي وتلوانه وتسير عليه العربات والأتوبيسات الكافوري..

وبدأت السماء تندِّع (يعني المطر يترل قطره قطره) كنافي أول الطريق الرئيسي مقابل آخر بيوت مبنيه في قلتي وبعد أمتار قليلة

كانت دور قليتي على يميننا وتكعيبةَ غيط عنب على شمالنا حتى وصلنا إلى الكوبرى الكبير الذي يقع في عرض البحر الفرعوني والذي في نهايته طريق على اليمين يؤدي إلى بلدة كفر الخضرة وعلى الشمال الطريق الذي يؤدي إلى تلوانه.. بدأ المطر يهطل فخلع أبي عباءته من فوق كتفه واقترب مني ،القى بها فوق جسدي فعدلتها على كتفي وغطيت الطفل.. وكنا قد إقتربنا من سور يقع على البحر وهي مساحة أرض بها كثير من أكوام الرمل والحديد والزلط والأسمنت.. كنت أعرف يابني أن عمي المستشار عبد القادر فوده وزوجه السيدة / جليلة عبدالله المديرة بالتعليم سوف يقيمان قيلا هنا.. ألقى أبي نظره على السور وما بداخله بعد أن توقف ، قليلاً عند السور.. وعند كوبرى أولاد الشاطر سار أبي خلفنا وكان يهز رأسه ويتمتم بكلمات كأنه يكلّم نفسه.. هدأ المطر قليلاً وما زال الطريق قابلاً للسير فوقه بالحمير دون أن تتزحلق وعند عملية المياه لقرية تلوانه كان الموتور يبعث صوتاً يشعرنا بالدفء كأننا مقبلين على دخول فرن القاعة.. كنا نقترب من بيت أبي.. هذا هو بيت الشاعر رمضان بعده ترعة صغيرة متفرعة من ترعة هيت الكبيرة.. وعند باب البيت الخارجي كان يقف الكلب لكي يهزُّ لنا ذيله.. ضحك أبي وقال :

– إنه لا ينام حتى أنام أنا أولاً..

– كلب وفي وأمين يابه..

وأدخل عبد العظيم الحمير إلى الزريبه الخارجية للبيت.. كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل.. طرق أبي الباب الداخلي ففتحت

له عديله الغوله التي تعمل عندنا فهي دائماً تنام خلف الباب.. قال لها أبي :

– طلّعي لعبد العظيم الأكل.. هاتلاقيه في الزريبه نايم على الفرن.. أكيد هاتلاقيه نام من التعب..

– حاضر يابه..

كانت القاعة التي تنام فيها أمي شديدة الدفء وكانت تنام معها أختي عزيزة حتى يصل أبي لتذهب إلى الغرفة المقابلة لتنام في فراشها.. كانت أمي تغط في النوم أيقظتها أختي عزيزة.. ولّما قامت أمي من نومها وبدأت تفيق دخل أبي وقال:

– أنا تعبان هاطلع أنام في المقعد..

– حصل إيه يا أحمد..

– حميدة تحكيلك وأنا هاحكيلك الصبح..

.. ثقلت رأس حسن وبدأ النوم يغلبه من طول الحكاية وقوة تأثيرها عليه.. لكنه قاوم وقال والصبح حصل إيه.. فقلت له نام يا حبيبي.. بكره نكمّل..

"حداد يبكي"

.. كان أكبر الناس تأثُراً من تلك الليلة الحزينة هو قطب شاويش وأخوه الشافعي الذي سمع الحكاية من أخيه بعد صلاة الفجر.. وكان من عادة الشقيقان بعد صلاة كل فجر يقعدان في المصلّيه يتكلمان عن الزرع والقلع وأمور الدنيا حتى يبذع نور الصباح فيقوما إلى عملهما ولكن صباح هذه الليلة المحزنة قال قطب لأخيه :

– هَّو فيه حد في الدنيا يسيب إبن زي ده ويكرشه هَّو وأمه..

– أعمال السحر تعمل أكتر من كده..

– الساحرة خالته معقولة الناس كلها بتقول كده..

– السحر حاجة وتصرفات صاحب المصلحة حاجة تانيه..

– الراجل نفسه مسحور له ولبيبه بتسقيه منه..

– يعني لَّما رِّبنا يديله عيال بعد السنين دي كلها مش يحمد رِّبنا ويبقه على اللي كان السبب..

– الدراوشه شغالين جامد.. دا غير غنيمه مرات عوني ولسانها الزفر..

– مش المفروض تروح ياقطب وتقول لناس كبار على اللّي شفته إمبارح..

– المفروض بس أروح لمين..

– روح لكبير القطان.. روح لعبد العزيز الصاوي..

– هاروح له على الضهر يمكن ينصحه..

– المهم موضوع زي ده ماينسكتش عليه..

– إحنا في الآخر بنحب حداد..

.. وعند الظهيره صلّى قطب مع شقيقه الشافعي في المصليه بعدها ركب قطب حمارته وذهب إلى عبد العزيز الصاوي في غيطه وحكى له الحال المايل الذي شاهده امس فراح عبد العزيز الصاوي في حزن يضرب كفاً بالأخرى ويقول :

– العيله دي فيها ناس بتكره من زمان.. والله اللّي بيكره فيها أكتر من اللّي بيحب.

– والحل إيه يا حاج الراجل ده عايز راجل كبير ينصحه..

– أنا رايح الدكان الليله هاكلّمة..

– لأ يا حاج مش تكلّمه بس.. لم ناس كبيره من هنا وهنا واعملوا قعده ليه..

– الموضوع مش بالسهولة دي .. شوية شوية أنا مش ناقص مشاكل مع الناس في العيلة دي.. العيلة دي فيها ديابه كتير..

– وفيها ناس كويسين برضه ياحاج..

– أنا ماقلتش حاجة.. بس العيلة دي على ما تتصفى ويبقه فيها شوية حب باقي لهم كتير.. على العموم فرع الحاج على ده غير باقي العيله.. خلاص ياقطب أنا مش هاسكت..

وانصرف قطب إلى غيطه وهو مرتاح نفسياً وحكى لأخيه الشافعي ما وصل إليه مع عبد العزيز الصاوي..

كان هذا الصباح في دار الحاج حداد كالخراب.. خلت الدار من أم العيال وخلت من حسن الطفل القمر.. خلت الدار من خض القربة وعمل الجبن والفطير.. خلت الدار من بنت فوده التي رفضت أن تعطي لزوجها كما تعطي لبيبه كرامةً لها كإمرأة وبنت ناس.. لكن صباح الخميس إمتلأت الدار بعصبة الخميس لدرجة أن الجمع الحاشد أخذوا يصفقون ويغنون وقامت أم الرزق ترقص حتى تعبت ونامت على الأرض.. نجيب وزوجه سيده، أم الرزق الورك وزوجها عبد الرازق الورك، عبده وزوجته تفيده بنت عميره، فهيمه مرزوق أخت خليل مرزوق وهي زوجة محمد درويش تزوجها بعد وفاة أم اولاده.. غنيمة الشردوحة بنت أبو راكيه.. مالذ وطاب من طعام البيت وضعته لبيبه على الطبلية الكبيرة بعدها شربوا الشاي ثلاثة أدوار كعادة أهل البلدة ومعهم الحاج حداد والذي كان تائهاً ولا يدري بشئ حوله وسعاد إبنة حميدة التي لا تعرف أمها تجلس في حجر أمها لبيبه شويه وتقعد أمامها شويه.. إنها ملتصقه بأمها لبيبه فهي التي تنام معها في سريرها وتحكي لها في الليل حكايات القسوة والكراهية.. غير أن أم إبراهيم شرفه (من عائلة شرف) جلست بلا عمل حزينة أمام باب المندرة تراقب القوم وتبكي مداريه دموعها حتى لا يهينها أحد.. تبكي سيدة البيت حميدة التي تعاملها معاملة البني آدمين والتي تكرمها في طعامها وفيما تآخذه إلى أبنائها كل ليلة.. كانت أم إبراهيم تحب حميدة وحسن حباً خالصاً نابعاً من قلبها.. وكانت تدخل وسط الدار الجواني عندما تجهش في البكاء

وتفتح باب الخزنة (غرفة نوم حسن وأمه) فتجدها ضلمه فتنادى في صوت خفيض :

– إنت فين ياحسن. تعالى ياحسن.. تعالى ياست حميدة.. والله لوماجيتو لأمشي ولا قاعدة في الدار دي.. ياخرابي من بعدكم..

وكانت أم ابراهيم كل ليلة تحكي لابنائها ما تجده وتراه من الحِوشَ قرايب الحاج حداد.. وكانت تسميهم.. الناس إللّي قلبها إسود.. غجر عيلة أبو عافية ولمامة فرع أبو راكيه.. كانت تفك نفسها مع أبنائها عندما تعود إلى بيتها وتقول في كل ليلة عندما تحكي عن الحِوش والله لولا الست حميده جت ماكنت أقعد يوم واحد في البيت ده..

ولما إنصرفت الشلة في يوم الخميس هذا سحب حداد حمارته وركبها متوجها الى الغيط وهو مازال شارداً حزيناً لا يدرى ما الذي فعله وهل هذا صحيح أم خطأ.. إنه لا يعرف شيئاً وأنه في حاجة إلى النوم لكي يدفن حيرته وتيهه.. وكان كل همه عند ما وصل إلى غيطه أن لا يراه أخيه محمود وتمنى ألا يكون الحاج حسين ودردير قد أبلغاه بشئ.. ونادى رجب قائلاً بصوت مبحوح :

– إفرش لي في قوضه التبن عايز أنام..

– حاضر يابه الحاج..

– حد سأل علىَّ..

– لأ ما فيش.. قدريه جت ولما مالقتكش مشيت..

– روح هاتها أنا عايز حد يصب على جسمي يطلع البلا اللي فيه..

– تقصد يكُب ياحاج..

– أيوه..

– أنا باعرف..

– روح جتك الغم أنا عايز قدريه..

غرفة التبن في أحد أركانها كومه من التبن لعلف البهائم وفي الركن الآخر تم فرش طبقه من التبن في الأرضية وعندما ينام الحاج يتم فرش حرام قديم فوق طبقه التبن (حرام هذا مثل البطانية هذه الأيام ولكنه مجدول من الصوف) وثلاث مخدات حشيت من قش الأرز.. وحرام آخر ليتغطى به وقت البرد.. وفي الركن الثالث لغرفة التبن نصبت مصطبه عليها زلعة مملوءه بماء الطلمبه وكوز وأدوات الكب وهي عبارة عن جركن به جاز وثلاث كيزان من الطين الناشف نبتت في أعلا كل منها قولحه ذره.. إعتاد أهل الريف منذ الزمن القديم أن يتم سحب أو مص البرد أو وجع الجسم بهذه الكيزان وكان في القرية نساء مشهورات بهذا الكب مثل ست أبوها.. وأم الرزق شخيخه وغيرهن.. يتم تغميس القولحة بالجاز ثم تشعل بعود كبريت فتصهد النار بقوة فتضعها الكابه على ظهر الرجل وبسرعة تضع فوقها كوز من الفخار وتضغط عليه بقوة فيلزق الكوز بجلد الظهر ويتم تفريغ الهواء فتنطفي النار في لحظات وتظل الكابه تضغط على الكوز لمدة دقائق ثم تنزعه الكابه بصعوبة من فوق ظهر الرجل فيحدث صوتاً إياً إياً مثل صوت تزيئ الباب..

وتعدد الكابه أماكن الكب على ظهر الرجل حتى لا يعد هناك موضعاً على ظهره دون كب.. وبهذه العملية يتم سحب البرد والرطوبة من ظهر الرجل..

.. جاءته قدريه فرحه إنها تسأل عليه دائماً لتفعل له ما يريده منها.. إنه ينقدها قرشاً بعد كل كبه غير أنه يعطيها ما يكفيها بصفة منتظمة ما تحتاجه من قمح وذره وغيرها من منتجات الغيط.. قدريه في عمر الحاج أوائل العقد الخامس من عمرها.. زوجة لرجل فقير مات عنها زوجها منذ سنوات وكل يوم تأتي إلى الغيط للإهتمام بزراعة ثلاثة قراريط تركها لها زوجها زرعتهم فجل وجرجير وملوخية وسبانخ وكافة أنواع الخضار.. تأتي كل يوم للعناية بحقلها الصغير وتجلس وأحياناً تنام في عشة من الحطب جدلتها هي وإبنها كردي.. وهي سيدة بيضاء حلوه لها جسد إمرأه مثير رغم فقرها زد على ذلك أنها تعرف مقدار أنوثتها وتعرف كيف توجهها وتحركها نحو رجال الغيط الموسرين حتى تقضي حاجتها وتعيش دون فقر شديد.. إبنها كردي يعمل شريك (نفر) بالأجره السنوية عند واحد من أصحاب الأرض.. ولا يساعدها في شئ فهو متزوج وعنده عيال ودخله على أده.. وأمه قدرية كفيلة بتدبير رزقها من زراعة غيطها الصغير ومن قضاء حاجات أصحاب الأرض حولها..

.. في دلال نساء الفلاحين دخلت عليه منشرحه.. وجدته نائماً.. كان مدلوشاً فجلست عند رأسه ووضعت يدها فوق دماغه كأنها تقيس حرارته.. تيقظ قليلاً وأحس بها فقال في صوت خفيض:

– قدرية أنا تعبان..

– وأنا باعمل إيه.. اللي تعبان منه أريحك منه..

– يا مره (يا إمرأه)..

– قول عايز إيه..

– ضهري واجعني..

– أدلكه..

– لأ كُبِّي.. جهزي الكب..

– حاضر.. أقفل الباب..

– أقفليه..

***

خرجت قدرية من غرفة التبن بعد ساعات من دخولها وتركته يغطُّ في نوم عميق.. ظل حتى بعد العصر نائماً ولّما خرج سأل رجب :

– حد سأل..

– أبويا محمود..

– عايز ايه..

– عايزك..

– ليه بتقوله أنا هنا..

– إنت ماقلتليش أنكرك..

– طيب أنا نازل أبص في الغيط..

– ولّما يسأل..

– قولُه أنا على المحّده الشرقية..

كلما دخل أو خرج أو راح أو عاد زفته الكلاب بصوت فرح (إيب إيب) وهزت ذيلها وسمع محمود زفة الكلاب فأيقن أن حداد وصل فترك ما في يده وذهب إلى داره فأخبره الشريك (النفر) بأنه دخل الغيط وقد تجده في المحده الشرقية.. مشي محمود في الفحل (القناة المائية التي يمرُّ فيها الماء ويحّول الفلاحون منها إلى شرائح الغيط حتى تروي المياه كل الغيط) وصل اليه والقى عليه السلام وجلس بجواره على المحده الشرقية (وهي الحد العال من الأرض (رتش الغيط) الذي يفصل بين الغيط وغيطان أخرى تقع جهة الشرق).. كان حداد يفرك بأصابعه كرات الرتش ثم يرمى بها أمامه) فقال محمود :

– بطل اللّي في ايدك واسمعني..

– سامعك (ورمى ما في يده)..

– عملت إيه إمبارح..

– زي أي يوم..

– دردير كان فين إمبارح..

– عندي..

– بيعمل إيه..

– هات من الآخر يا محمود.. عملت اللّي قالّك دردير عليه..

– ليه دا يرضى رِّبنا..

– لأ رِّبنا عايز كده..

– لأ.. الدراوشه اللّي عايزين كده..

– الدراوشه مش غُرب عني دول أهلي..

– لو أهلك صحيح ما يعملوش كده.. دي عمايل الأعداء..

– دول ولاد خالي..

– خالك محمد درويش راجل طيب ولو ماكانش طيب ماكانش أبويا الحاج على جّوزك بنته.. بس ولاده طلعوا شياطين..

– هّو حد يتخلّى عن أهله..

– أهلك أنا ودردير..

– طيّب مش إنت أهلي عايز إيه..

– عايزين حسن وأمه يرجعو بيتهم..

– المره دي دماغها ناشفه ومغلباني..

– حتى.. طالما ماعملتش حاجة وحشه ترجع..

– دا أمر..

– أنا أخوك الكبير واعتبره قطيعه بيني وبينك لآخر العمر..

– كده يا محمود..

وراح حداد يبكي.. تركه محمود يبكي.. يبكي بحُرقه وشعر محمود بأنه في حيره وأنه تائه وأنه مثل الذين يشربون السحر.. ولما

إنتهى حداد أعطاه محمود قماشه كانت في سيالته لينشف دموعه وبربوره..

وأمسك محمود بكف يد حداد وربت على ذراعه وقال في حنو:

– إرجع لعقلك وصحّح غلطك.. تعرف لو أنا مكانك أعمل إيه..

– إيه..

– أعمل العكس..

– إزّاي..

– أكرش لبيبه وأكوش على ولادي سعاد وحسن..

– بس دا إفترى..

ضحك محمود وكأنه وصل الى شئ مهم معه وقال :

– نهون الأهون أكرش حميدة ولاّ لبيبه.. تعرف تقوللّي الإفتراء عندك يعني إيه..

– أنا بحب لبيبه..

– وحب حميده علشان جابت لك الأولاد ولسه هاتجيب.. دي ست بنت ناس إنت هاتفضحنا في تلوانه.. الحق وصلحّ الغلط وضم ولادك وأم ولادك في حضنك..

– ولبيبه..

– حُطّها على رأسك ولف بيها البلد وخلّيها وخلّي حميده.. الإثنين مع بعض واللي تزهق من نفسها تمشي بس خليك في كل الأحوال راعي بيتك كله زبالاش الإفتراء مش إحنا اللّي نفتري..

– يعني عايزين أعمل إيه دلوقتي..

– زي ما قلت لك.. أصل لو أنا موجود ماكانش دا يحصل أبداً..

– ما هو حسين ودردير كانو موجودين..

– حسين تابع لخاله ودردير سبعة أردب ثمانية أردب..

– طيّب سيبني أفكّر..

– نهارك إسود لسه ها تفكّر.. إنت خايف..

– خايف من مين..

– من لبيبه وولاد خالك.. هوَّ فيه حد يخاف من دول.. دول مايخوفوش فرخه.. هَّم شاطرين عليك بس لأنك وِطيت لهم من زمان وعلى فكره كل الناس بتقول عليك إنك راجل خايب..

– من وقتيه الناس بتقول كده..

– من قبل ما تجيب حميده لأنك سايبهم واكلين بطنك..

– والخيبه دلوقتي بقت خيبتين مش كده..

– الخيبه دلوقتي بقت خيبة وهبل.. لأنك تايه ومش شايف مصلحتك..

– طيّب مين هايروح معايا..

– أنا.. أنا ياحداد..

– الدراوشه هاتكرهك أكتر..

– في داهيه..

– أنا خايف من أبو حميده يقول لي كلمه كده ولاّ كده..

– شوف بقه دا إحساسك لأنك عملت عمله ماحّدش عملها وفي الليل والدنيا ضلمه ومطره.. تعتبر هنت أم ولادك وأبوها إهانه جامدة.. وعلى العموم.. وسكت..

– سكت ليه يامحمود..

– على العموم دول ناس مؤدبين من زمان.. دي عيلة فوده والجرف في تلوانه من أحسن عائلات مركز الباجور كله.. ياراجل أنا عارف الناس دي من قبل حميده.. دا أقدم مستشارين وقضاه مصر من الناس دي..

– ياه يعني أنا مش داري..

– الدراوشه جنبهم خدّامين يا حداد..

– برضه هاتعيب في إخوالي..

– خالك محمد درويش كان راجل طيب.. بس خلّف أبالسه.. إفصل ده عن ده..

– طيب لّما أنا قرايبي كده جّوزني أحمد فوده بنته ليه..

– علشان أبوك الحاج على أبو عافيه..

– مش عارف أجيبك منين يا محمود..

– ماتجبنيش.. جيب حسن وأمه..

– خلاص يا محمود..

– بكره..

وراح حداد يبكي مَّرة أخرى.. كان في المرَّه الأولى حين بكى كان بكاء الحيره والتيه ولكن هذه المّره بكاءاً كاليقظة.. كأن محمود أضاء له شمعة في طريقه وأيقظه..

***

"في بيت فوده"

ركب محمود ركوبته وركب حداد ركوبته واتخذا طريق رحيله وقلق للوصول الى تلوانه وهو الطريق الوحيد حتى الآن "غير أن هناك آخرين يتخذون طريق البحر فيذهبون الى هناك في المركب" وكانت غيطان حداد ودردير ومحمود في الحد الفاصل بين قرية هيت وتلوانه، فإذا عَّداك المراكبي بقاربه في الناحية الأخرى فإنه عليك عندما تصعد المترل إلى الطريق العام تكسر ناحية اليمين لتذهب إلى تلوانه وإذا كسرت ناحية اليسار فإنك تذهب إلى هيت.. لم يكن لنا صلة بقرية هيت إلاَّ أن زوجة خالي عبد الحميد السيده حميده من عائلة واصل.. وجماعه واصل في هيت في الزمن القديم كان أغلبها من الأشقياء إلاَّ أنه قبل عام ١٩٥٢ بسنوات دخل أحد أبناء واصل الكلية الحربية وهو ابن خال مرات خالي وكانت واسطته الملك فاروق.. لكن كيف لشاب من عامة الشعب أن يكون واسطته الملك.. كان خال مرات خالي يعمل السائق الخاص لقطار الملك فاروق أينما ذهب بالقطار بعد ذلك أصبح هذا الشاب قائداً لأحد الجيوش التي عدَّت إلى سيناء لتحريرها في عام ١٩٧٣ وأبلى بلاءاً احسناً.. ومن هذه العائلة خرج أحد علماء الدين ناهيك من كل هذا.. وصلت الركوبتان ومن عليها إلى دار أحمد فوده.. نادي حداد بصوته الجهوري الأخنف :

– يابه أحمد.. يابه أحمد..

رفع حسن رأسه وكان على حجر آمه التي تجلس على دكه قرب باب الوسط بجوار طلمبه مياه البيت.. هرولت حميده وهي

تحمل ولدها إلى الباب الداخلي.. حيث والدها التي تتناول طعام العشاء ومعها عزيزه وعديله الغوله..

قالت وهي تتهدَّج الأنفاس :

– أمي.. أمي حداد..

– حداد..

– أيوه يامه حداد وصوته..

– فين..

– بيخَّبط بَّره على الباب..

– روحي يا عديله عبد العظيم في الزريبه هاتيه يفتح..ولا إفتحي إنت ودخَّليهم.. هرولت عديله وفتحت لهما وقالت وهي تنقلب إلى أبوها أحمد في المندرة الخارجية.

– آبه أحمد آبه.. حداد ومعاه واحد بيربطو الحمير جنب الباب..

كان الرجل يصلّى.. إنتهى من صلاته في دقيقة لأنه كان يقرأ التحيات وقال :

– هاتيهم.. خلّيهم يتفضلو..

خرجت اليهم عديله وتقدمتهم.. قائله.. إتفضلو عدة مرات حتى دخلا على صاحب الدار..

ردَّ عليهم السلام وصافحهم بحراره وجلس كل منهم على كنبه وجلس الرجل قبالتهم مرحباً :

– أهلاً وسهلاً.. إزيك يا حداد.. مش محمود برضه إزيك يا سيدي إنت منَّور تلوانه.

ورد محمود في غبطه :

– عرفتني يابه أحمد..

– طبقاً عارفك واسمع عليك إنك راجل شاطر في زرعك.

– كمان.. وأنا أعرف كده عنك..

– أهلاً وسهلاً.. تشربو إيه شاي قهوة قرفه.. ولاَّ نجيب عشا الأول..

ويرد حداد :

– لأ والله إتعشينا.. نشرب شاي..

صفَّق الرجل بكفي يديه عدة مرات فجاءه عبد العظيم الحر من داخل الجنينة التي تقع خلف المندره.. إنحني عبد العظيم قليلاً وقال :

– أأمر يابه أحمد..

– خليهم يعملو شاي.. وهات عنب من الجنينه..

– حاضر..

أدخلت عديله الغوله الشاي وضعته على منضده صغيرة قرب الضيفان وانصرفت.. هي أرمله في الأربعين من العمر لها ولد يعمل في مصر.. مات عنها زوجها منذ ربع قرن.. كان زوجها فقيرا وهي قريبة الحاج أحمد من بعيد.. فجاء بها وولدها في بيته.. لمَّا كبر ولدها سافر إلى مصر واستقر هناك في حي روض الفرج وترك أمه

تعمل في بيت أحمد فوده وهي دائماً تنادى من كفلها.. ياخال.. يا خال أحمد.. وجاء عبد العظيم الحر بالعنب بعد أن غسله من مياه الطلمبه وقدَّمه في أدب أمام الضيفان وكان أحمد فوده له روح طيبه فكان حديثه مع الضيفان ودوداً ضاحكاً كأنه لم يحدث شئ من حداد وكانت بقية الحديث :

– إزيك يا حداد.. وازي لبيبه.. وسعاد..

– كويسين يابه أحمد..

– إحنا عايزينك دايماً كويس.. عامل إيه في الزراعه..

– كويس..

– لما تيجي تزرع بطاطس قوللّى هابعت واحد مَّيه مَّيه يزرعها لك..

– حاضر يابه أحمد..

ثم إنتقل الحاج أحمد إلى محادثه محمود.

– إنت شرفت يا حاج محمود ونوَّرت تلوانه..

– منَّوره بيك يابه أحمد..

وسادت فترة صمت فيها تناولا الضيفان حبَّات العنب.. ثم بادر محمود قائلاً لصاحب الدار :

– إحنا عارفين إن قلبك كبير وبدون الدخول في تفاصيل أنا با عتذر عن اللّي حصل..

– هوَّ حصل إيه .. مافيش حاجة..

– شوف يابه أحمد.. حداد غلط.. غلط أوي في حقك وحق إبنه وأمه..

– ياسيدي الدنيا فيها حاجات كتير.. أنا مسامحه..

– معقوله يابه أحمد..

– أوي أوي.. هي الفكرة لو كنا جينا الصبح كان أحسن.. حداد تعَّنت معانا أوي.. يعني تقول كده زي اللىِّ طردنا من بيته في عز الليل والضلمه والمطره ولولا قطب شاويش ماكناش هانعرف نعَّدي وكانت هاتبقه ليله أسود من جنب المركب..

– حَقَّك علىَّ يابه أحمد..

وتقدَّم محمود نحوه ليقبِّل رأسه فأمسك به صاحب الدار بقوه :

– لأ والله ابداً..

فزعق محمود في حداد قائلاً :

– تعال إنت..

فقام حداد إلى صاحب الدار وقبَّل رأسه بالعافيه بعد أن أمسك محمود بيدي صاحب الدار.. جلس حداد والدموع في عينيه ونظر إليه صاحب الدار قائلاً :

– المهم دا مايحصلش تاني وخلّى بالك من بيتك وولادك وخلّى بنتي آخر حاجة..

– لكن والله يا حاج محمود علشان خاطرك بنتي هاترجع معاكم بس على شرط ما تحصلش الإهانة ده مَّرة تانيه.. أنا باسمح بالغلط مَّره واحده لكن الغلط يتكررَّ مش هاقبل ده..

ورد عليه محمود :-

– دي عندي أنا.. هو بس حداد كان تايه عنده خالته الله يخفيها من على وش الدنيا شغاله في السحر..

فرَّد عليه صاحب الدار :

– خالته المفروض تحبه وتحب ولاده وتفرح إن ربِّنا رزقه بالعيال والله العظيم ياحاج محمود إحنا مدارين حسن إبنه عن أي حد يخش البيت خايفين عليه يتحسد.. الواد صلاة النبي رَبِّنا يبارك فيه لحداد..

– معلهش يابه أحمد.. سامحني ومش هاعمل كده تاني..

– شوف يا حداد الزعل له أصوله.. والواحد يكرُش مراته وولده بالليل.. إنت كرشتني أنا معاهم زي ما يكون مالناش دور ولا ناس ولا كرامه.. إنت مارعتش أي حاجة.. ماعرفش عملت دا إزَّاي.. إنت زي ما يكون نهرتني بس إنت ليلتها نزلت من عيني..

وتدخل محمود :

– كل اللي بتقوله يابه أحمد ليك حق فيه واحنا كلنا غلطانين ليك.. واسمح لي أقول ليلتها حداد ماكانش حداد.. حداد كان شربان من إيد خالته..

– والحل إيه هايشرب تاني..

– اسمع يا حداد لا تروح عند خالتك ولا خالتك تيجي بيتك.. تقدر..

– من غير كده يا محمود دا مش ها يحصل تاني..

وسكت صاحب الدار وكذلك محمود وحداد وكأنهما ينتظران قراره.. لكن الرجل قام واتجه ناحية باب المندرة وارتدى حذاءه ونزل درجات السلم الأرضي واتجه ناحية الباب الداخلي للبيت ودفعه بيده.. وجد زوجته شلبية وعزيزه وحميده وعديله الغوله ينقيان الأرز من الحصا.. لكنهن جميعاً تركن الأرز وتعلّقت وجوههن بوجهه فقال الرجل وهو ينظر في رفق إلى زوجته :

– معلهش يا شلبيه النوبا دي.. النوبا دي سماح..

خبطت شلبيه على صدرها بكلتا يديها وانتفضت قائله :

– سماح وطردة بنتي من البيت بالشكل ده وطردتك والولد اللىّ إتبهدل طول السكه هوَّ دا شويه خد حقك منه ربِّيه عرَّفه الأصول..

– يعني إيه يا شلبيه.. هامسكه أضربه يعني.. هو فيه حد يتربى بعد ما قرَّب على الخمسين.. العيب علينا إحنا من الأول إن جوزناها على ضرَّه..

– مش قلتلك ضرَّه لأ.. قلتلي دا راجل من أصل وعنده أرض والدنيا عند واسعه.. وهوَّ بياخد بنتنا بسبب الخلفه.. الدين بيقول في الظروف دي جوِّزوه..

– في الآخر الرأى رأيك يا أحمد.. بس دا ما يتكررّش تاني مع بنتي ويعرف يحافظ على بيته.. وعرّفه إذا حصل دا تاني هايبقه بلا رجعه..

– طيّب يا شلبيه كلامك صح وحقك تزعلى.. سيبينا المرّه دي نجرّب وعلى العموم أخوه محمود قال ما فيه الكفايه.. ومحمود شاهد عليه..

– خلاص يا احمد إللىّ تعمله..

– قومي يا حميده إلبسي ولّى هدومك..

– حاضر.. حاضر.. وانفجرت بالبكاء وهي تدخل إلى الغرفة التي كانت تنام فيها مع أختها عزيزه.. ودخلت خلفها عديله الغوله لتساعدها..

كان أحمد فوده شديد الطبع وقاس في تربيته لأبنائه والكل في عائلته وفي الناحية الغربية لتلوانه من عائلات الجرف وعماره وشبابيك وعلام يعرفون عنه ذلك ويعملون له ألف حساب.. ولكنه كان يحب الناس جميعاً ولكن على طريقته أن يكون من يتعامل معه جاداً محترماً صادقاً.. إنه رجل لا يعرف الهزار أو لا يحب أن يتعامل مع أي أمر من أمور البكش.. وكان صديقاً للمعلم سعد عميد النصارى في تلوانه.. يجلس معه ويتعامل معه في التقاوي وتجارة القطن والبطاطس ومن شطارته وقوة شخصيته أن المستشار عبد القادر فوده هو وزوجته السيدة جليلة عبدالله أعطوه مساحة خمسة أفدنه لزراعتها شركة بينهم وجنوا وراء هذه المشاركة مالاً كثيراً وذلك من شطارة وفلاحة أحمد فوده ابن عم المستشار حتى بلغت

المساحة التي يزرعها أكثر من عشرين فداناً منها ثمانية فدان يملكها وبقية المساحة من عبد القادر فوده ومحمد فوده والدكتور عز الدين فوده أستاذ الإقتصاد السياسي وسكرتير اللجنة المصرية للقانون الدولي..

الرجل قصير القامة.. جسده أبيض كالبفته.. أبيض بحمار.. يرتدى من الثياب أفخمها.. جلاليب صوف كل جلابيه مخصصة لمشاوير معينة.. فهذا جلباب وعباية للسفر إلى مصر، وهذا جلباب للسفر إلى منوف وهذا آخر للذهاب الى شنشور وآخر للذهاب إلى الدوار.. أما ذهابه إلى الحقل فكان له جلاليب خاصة من قماش أقل جوده لتتحمل تراب الغيط وعفاره.. كانت ركوبته تضاهي ركوبة إبن العمدة شكري عبدالله.. حماره في عود الفرسه.. بردعه حمراء لامعه لجام ركاب.. يمشي بركوبته في البلده وكأنه يمتطي فرساً عربياً من سلالة رفيعه.. وكانت أرضه موزَّعه في عدة نواحي.. الطريق المؤدى إلى البحر ناحية هيت جزء منها.. والطريق المؤدى إلى منوف بعد عزبة سعد عطية جزء منها.. والطريق المؤدى إلى الناحية الشرقية بتلوانه خلف مقابر البلده بقليل جزء منها.. وكان يرتدي فوق رأسه عمامه كبيرة لتحتوي رأسه الكبيرة وكان صاحب قوة فهو يستطيع أن يحمل رجل بيد واحدة وكان كف يده سميك وأصابعه عريضه فإذا صافحك تشعر أن مرزَّبة لمستك.. وجسده كله ملئ بالشعر الغزير.. وإذا سار بركوبته أو ماشياً في شوارع القرية دخلت النساء بيوتهُن خشية منه أو خجلاً منه مردِّين واحدة بعد الأخرى أمام كل دار.. خشىً خشىً أبوك أحمد فوده جاي.. وكانت الفتيات تمشي في طابور وهن يذهبن الى حنفية الماء

لملأ زلعهن أو حللهن وكنَّ يسْرن يحكون ويغنوُّن في الذهاب والعودة فإذا رأين الرجل قادماً من بعيد تدارت كل منهن خلف شجرة أو خلف سور بيت وسكتن عن الحكى والغناء حتى يمر.. وكان يحرس بيته في البلده ثلاثة كلاب هول من نوعيه كلاب الشرطة.. والذي جلب له هذه النوعية ابن عمه المستشار عبد القادر بعد أن إستقر في مصر وسكن في حي العباسية قريباً من كلية الشرطة "أما الكلاب في حقوله فهي من النوع البلدي العادي" كلاب لحراسة حظائر البهائم والأغنام من اللصوص وكان عددها في الحقل الذي يقع قرب هيت كثيره لأن هيت كانت مشهوره في ذلك الزمان باللصوص.. وفي هذا الزمان أيضاً كانت هيصه الكلاب في الليل من هبهبه ونباح وعويل حتى ممارسه الجنس بينهم كانت بالليل. كانت القرى جميعا في الليل لا تسمع غير صوت الكلاب ونشاطها أياً كان نوعه.. ولم يكن هناك واحداً في أي قرية إلاَّ وقدر بَّي كلبا أو كلبين أو ثلاثة.. كانت الذئاب والثعالب تملا الغيطان وتقترب من بيوت القرية في أي وقت لتلتقط الفراخ والأوز والأغنام.. وكان اللصوص ينتشرون في أي مكان يسرقون الحيوانات والذره والقمح من الأجران في الغيطان.. حتى أن واحداً من القرية كان فقيراً جداً لكنه كان يقتنى كلباً جامحاً.. وكان متزوج بإمرأة جميلة ومضت سنوات عليهما لم ينجبا فيها فبدأت المرأة تمقرعه بعدم قدرته على الخلف وكانت تهجره في الليل وتنام فوق السطح وذلك في ليال الصيف.. وفي ليلة أخذ الكلب يهبهب وينبح بشدة يطلع إلى السطح فيرى شيئاً عجيباً فيترل منادياً صاحبه الذي ينام فوق المصطبه خلف باب البيت.. إستيقظ صاحبه فوجد

الكلب يطلع إلى السطح ثم يترل إليه كأنه يناديه فلمَّا أراد أن يسكت الكلب طلع خلف الكلب فوق السطح فوجد زوجته مع جاره يمارسان الرزيله.. وبعد هذه الحكاية التي إنتشرت في انحاء القرية بدأت النساء تكره الكلاب خاصة في الشوارع والحارات الفقيرة التي تكتظ بسكانها الأجرية من عمال الزراعة والفلاحة.. وكانت حكايات السطوح كثيرة في هذه النواحي وكان عواء الكلاب ونباحها له معان كثيرة.. ولم تكن تستطيع أي قرية في هذا الزمان بشوارعها وحواريها ببيوتها الفقيرة أن تستغنى عن الكلاب لما لها من فوائد..

تحَّرك ركب عودة الست حميدة وولدها حسن من بيت أحمد فوده بتلوانه إلى شنشور.. وكالعاده سحب عبد العظيم الحر حبل حمارة السيدة وولدها فتقدمَّا الركب.. بعده أحمد فوده بركوبته ثم محمود وحداد متجاورين فإذا ضاق الطريق تأخَّر حداد وقدَّم محمود..

كان أول الكلاب الذي إعترض طريق القافله هو كلب الشاعر رمضان شبايك من أسوء الكلاب قرب بيت أحمد فوده لدرجة أنه كان يريد أن يقزح على ظهر كل حمارة من شراسته لكن عبد العظيم الحر قطَّعه لَّما رجع إليه بعصاته، بعد ذلك لم تقابل الحمير كلباً واحداً حتى كوبرى الصيادين (المعروف بكوبري أولاد الشاطر)، من بيت رمضان الشاعر وحتى الكوبرى كان هناك مجموعة من البيوت الطيبه المسالمة التي كانت كلابها مثلهم لدرجة أن كلاب هذه البيوت كانت تهزُّ زيلها للقافله.. هذا بيت الشيخ محمد عبد المقصود الرجل الذي يمشي حافياً في بعض مساحات

الطريق التي يشعر بأن فيها موتى تحت قدميه ثم يرتدي حذاءه في مسافات أخرى من الطريق وهكذا يحمل حذاءه تحت إبطيه حسب ما يمليه عليه الخاطر، وهذا بيت محمد العويني الذي كان يقف أمام بيته ويمسك برقبة كلبه الذي سكت عن الهبهبه خاصة عندما قال محمد العويني محيياً.. إزيَّك يا عبد العظيم يسعد مساك.. سلام عليكم يابه أحمد بالسلامة والأمان.. وكان يعرف رجل شنشور.. أهلاً وسهلاً بكل العوافي (جميع عائلة أبو عافية) ولّما مررنا على دار سيد الجحش لم نجد كلباً ولكن حماره كان مزعجاً فراح ينهّق وكأنه يرى عفريتاً طلع عليه من المسقاة التي تمر من أمام بيته وتحمل المياه للأراضي حتى مكنة محمد رضوان.. كانت دور ابراهيم عماره وعفيفي نصر ومحمود المنوفي ورشدي عماره ومحروس شبايك وغيرها دون كلاب على الطريق ويبدو أنها كانت في الداخل تغفو.. حيث أبلغ عبد العظيم القافله بعد أن إجتازوا كوبرى الشاطر.. أن هذه الكلاب تنام لأن أصحابها يكرمونها بالطعام.. جتهم قطيعة الكلاب كلهّا وملعون أصحابها اللىّ بيسيبوهم يقطعوا الطريق..

غير أن الطريق من كوبرى الشاطر مارًا بدار علام الصياد والمدرسة الإعدادي والوحده العلاجية بالبلده ثم السور الذي في داخله ستكون فيلا المستشار عبد القادر لم يكن به كلباً واحداً وكأن نهاية أرض تلوانه توحي إلينا بأن البلد ليست كلهّا كلاب.. الكلاب في الأطراف والكلاب الجائعة مثل أصحابها هي التي تقطع الطريق وبدون إطعام الكلاب فإن في داخل البلده بيوت كثيرة جداً بدون كلاب.. وعلى يمين الطريق بعد سور الفيلا كانت صفحة

مياه البحر قد إنكشفت وأن البحر يمتلئ بالكثير من مراكب الصيادين.. وكانت طبلة صيادي السمك فوق مراكبهم أجمل من صوت النباح.. لقد تعود الصيادون أن يضربوا بطبولهم في هذا الوقت حتى يخاف السمك ويندفع من وسط البحر وأعماقه إلى الشاطئ فيدخل في شباكهم (الجبى) التي نصبوها قرب الشاطئ، وفي الواحدة والنصف تسكت دربكة المراكب يكون بعدها قد دخلت أرزاق السمك (أرتال السمك) جبى الصيادين وقرب بذوع الشمس يقوم الصيادون مَّرة أخرى لانتشال السمك من شباكهم (الجبىْ) وهي أدوات مصنوعة من السلك الضيق تشبه البراميل ولها فتحة تدخل السمك ولا تخرجه ويوضع في هذه الجبىْ طعام من الدقيق ومواد أخرى مجبوسة كأنه عجين لا يسهل ذوبانه بسرعة حتى يغوى السمك برائحته النفاذه.. ففي هوجه السمك هذه يدخل السمك ولا يخرج.. وهكذا تفنَّن الصيادون في كيفية جلب الأرزاق..

كانت طبلة الصيادين أحلى صوت سمعته القافلة لدرجة أن الست حميدة قالت لطفلها حسن :

- سامع يا حسن.. شوف البحر والمراكب.. شوف الطبلة الحلوه..

إستيقظ حسن ولو أنه كان يتكلم لقال لأمه :

- هناك فرق يا أمي طبلة الصيادين في تلوانه وطبلة عثمان أبو عوف في شنشور..

أحست الست حميدة بذلك فارتاحت نفسها قليلاً وهمست كأنها تكلم حسن.. ياموزع أرزاق الصيادين في بلدنا وزِّع صبري

على أيامي.. يارب ما طلع الطلعة دي تاني.. ياشنشور يابلد ولادي إرحميني وارحمي ولادي.. ياشنشور كلك قساوة ليه أرضك بتطردني ليه.. ليه أهلك فيها دردير وحسين ليه ما يكون كل أهلك زي قطب شاويش ومحمود سلفى.. يارب.. وسالت الدموع من عينيها وكادت تنتحب واحتضنت حسن الذي إستيقظ وبدا عليه سروراً هكذا أحست أمه به فقالت:

– إنت فرحان علشان دخلنا على قلتي الناس الطيبين.. إنت عارف يا حسن إن قلتي فيها حته مننا.. فيها عمتي هانم أطيب ست في الدنيا اتجوزت عبد الحميد عبد العال أطيب راجل في قلتي.. تعرف يا حسن الراجل ده كل ما حد يسأله عن أي حاجة يقول إيه قبل ما يجاوب.. والله..

– إزَّيك ياعم عبد الحميد..

– والله كويس..

– زرعت القطن ياعم عبد الحميد..

– والله زرعت..

– إزي عمتي معاك ياعم عبد الحميد..

– والله عال..

ربما من فرط أملها في الله كلمت الأم إبنها حسن بصوت سمعه عبد العظيم الحر وكان الرجل يبتسم ويهز رأسه وكان يقول هامساً لنفسه :

– الله يفتح نفسك يابنت الناس.. الله ينصرك.. على أد عذاب السكك اللىّ إنت شفتيه يدّيك رّبنا..

إجتازت القافلة الكوبرى الكبير الذي يقع على البحر ويصل قلتى بتلوانه وبلاد أخرى.. دخلت الركايب أرض قلتي ولم تقابل القافلة كلباً واحداً.. حتى مَّرت القافله على آخر بيت في قلتي وهو بيت الأرمله فايقه التي قدَّمت لهم القنطرة في الليلة التي لا يعيدها الله.. ومَّرة أخرى إجتازت الحمير عزبة سعد عمر.. وكأن الله يريد أن يريح قلب قطب شاهين الذي أيقظه الله في تلك الساعة وقعد أمام بيته كالعادة فإذا به يجد نفس القافله فراح الرجل يطفق بالكثير :

– يا ألله.. نورت ياست الناس.. أهلاً ياعم أحمد يا أصيل ياريت في كل البلاد زيّك واحد..

آه يا حاج رّبنا يريح بالك.. خلىّ بالك من عيالك خد بالك من مراتك أم ولادك بالدنيا يا حداد..

الله يبارك لك ياحاج محمود.. الحمد الله.. إتفضلو إتفضلو.. والله هاتنوروا بلدنا.. الله الله أكبر..

ركب قطب شاهين حمارته وجرى إلى عبد العزيز الصاوي في غيطه والذي وجده جالساً عند الساقية ومعه بعض الأنفار أخبره بعودة حسن وأمه وأن الذي سعى فيها محمود أخوه.. إبتسم عبد العزيز وقال :

– رأيتهم بأم عيني وفرحت فرحاً ما بعده فرح بعودة الرجل إلى رشده.. وياريت ما يعملها تاني..

– رِّبنا يقطع الدراوشه..

– خالته هَّي سبب المصايب.. بيقولوا إن عبد الرازق الورك هَّو اللىِّ بيكتب السحر..

– هوَّ منين عبد الرازق ده..

– والله ماعرف..

– يعني إيه ورك..

– والله ما عرف..

– اسأل مين..

– إسأل أبو لبده زرقه باين عليه قريبه..

– رِّبنا يقطعها ويقطعه أهم زي بعض..

– دا عنده كلب قاطع الخارجه كلهِّا..

– أهو كلب مربِّى كلب..

– وبعدين في الكلاب دي..

– عمرها ما هتموت..

***

"أم حسن من جديد"

لم تنم لبيبة طيلة الليل.. إنها حزينة منذ علمها بأن محمود أخذ حداد وراحا يردَّان حميده.. لكن حزنها زاد أكثر لأن حداد لم يأت إلى غرفتها حتى الآن، إنه دائما حتى ولو كان تعباناً يأتي إلى غرفتي لينام على الكنبه أو إلى جواري في السرير بعد أن ينقل سعاد إلى الكنبه.. إنه حتى لم يكلّمني ولم يقل لي أي شئ كأنني غير موجوده.. هل إنقلب عليَّ هل غيَّر من أسلوب حياته.. خرجت من غرفتها حافيه.. واربت باب المندره فلم تر أحداً نائماً على أي كنبه.. سقط قلبها من صدرها.. فزعت هلعت.. فتحت باب الوسط.. إقتربت من باب الخزنة لتسمع أي شئ لم تسمع شيئاً. واربت باب الخزنة.. وجدت حسن وحده نائماً في سريره والكنبه خاليه.. يالهوتي يا حسرتي يا حرقه قلبك يا لبيبه.. إقتربت من باب القاعه سمعت همساً.. هل تطرق الباب لتقلق من بالداخل.. هي معه.. أخذها بدل أن يأخذني.. لماذا وأنا وهل تغيرت هي حتى تأخذه.. من الذي دعاه إلى ذلك.. هل ذهبت إليه في المندره وأخذته.. أم هو الذي ذهب إليها في الخزنة ليأخذها إلى القاعة.. وضعت رأسها فوق باب القاعة لتسمع.. باب القاعة مقفول بالترباس من الداخل.. تسمع صوتين يتهامسان يتعاتبان.. تضحك.. حميده تضحك ضحكة النسوان. فاضل لي إيه.. مابقاش ليه حاجة.. لاولاد ولا راجل كمان..

كان حسن في سريره قد شعر بدخول أبيه الغرفه وجلوسه بجوارها على الكنبه وسمع حديثهما :

– إزَّيك نوّرت دارك..

– إنت كويس..

– أيوه.. المهم ما تزعليش..

– هاستحمل كل حاجة علشان ولادي..

– أنا عايزك..

– أوي ياحداد..

– إنت نايمه..

– ولو نايمه.. أجيلك القاعة..

– الله يرضى عليك أيوه تعالى..

– عينيه يا حداد..

– إنت راضيه عني أوي..

– ومارضاش ليه وانت أبو ولادي.. أنا كليِّ تحت أمرك..

– ودا كان فين من زمان.. مين عدلك..

– الزمن.. هانسى الليِّ فات ولّى حصل في أول أسبوع اتجوزتك فيه..

– معلهش أنا غلطان..

– طيب روح بقه.. أنا جايه.. أحسن الولد هايصحى..

كانت هناك شعرة تصل قلب حسن بقلب أمه سواء تكلّمت أو صمتت وكانت أذن حسن تسمع شخير أمه عندما تذهب في النوم

وكان ينام نوماً عميقاً على صوت شخيرها، ورغم أن عمره لم يتجاوز سنتان إلاّ أنه بدأ يعى ويلاحظ بالفطرة.. سمع أبوه مع أمه وسعد لأنه عندما أيقظها وتكلّم معها لم ينتهي ذلك بغضب أو شتيمه كما كان من قبل ولأول مَّره سمع أمه تتكلم في طراوه ودلال مع أبيه غير أنه شعر بالغيره.. راح يحّدث نفسه.. تُرى أين ذهبت مع أبيه.. لماذا تتركه وحده.. لماذا لم يشتمها مثل كل مَّره (جتك نكد.. جتك الغم).. قلق حسن ولم ينم مَّرت عليه ساعة وهو يتقلّب في فراشه.. لا فائده لابد أن يقم ويخرج إنه يريد أمه.. كان السرير عاليا فكاد ينقلب على الأرض وهو يترل.. كأنه رجل كبير مشى حافياً حتى باب الخزنة (الغرفة) فتح الباب دون أن يحدث جلبه.. وارب الباب فقط ليرى باب القاعة مقفلاً ورأى أمه لبيبه تحتضن الباب برأسها.. ماذا بالداخل.. ولماذا تتسمَّر هكذا في الباب قطع الطفل إندهاشه وسكت عن تساؤلاته لأنه لا يستطيع أن يجيب عليها.. لكنه أيقن أن أمه مع أبيه في داخل القاعة.. لكن لماذا تقف لبيبه هكذا إنه لا يعى أكثر من ما يرى.. وفي عصبيه بأعلى صوته :

– إمبوه.. إمبوه..

فوجئت بندائه ففزعت وسقط قلبها من صدرها إبتعدت عن الباب خطوه وكانت تريد أن تقول بصوت عال.. ياهوي.. ياهوي.. وجدته واقفاً لا يحيد عن طلبه..

– أمه.. أمه.. أمه فين.. ميه.. مي..

لم تكن تستطيع أن تلبيِّ طلبه في هدوء إنها لو فعلت وخرج من في القاعة سوف يقولون ماذا تفعل هذه هنا وربما يعتقدون أنها هي

التي أيقظت الولد.. إنقلبت حافيه مسرعه.. إجتازت باب الوسط ودخلت غرفتها.. رفع حسن صوته.. واربت الباب.. إقترب صوته من أذنها وراح الولد يصرخ خبطت بابها ورزعت باب الوسط.. إنه أيقظها فجاءته تلبى نداءه.. بصوت عال :

– يا حبيب قلبي.. عطشان.. فين أمَّك..

دخلت الزريبه.. وقاعة الغموس.. مافيش حد.. حتى تُسمع من بالداخل..

أخذت كوباً زجاجياً من على منضده الطبيخ بالصاله وملأت الكوب من القلّه وجاءته مهلّله..

– يا حبيبي ياروح قلبي إشرب..

شرِب ولّما بلع الميه سعل وقال وهو يمسك بكتفها شيليني.. فين أمي..

ضحكت ضحكه النسوان.. فين أبويا.. مش عارفه يا حبيبي..

وراحت وهي تحمله وتمشى به في شكل دائري.. أمام الفرن وقاعة الغموس ودرج البيت حتى أنها إقتربت من الكنيف ومنه إلى باب الخزنة وتربتُ بيدها على ظهره في رفق.. وطفقت تغني :

– نام يا حسن نام.. هاجيبلك جوزين حمام..

تغنّى بصوت عال وتلف وسط الدار الداخليه وعندما تصل قرب باب القاعة تنظر إلى الباب شذراً وفي غيظ ولسان حالها يقول:

– إطلعى يا مفجوصه.. إطلعي بقه كل ده ومش سامعه إبنك..

حتى أنها دخلت الزريبه ووضعت حسن فوق ظهر الحماره وعلا صوتها بالغناء لدرجة أن عبد النبي هاده الرجل الذي تشتمه مراته فتوح كل يوم الصبح شويه وتصبحه بالوطه كان فوق السطح في هذه الساعة قال في نفسه وهو ينظر من فوق سطحه إلى شباك زريبه جاره :

– هَّو فيه ناس فايقه كده.. من كتر السم إللىِّ بتحشوه في بطونكم عمالين تغنُّوا..

سمعت لبيبه صوتا فأدركت أنه هو .. فخرجت من الزريبه تجنباً لعدم سماع هذا الجار النكدي خاصة وأنهم كل يوم يشبعون من كلامه وردحه هو وفتوح مع بعضهما فيقفلون شباك الزريبه لعدم سماع هذا القهر الصباحي.. ولّما خرجت إلى وسط الدار فوجئت بحداد يوارب باب القاعة ويقولها في شئ من الغضب :

– سكتِّي الواد يا لبيبه..

وهي تتمايل له :

– يعني صحيت.. فين أمه..

– جوَّه..

– يالهوي ومش سامعه عياط إبنها..

– الواد ما بيعيطش إسقيه ودخَّليه ينام بلاش دوشه يا لبيبه..

– طب بكفايه كدة طلّعها.

– خلّي عندك دم واختشي.. دخلّي الواد في سريره وروحي قوضتك إترزعي..

– أنا دلوقتي أترزع.. قلبوك عليَّ يا حداد.. طب يانه يا انت.. طب يانه يا هيَّ..

– روحي يلعن أبوك وأبو أبوك.. أقسم بالله أرمي عليك يمين الطلاق عاالصبح روحي جتك الغم من بدري..

ويبدو أن الطفل سعد بحوار أبيه معها فسكت وقال لها بعد أن إطمأن على أمه:

– أنام .. أنام..

أدخلته في سريره وهي تبكي بصوت مسموع في حرقه.. إنه لم يشتمها ويلعنها من قبل.. إنه يقسو عليها لأول مَّره بصوت عال وامام ضرَّتها.. إنقلبت إلى غرفتها باكيه حزينه كالمجنونه.. تهزي :

.. هيَّ عملت له إيه.. أد كده هوَّ عايزها.. طب والله لانا لا هيَّ..

***

نمت ساعتين مطمئنًا على سعادة أبي وأمي بعدها قمت في الضحى وفتحت باب الخزنة في رفق ربما أجد شيئاً مثل الذي رأيته في الليل.. وجدت أمي تجلس أمام الكانون تشعل النار تحت حلة كبيره وتجلس على كرسي خشبي يعلو الأرض بقليل.. وفي بيتنا كثير من هذه الكراسي يستخدمونها وهم يستحمون في الطشت أو يحلبون البهائم وهم يشعلون النار في الكانون أو يخضُّون القشطة في القربة أو يقعدون أمام طشت الغسيل.. وكان النجار دردير حرب والذي يعيش في شارع أبو سمك هو النجار الوحيد الذي يقوم بعمل

هذه المقاعد للدور الكبيره و لم يكن هذا النجار ماهراً فهو يجيد فقط عمل هذه الكراسي وعمل الطبالي.. شعرت بي أمي وأنا أقف فالتفتت نحوى وهي تبتسم إبتسامه تملأ وجهها وقالت مداعبه :

– برضه عايز إمبوه..

– لأ.. هَّي فين لبيبه..

– مرزوعه في قوضتها..

– عايزها..

– لأ..

– طيب خش نام..

– فين أبويا..

– راح الغيط..

– مبسوطه يامَّه..

– أوي..

– كده عايز أعمل حمام..

– تعال..

وأجلستني فوق القصريه بالقرب منها وراحت تغني وهي تدخل جدر الشجرة الناشف في داخل الكانون، وتارة أخرى تقول لأم إبراهيم.. هات حطب من فوق.. إملي القلل.. رشيِّ البيت كلُّه ميه وبعدين أكنسيه وكانت أم إبراهيم تقضي أعمالها ولّما تنتهي تقول لسيدها :

– وايه تاني يا أم حسن..

– عيبك إنك مابتعرفيش تحلبي البهايم..

– معلهش يا ستي سامحيني مشوار الغيط بعيد.. على فكره الحلّه بتغلي.. هدّى النار بتغلى..

– زمان الحاج جاي وجايب الجدي..

– الحله الكبيرة دي علشان الجدي..

– أيوه .. هايدبحه ويقطعه في الغيط ويجيبه..

– بس النهارده مش الخميس..

– دا عشان الحاج فرحان أوي وقالّ هادبح جدي علشان النحس يتفك..

– باين عليك راضيه على الحاج النهارده..

– مهما عمل هوَّ أبو ولادي..

– والنبي يابنت الناس شوفيه عايز إيه واعمليه..

– عملت..

– ربِّنا هايكرمك في ولادك..

– يعني لّما مشيت كنت زعلانه..

– كنت في عز القهر آجي الصبح أكنس الدَّار وأمشي.. أقعد لمين..

– ما ساعدتيش لبيبه..

– أساعدها ليه طول عمرها واخده عالشغل في بيت أبوها النسوان بتشتغل في الدار والغيط..

– طيب خدي حسن شطفيه ونضفي القصرية..

– حاضر..

كانت أم إبراهيم تحملني كثيراً فأضربها بقبضة يدي على كتفها وظهرها وما كان منها إلاّ أن تضحك وتقول ضرب الحبيب زي أكل الزبيب.. وكانت في كثير من مشاويرها القريبه إلى البقال تحملني على كتفها في الرايحه والجايه وكان أهل الدور يقفون أمام بيوتهم ليتفرَّجوا على حسن.. وكثير من النساء والفتيات يهرولون خلفها ليقبلّوا حسن.. وكانت أم إبراهيم تهرب منهم مهروله نحو الدار أو الدكان، وعندما تصل إلى البيت حامله ما إشترته تضعه أمام أمي قائله :

– قل أعوذ برب الفلق..

– حد شافه..

– كل النسوان بتجري عشان تبوسه..

– هات البخور ودوَّرى الراديو يمكن يكون فيه قرآن..

وتسرع أم إبراهيم لتشعل قوالح الذرة الناشفة في المنقد.. وكان في البيت عدد من مناقد الفخار الصغيرة للبخور أو لتسخين العيش والبتاو ومنقد كبير عال من النحاس إشتروه من أشمون في عطر أمي (تجهيز أمي) هذا المنقد الفخم لا يستخدمه غير أبي في غلي اللبن في الصباح أو المساء فوق فرن القاعه في الليل أو في الصباح.. ويستخدمه أيضاً في عمل الشاي وتسخين العيش والبتاو أو في تسخين طبيخ كلما لزم ذلك..

في هذا اليوم جاء أبو حسن من الغيط وأمامه جدي تمَّ ذبحه وتقطعيه في قفه أمامه ودخل بالحماره البيت حتى وقف أمام زوجته التي هلعت إليه وأخذت القفه من أمامه وأنزلتها إلى الأرض في صعوبة وهي تقول كل ده..

– إسمعي نصه يتوزع على الغلابه دلوقتي والباقي طيِّبيه واعملي فته..

– حاضر..

قامت أم حسن بتقسيمه إلى نصفين ونادت أم إبراهيم قائله :

– إنت عارفه غلابه..

– الشارع بتاعنا كله غلابه..

إنصرف حداد إلى وسط الدار الخارجي ودفع باب غرفة لبيبه فلم يجد إلاَّ سعاد نائمة فقال بصوت عال :

– فين أمك لبيبه..

– لبست وطلعت..

– راحت فين..

– ماعرفش..

وخرج الرجل قاصداً بيت خاله ولَّما دخل من الباب زعق بصوته :

– فين لبيبه..

وردت عليه فهيمه مرزوق وهي أرملة خاله :

– جَّوه خالص دخلت قوضة أبوها..

– بتعمل إيه..

– ماعرفش.. بس باين عليها جايه غضبانه معاها بؤجه هدوم..

دخل عليها فوجدها ترتدي جلباب البيت ولّما وجدته أمامها زرفت الدمع ثم راحت تبكي بصوت عال فقال وهو يقترب من جلستها فوق مصطبة القوضه :

– جيتي ليه..

– هَّو أنا ليه مكان عندك..

– إنت مراتي ومكانك في بيتي..

– بكفاية عليك حميدة مش قلبتك عليهَّ..

– أبداً هيَّ برضه مراتي ولازم أصالحها..

– طيِّب خلاص روح صالحها..

– طيب قومي روَّحي..

– أروَّح بس ما تدخلش قوضتها ولا تدخلها القاعه ولاحد يحمِّيك غيري..

– لأ بقه دا إنت إتجننت..

– هَّو كده هَّو أنا ليَّ حاجة في البيت غيرك..

– وهَّي ليها فيَّ زيِّك..

– هيَّ أحسن مني.. أحلى مِّنى.. مين بيحمِّيك ويدعك لك ظهرك.. هيَّ بتعمل أي حاجة زيِّي..

راح الرجل يقهقه من قلبه ثم قال في حكمه :

– لأ إنت أحسن..

– صحيحح ولاَّ بتراضيني..

– وحياة خالي محمد صحيح..

– إذا كان كده أرجع..

– طيب قومي تعالى ورايا..

– لأ هاجي بالليل..

– وليه مش دلوقتي..

– هاوضَّب نفسي وآجي على سنجة عشرة علشان تشوف مين اللىِّ حلوه..

– تعالى إعملي حاجتك عندنا..

– لأ.. طاوعني أنا هاجي متوضَّبه..

خرج الرجل من بيت خاله مبتسماً.. هو في داخل نفسه يريد أن يعدل بين زوجتيه وأن يصلح الجميع وأن يكوِّش على أبنائه.. لّما خرج نادت لبيبه على مرات أبوها ورجتها بأن تذهب إلى فاطمة مرات سعيد وتأتي بها.. وكانت فاطمة هذه قريبه لها من أبيها وكانت معروفه بعمل الحلاوة وإزالة الشعر ونتف الحواجب للنساء..

تنحنح وهو يدخل بيته فهلع إليه حسن فأخذه في أحضانه وحمله وقعد مقابل زوجته فوق مصطبه صغيره بجوار الفرن وقال :

– عملت لحمة الناس..

– عملت عشر أكياس أد بعض شوف إنت وزّعهم..

ونادى أم إبراهيم التي جاءته من عند حوض الطلمبه فقال لها :

– هات مقطف وخدى اللحمة دي.. روحي الأول شارع أبو سمك وعدّ لها ثلاثه.. وبعدين روحي شارعك كملّى.. خدى منهم كيسين لبيتك والباقى خمسة وزعيهم بمعرفتك..

– حاضر يا حاج.. حاضر.. ربّنا يخليك..

دخل حداد لينام في المندرة كعادته وغطي نفسه بعباءته.. ساعة من النوم إستيقظ بعدها وخرج إلى وسط الدار الجواني فوجد زوجته تعمل الفته فقال لها :

– على فكرة إحنا ناسيين لظيمه..

– لظيمه بتاعة الكفر..

– دي بتحّبك أوي..

– إنت عايز إيه ياحاج..

– نودّيلها على ما قسم..

– وماله.. بس ما عدش لحمة نيّه..

– ناخد لها مستويه..

– وفته..

– لأ.. ناخدلها شوية حاجات من الزرع..

– زي إيه..

– بطاطس وبصل وتوم وشويه جبنه ورطلين زبده..

– وماله كل حاجة موجودة لّما تيجي أم إبراهيم تعبِّيلك..

– طيب هات آكل..

– الفته واللحمة جاهزة.. لسه الملوخية..

– مش مهم هات أي حاجة..

وضعت له طبق الفته وطبق مملوء بلحم الجدى وجلس إلى جواره حسن يلعب بالملعقة في الفته واللحمه..

وبعد أن إنتهى وصلت أم إبراهيم الذي قال لها :

– حطىِّ الخُرج على ضهر الحماره (عبارة عن قماش تخين له عينان مثل غبيط الحماره).

– حاضر..

– حطّى البصل في ناحية والبطاطس في ناحية والتوم مع البصل..

– أحط أد إيه..

– قانون خمسة كيلو من كل حاجة..

– حاضر يا حاج..

– لَّا تخلّص إللىِّ في ايدك يا حميده.. هات الزبده والجبنه واللحمه حطّيها في كيس في حدود كيسين.. الله يرضى عليك..

إبتسمت وقالت

– دانت متوصِّى بيها أوي..

– دول ناس مالهمش حد..

– مش من البلد..

– من البلد بس زي الأغراب لا أخ ولا أخت وجوزها مات..

– وأنت الحنِّين..

– كل شئ بثوابه.. الود حلو يا حميده..

– إنت سحَّاب بتدهلزني ياترى وراك إيه.. ها تتأخَّر عندها..

– لأ شويه أقعد معاها هيَّ وبنتها..

– وبعدين..

– أروح الغيط.. جهِّزي الغدا لنفرين وحطىِّ أكل الكلاب..

– دا الكلاب بتاكل أد الأنفار..

– لازم من الكلاب.. الديابه والتعالب وبعدين دا حيوان أخرس..

– قُطعت الكلاب..

– ما بوكي مربِّى كلاب..

– كلاب أبويا نضيفه مش بلدي..

– كلها كلاب.. آه لو تشوفي الكلاب أول ما روح الغيط ولاّ لّما تمشي معايا في كل خطوه في الغيط.. دول حته مّني..

وضعت أم إبراهيم كل ما طلبه الحاج في الخُرج فوق ظهر الحماره ووضعت أم حسن باقي الحاجات في مقطف..

سحب الحاج حمارته حتى باب البيت الخارجي وركب من فوق جدر الشجرة المدقوق في الأرض.. وحملت أم إبراهيم المقطف ووضعته أمامه وقصد الرجل وحمارته طريق الكفر..

نام حسن في حجر أمه وناولته لأم إبراهيم التي أخذته منها ووضعته في فراشه وهي تُسّمى (بسم الله صلاة النبي.. بسم الله عليه) وجاءتها أم إبراهيم وهي تغمز بعينيها لأم حسن :

– رايح للمعّدلة بتاع الكفر..

– إنت عارفه كل حاجة..

– عارفه بس مش عارفه كل حاجة..

– إيه إللىّ تعرفيه..

– تقولُه يا خال حداد يخُر على طول..

– إنت عارفه ياست الرجاله بتحب النعوميه..

– والست دي ناعمه أوي..

– ما إنت شفتيها لما جت تبارك لك في الجواز..

– شفتها على الماشي لكن ماعرفش عنها حاجة..

– هيَّ ست غير ستات البلد.. خياطة بتفصَّل أفرنجي نضيفه ومتلمعه..

– بتفصَّل لحد هنا من بحري..

– بتوع بحري بيلبسوا جلاليب وقمصان بشمار بعيد عنك نسوان تلاليس.. دي زباينها من بتوع الكفر بنات وستات موضه..

– طيب ما حنا بنلبس نضيف برضه..

– طبعاً يا ستي إنت جيت حسِّنت الناحية البحرية.. إنت حته منورَّه في أبو عافيه لكن.. وسكتتْ..

– لكن إيه..

– حشمه برضه الستات في الكفر مكشوف وسواريه بعيد عنك.. والنبي لو كنت راجل وربِّنا مديلي لاتجوزت من الكفر.. حريم يفتح النفس..

تضحك السيدة حميدة وتقول – إنت مش سهل يا أم إبراهيم..

– أبداً أنا عايشة في البلد وشايفه وملاحظة.. إنت عارفه يا أم حسن نسوان أبو عافيه أوحش نسوان في البلد..

– إزَّاي..

– رجاله أبو عافيه كل واحد منهم جايب واحده من عيله تانيه أو من بلد تانيه علشان يعملوا عمليه تهجين وتحسين لنسلهم..

– فيه حد غير حداد..

– محمود جايب مجيده من القطان، ودردير جايب منصورة من البُكل وصلاح سالم جايب من حمدان، والغندور جايب من الفخراني وابراهيم عوض جايب من تلوانه.. كله مغيَّر حريم أبو عافيه الخناشير.. وعلى فكره الحاج أمين جايب من الخضره..

– ياه دا كل العيله..

– الرجاله ليها حق علشان يجيبوا بنات وولاد حلوين..

– هوَّ دا اللي حاصل في الناحية البحرية وتلاقي اللىِّ واخد على طول حريم من أبو عافيه تلاقيه مهبِّب ومراته هباب وولاده زي تراب المحمه..

– دخَّلتيني في سكة تانيه بعيد..

– أنا نسيت ياستي إنت عايزه إيه..

– هوَّ بيروح عند لظيمه ليه.. لازم تجيبيلي قراره..

– كل اللىِّ أعرفه هَّى بتقوله ياخال الحاج..

– قوليلي من حق هوَّ ليه ستات كتير بتقولُه ياخال الحاج..

– أنا طلعت لقيت كده..

– برضه ماوصلتنيش لحاجه..

– يمكن عشان لابس عَّمه وله دقن وأزهري..

– دا مش كل حاجة..

– يمكن عشان بيرد النسوان اللىِّ غضبانه..

– بس دي مش كل حاجة..

– يمكن عشان مافيش واحده تتصلح في البلد.. تتصلح صح مع جوزها إلاّ لازم يصلحها الحاج حداد..

– أكيد فيه حاجات تانيه..

– أسمع أن أبويا الحاج على كان كده..

– لأ وأنا أسمع إن الحاج على كان راجل شاطر في غيطه وزرعه.. غير حداد..

– والله يا ستي أهل مراته اللىّ بيخسّروه وبيبوظوا زرعه وواكلينه بلى ومساحة..

– محمود بيحوش أرض ودردير بياكل تسقيه وحداد سايب أرضه نهيبه للناس وبيته ولاد خاله وخالته مخلّصين على عيشه وبتاوه وقاعه الغموس كلّها جايينها على تحت..

– على فكرة ياستي محمود مش أخوهم..

– إزّاي..

– محمود إبن عمُهم السيد..

– السيد.. والسيد دا فين..

– السيد أخو الحاج على مات قبل سن ثلاثين سنه..

– يعني عمه اللىّ ربّاه..

– أيوه وكان بيخاف عليه أكتر من ولاده خده معاه الحج وهوّ سنه تلتاشر سنه خاف عليه من ولاد محروس يموتوه..

– ولاد محروس دول مين..

– دول ولاد عم الحاج على.. وكانوا بيكرهوا الحاج على وأخوه السيد..

– ليه..

– لّما رّبنا إدّى لعلى والسيد وفتح عليهم بدأ الكره والحقد والغيره..

– بيقولوا ناس زمان كانوا طيبين..

– إلاّ ولاد محروس كانوا بيحبوا العنظرة والكبر والأنتكه والفزلكه وعلشان كده لّما ولادهم كبروا ضيعوا أرضهم كلها.. وكان حمدان شغّال مع نسوان الطلمبه..

– نسوان الطلمبه مش فاهمه..

– دي حكايه طويله يا أم حسن..

– نرجع تاني لمحمود أمه من درويش برضه..

– لأ أمه من الهلاليه..

– ودردير أمه منين..

– من دار سالم.. قُطعت كانت ست مابتقبلش حد وكانت بتكره حداد كُره العمى لدرجة إن أبوه كان بيخاف عليه من أم دردير أحسن تسمُّه..

– وليه الكره ده..

– الكره ده في أبو عافيه من زمان من قدم من ساعة ما جم شنشور.. إذا واحد فيهم ربّنا إدّاه كرهه بقيت أهله..

– ومنين بييجي الكره..

– شوية قُرب من ربِّنا يمشي الكره والحقد..

– والحاج على دا جاب الأرض دي كلها منين..

– هوَّ كان أحسن ولاد عمه.. وأبوه حسين كان غاوي دهب وماكنش عنده أرض كتير لَّما مات أبوه حسين فتح الرُّبع (الزلعه) كانت برنية فخار زي برانى الزبده.. لقاها مليانه دهب من كل نوع..

– أنا سامعه إنه كان راجل شاطر لكن كان مظلوم في بيته..

– أيوه ياستي أم حداد ماتت بدري وكانت ست طيبه مالهاش في الرجاله أوي..

– وأم دردير..

– كانت ست مابتحِّبش حد قلبها إسود وهي أخت محمد سالم إبن عم الحاج على..

– الحب والود والقلب اللىِّ بيحب لازم الناس تتربى عليها من صغرها لكن هي المشكلة إن الناس بتدوَّر على الأرض والبهايم والفلوس وبس..

.. وهَّزت أم إبراهيم رأسها كأنها تخبِّئ الكثير وقالت في همس :

– على فكرة حداد كان له أخت اسمها فايقه أكبر منه..

– راحت فين..

– ماتت.. بيقولوا ماتت.. وسكتت..

– يانهارك أبيض يا أم ابراهيم بتخبّى.. يعني إيه ماتت..

– ياستى الله يرضى عليك الناس اللىّ بتقول مش أنا..

– بتقول إيه الناس..

– إن.. إن..

– هاتموتيني يا أم ابراهيم.. إن إيه..

قامت أم إبراهيم وخرجت حتى السور الخارجي وفتحّت الغرف كلها حتى تتأكد من أنه لا أحد يسمعها فقالت لها أم حسن :

– أد كده خايفه..

– يموتوني ياست ولا لىّ ديه..

– قولى والله سِّرك في بير.. أنا عايزه أعرف كل شئ في البيت اللىّ أنا عايشه فيه..

قامت أم إبراهيم وأتكفأت على أذن أم حسن وهمست :

– بيقولوا قطيفه سَمِّت البنت..

– يانهار مشوم.. وش عرَّف الناس..

– الأسرار مهما داروا عليها في البيوت بتطلع ولو بعد سنين..

– مسكوا دليل عليها..

– هوَّ كل اللىّ حصل.. فجأة البنت إترمت وراحت ترجَّع.. الخبر راح بيت ستها أم أمها بيت الدراوشه يعني.. جُم نسوانهم كلُّهم وستها قعدت تهز فيها وتقول لها :

– كلْتِى إيه كلتى إيه قولى يابنتي كلْتِي إيه..

فردت البنت وهي تشهق في النفس قبل الأخير :

– قطيفة إدتنى حاجة بيضه شكل الحلاوة كْلتها..

– يانهاري ياسواد يومنا وليلنا عملتها.. عملتها..

وشهقت البنت الشهقة الأخيرة.. وكفوا على الطبق ما جور..

– والحاج على عمل إيه..

– بيقولوا الراجل ستر على نفسه.. دا قطيفه بنت عمه ومش عايز يفضح الدنيا كلهُّ سكت واتخرس لّما لقوا الراجل الكبير سكت وحزن ومرض وكان هايروح فيها..

– مش كان المفروض مشَّاها وطلّقها أقل حاجة..

– البيوت اللىِّ زي دي في البلد كلها كان بيحصل فيها حاجات زي دي وأكبر من كده وبيغّطوا عليها.. ما بيحبوش الفضائح والهّليله.. وكان أهل البيوت دي سمعاً وطاعه للراجل الكبير زي ما يعمل ويتصَّرف همَّم وراه آمين..

– لكن مافيش إثبات حقيقي عليها إنّها إدتها سم..

– كلام البنت وكل الشواهد والدلايل وتاريخ قطيفه في البغض والكره والشراسه بيقول كده..

– وبعدين..

– لّما حداد جه بعد سنين وأمه ماتت بعد سنتين من ولادته.. أبوه ودَّاه بيت سته..

– يعني هوَّ إتربى هناك..

– حطُّوا على قطيفه ناس بتشتغل جوَّه البيت لمراقبه تصرفاتها والكل من الستات اللىِّ بتشتغل في البيت خدو بالهم من حداد وأبوه نبِّه عليه بأن لا يأكل في البيت إلاَّ في وجوده.. وأعطى لسته أم أمه كل ما يلزم لإطعام حداد في الوقت اللىِّ الحاج على مايبقاش موجود فيه..

– يعني الفضل يرجع لبيت الدراوشه برضه في الخوف والعناية وحراسةِ حداد حتى كبر..

– الحق يتقال آي..

– مسكين يا حداد.. يتيم الأم هوَّ اليتيم الحقيقي. لكن ست حداد من أبو عافيه..

– مش عارفه..

– إطمنِّى كل كلامك ده دخل من هنا وطلع من الناحية التانية..

– علشان بحِّبك قلتلك..

– إنت أميره يا أم إبراهيم..

***

"أسرار في الغيط والبيت"

"كالعادة يعود صاحب البيت من الغيط بعد المغرب.. يربط حمارته في الزريبه ويجلس ليتناول عشاؤه في وسط البيت الداخلي مقابل القاعه.. تضع له أم إبراهيم الأطباق فوق طبلية صغيرة بعد أن تكون أم حسن قد غرفت له ما في البيت من طبيخ.. بعدها يغسل يديه من طلمبة السور ثم يتوضأ ويخرج لصلاة العشاء في المسجد.. وفي بعض الليال يذهب إلى دكان عبده أبو سعده ليشرب الشاي ثلاث أدوار في كوبايات صغيره ويدخّن كرسي معسل من الجوزه (معسل زغلول أو عنتبلي) ويجلس مع صحبته الذين يتعودون الذهاب إلى الدكان كل ليلة وهم أبو عيَّاد وحداد الكيلاني ونصر عبد الحليم وعبد العزيز الصاوي وجميعهم من الموسرين أصحاب الأرض وتجمعهم حكاوي الزرع والقلع والري ومنسوب الميَّه في الترعه وكيماوي الجمعيه وتقاوي البطاطس وحكايات جنى القطن وضم القمح وكل هذه الروايات تخصهم لأنهم أصحاب مهنه واحدة وهي فلاحة الأرض، يجلسون على حصيرة وتتوسطهم نار تصهد في منقد فخار إذا كان الوقت شتاءاً وكل منهم يلتف في عبائته ويرتدي طاقيه أو عمامه أو شالاً (تلفيحة) يلف بها رأسه، وهناك زكي أبو شاطيه أو عبد اللطيف مليجي أي منهما يقوم بعمل الشاي كل ليلة مقابل ألاّ يدفع في ثمن الطلبات.. يعمل الشاي على منقد فخار ناره غالباً تكون من قوالح الذره الناشفه وكلّما نضبت النار زوَّدوها بمزيد من القوالح أو من فروع الشجر الجافه وأحياناً أخرى يعملون الشاي على وابور جاز.. والنشاط الليلي للدكان

كلما دخل واحد من الزباين وقعد وانعدل في جلسته صاحب الدكان أوتوماتيك ينّزل له طلبه من الشاي والسكر.. السكر في قرطاس والشاي في ورقة صغيرة من ورق كتب وكراسات المدارس المرصوصه عنده في الدكان والتي يبيعها التلاميذ للمحلات بعد إنتهاء العام الدراسي، وكانت حتى مطاعم الفول والطعمية في الناحية مطعم زكية ومطعم أحمد داود يبيعون الطعميه في ورق المدارس.. كانت القرية في هذا الوقت في عام ١٩٥٠ وما قبله وما بعده بسنوات كثيره شوارعها ظلماء ولم تكن حتى تضاء شوارعها الكبيره بفوانيس بل كانت الوسيلة الوحيدة لتنوير الشوارع أن النساء والأطفال يحملون لمبات صفيح (لمبات الجاز) يحملونها في أيديهم من البيت إلى الدكان أو إلى الجار لقضاء حاجتهم وكان الموسرين أو القادرين من الرجال والنساء والأولاد يحملون كشافات تضئ بالبطارية، وإذا وجد الأطفال في الشوارع واحداً أو واحده يحمل كشافاً ويمشي به فذلك حدث جميل ويعتبرون صاحب الكشاف من الناس المتنورين والمتحضرين، وكان كثير من الأطفال الصغار إذا رأوا كشافاً في يد رجل أو إمرأة فإنهم يجرون في ضوئه الزاهي فرحين ومسرورين بنوره الساطع.. وفي ليال القمر تكون أيام وليال العيد حيث يكثر اللعب في الشوارع وكانت اللعبات المنتشرة (أستغماية، وسرَّح كشكه، ولا يترل ولا يزنزل، واستوماج) وهي ألعاب بدائية سهلة نشأت منذ نشأة القرى وانقرضت في الزمن الحديث ولم يعد الأطفال يلعبون هذه اللعبات البته، وكما يقول الفلاحون أن ليال القمره هي أحلى ليال الري وضم القمح (حصاد) وكان الناس جميعاً في داخل القرية أو الغيطان

يقضون كثيراً من أعمالهم وزياراتهم في هذه الليالي المضيئة بنور القمر..

وكان أبي في جلسته مع أصحابه في الدكان التي تستغرق وقتاً ما يقرب من الساعتين حتى يكونوا بعد هذا الوقت قد شبعوا من الكلام والحديث، لكن إذا جاء أحد من الخارج ونادى واحد من الصحبه لأمر هام ترك الدكان وذهب مع القادم لقضاء مصلحة أو لأمر هام في بيته، لكن في بيت أبي كانت بعض النسوه اللائي لهن بعض المشاكل مع أزواجهن أوأبائهن أو جيرانهن أي مشاكل تقابل النسوه أيضاً من المطلقات والأرامل فإنه في الناحية البحرية كلها لا يوجد غير أبي لحلها وكان الكثيرون منهم أو منهن يرتضى حله، كان أبي يهوى حل مشاكل الناس وله باع طويل في هذا العمل ونجح فيه وناس كثيرون يعتقدون في كلامه وحكمه وكان مصدر ثقة الجميع، وكان كل أهل الناحية يأتمنونه في حفظ عقود البيع والشراء وعقود الزواج حتى شهادات الطلاق وعقود الشركة الخاصة بالمواشي والأغنام، كل الأوراق المهمة لدى أي رجل أو إمرأة ويريد حفظها في أمان الله يذهب إلى عمه الحاج حداد ليحفظها عنده، وكان أبي يحفظ هذه الأوراق في محافظ ورقية يعملها بنفسه من ورق الأظرف أو من أوراق الرسم ويضع كل نوع منها في محفظة ليسهل الحصول عليها في أي وقت وكان يضع أوراق الناس (الأمانات والكمبيالات) في صندوق خشبي قديم ورثه عن أبيه الذي كان يضع فيه الفلوس، وثقة الناس في أبي لها أسبابها فهو إبن رجل موسر وورثوا ذلك منذ القدم، وهو رجل يحفظ كثيراً من كتاب الله لأنه درس في الأزهر عامان ويحفظ كثيراً من أحاديث

الرسول وكثير من الشعر القديم وأقوال الصحابه والحكماء، فلا توجد قضيه أو مشكلة إلاّ وقال عنها آية من كتاب الله أو من حديث للرسول أو من قول للصحابه أو حِكم أو بيت شعر له معان، إذا مات فقير كان أول من يمشي في جنازته، الفقير عنده مثل الغني بل يكون حريصاً على قضاء الواجب للفقير والمسكين قبل الغنى، وفي وقت الجد إذا جار ظالم على أحد شخط فيه وزعق فدفعه عن ظلمه بقدر ما يستطيع كان يعمل الرجل وكان يقضي وقتاً طويلاً في قضاء حاجات الناس وحل مشاكلهم قبل أن يقضي مصلحته أو عمله.. ولذلك كان هناك كثير من الإهمال في زراعة الأرض أو حصدها أو في ريِّها فهو في بعض أو كثير من الأوقات لا يكون موجوداً فيهمل الشركه (الأنفار) في أعمالهم في الأرض أو يسرقونه أو يأكلونه أو يجاملوا به جاراً أو صديقاً، وكان الرجل يحل مشاكل الآخرين ولا يحل مشاكله.. فتأثير أهل خاله عليه كان كبيراً لم يتخلّص منه إلاّ بعد زمن طويل، وتأثير زوجته لبيبه كان شديداً وله تأثير شديد على زوجته حميده أم أولاده، وكان الرجل بعيداً عن الناس جميعاً قد تزوج عرفياً بلظيمه البدري من الكُفر، وبعض نساء العاملين في الحقل.. هذه أرملة.. هذه مطلّقة.. وكان الرجل يحب جمال المرأة ودلالها.. وكانت نساء الحقول لو كان سايبها على البحري كما يقولون لنال منهن جميعاً فالواحدة منهن تسقط تحت دواعي الحاجة.. بدنجانه.. شوية دره.. شوية قمح.. شوية لبن من الجاموسه.. بواقي الطعام.. كوزين دره.. أمسك بتلابيب نفسه وأشبع ميله وحاجته للنساء بالزواج عرفياً سراً من خلف عيون زوجتيه لبيبه وحميده.. والذي شجعه على ذلك وأقنعه بهذا الزواج

وأنه صحيح طالما الهدف عمل الخير والبعد عن الزنا وحماية النفس ومداراه وستر النساء الفقيرات (المطلقات منهن والأرامل) هو رجل كان في ذلك الوقت يعتبره الناس جميعاً عالماً في الدين وكان قريباً لأبي في فكره وحبه قبل أن يكون قريباً له في الدم.. تزوَّج أم العلو وفوقيه وعكيله وستيته وفايقه وكفايه ومرات جبر وبنت الشاطر وقدريه.. لم يجمع أكثر من أربع زوجات وكان زواجه من كل واحدة منهن له أسبابه فكان يحفظهن ويحفظ نفسه وينفق عليهن ويكسوهن وكل هؤلاء النسوه بدأن معه أو هو بدأ يتزوج منهن قبل زواجه من لبيبه وكان عمره وقتها أقل من العشرين عاماً بسنوات، بدأ في ذلك عندما حكى لصديقه وقريبه رجل الدين هذا ما يتعرَّض له من اغراءات نساء الغيط.. وكان لقاؤه بهن إذا كن من ملأة مريان فهذه غرفة التبن أو فرن الزريبة، وإذا كن بعيداً فيذهب إليهن من وقت لآخر.. وتعَّرض أبي لكثير من الإشاعات بأن له علاقات مع هذه وهذه ولم يكن أحد يعلم حقيقة علاقته بهذه وهذه إلاَّ الله ولم يكن يهمه غير ذلك.. وكان يشعر أنه يقوم بأعمال طيبه وصالحه حين يقضي حاجات كل هؤلا النسوه زوجاته واحده بعد الأخرى.. حاجاتهن كلها.. حاجة كل منهن إلى الرجل والى الغذاء والى الفلوس والى الكسوة وإلى الحماية.. ولكن كيف تزوج بهن واحدة بعد الأخرى.. هذه مرضت ولا تستطيع العشره الزوجية، وهذه ماتت، وهذه هجرت القريه وذهبت مع أولادها مصر للعمل هناك، وكانت هناك واحده منهن تسكن في ناحية بعيده عن القريه وعن ملأة مريان ومن شده حاجتها لأبي كانت تقطع هذه المسافة من يوم بعد آخر وتأتي إليه راكبه دابتها.. فإذا لم تجده في الغيط

دخلت غرفة التبن ونامت حتى يأتي.. وكان الشركة (الأنفار) من واحد لآخر يحافظون على سره وكان كريماً معهم فيعطيهم فلوس زيادة عن أجرهم.. إلا أنه في يوم عمل عنده واحد إسمه فريد طربليّ وهذا النفر كان له أم تقول لأبي يا خال وكانت تذهب إليه في غرفة التبن وكانت إحدى زوجاته وكان هذا الولد يعمل وهو صغير عند أخيه محمود ولّما كبر قليلاً ترامت إلى عينيه وإلى أذنه أن أمه تذهب إلى الحاج حداد بصفة مستمرة وأنها دائماً تحكي عن خالها حداد أمامه، وكان الولد يسمعها ويسكت ويقول في نفسه.. (طيّب لما هوَّ خالها بتروح له تقعد معاه دا كله ليه) وفي يوم لّما كبر قليلاً وعينيه فتّحت قال لأمه :

– يامَّه إنت بتروحي عند أبويا الحاج كتير ليه..

– دا خالي .. طول عمره خالي..

– وخالك تروحي له الزريبه وتقفلو الباب على بعض بالساعات..

– ياوسخ إنت مش عارف حاجة.. لولا خيره كّنا خدامين عند الناس اللىّ ماتسواش..

– ما انت خدامه عنده مش بتروحي من يوم للتاني بيته تشتغلي..

– برضه خالي.. إحنا مانقدرش نسيب البيت ده..

– ليه هوَّ إحنا عبيد وخدم..

– دي الحقيقة يابني إنت ناسي إنك من سلالة عبد ولاد مخيون..

– أنا عارف كده يامَّه.. بس خالك ده من ولاد على..

– ولاد مخيون خابوا من زمان وباعوا أرضهم ماعندهمش حاجة هانروح نشتغل عندهم ببلاش..

– طيب يالّه نمشي من البلد دي..

– هانروح فين .. إمشي إنت وسيبني في حالي..

– هوَّ الحاج دا سره باتع أوي كده.. دا مش إنت لوحدك..

– يا كلب يا ابن الكلب سر كل واحد عند ربه.. أنا مش باعمل حاجه وحشه دا خالي.. خالي.. لو تعرف السر هاتقول أمي دي ليها حق وصح الصح..

– يعني يامَّه إنت ماشيه صح..

– أيوه..

– وكلام الناس..

– خلّي كل واحد منهم يدوَّر على أخته وأمه..

– معايا في الشغل على طول وحواليه ليل ونهار..

– أنفار كلاب.. قولىّ مين.. قولىّ زي مين..

– فاروق بن عطيات طريده..

– طيبٍّ شوف أخته عامله إيه..

– عارفها كويس..

– إنت عارف شنآنه دي بتعمل إيه.. واخواتها أربعة..

– سامع يامَّه..

– دي متاع علني لكل الموسرين في الملآه.. تحب أعْد لك..

– اللىِّ أنا مستغرب له إن إخواتها بيتكلمّوا على الناس والمصيبه إنهم شايفين أختهم أدَّام عينيهم..

– يابني دي شنآنه دي وارثه.. أمها نبوية وستها هندومه..

– يابني سيب الدنيا تمشي زي ما تمشي وأحسن حاجة إعمل زي دولت.. إعمل كإنك مش شايف ولا بتسمع..

– إزاي.. دانا راسي إنتولت يامَّه..

– بس أمك غير الناس دي.. مش هندومه ولا نبوية ولا شنآنه..

– يعني هوَّ خالك بصحيح..

– أكتر من خالي..

– بس بتقفلو الباب ليه..

– علشان ماحدِّش يشوفني وأنا باحلب الجاموسة.. بنخاف من الحسد.. أصل الجاموسة لبنها كتير أوي..

.. عمل بعد ذلك فريد طربلي بعد وفاة أمه عند خاله الحاج.. واستراحت نفسيته كثيراً بموتها حتى لا يتغامز الناس عليه.. كان يريد أن يكون مخلصاً لصاحب الأرض وصاحبات الدار.. عندما يذهب لإحضار الغداء أو في حمل نقلة رتش إلى حظيرة البلده كان كثير الرغى مع السيدة لبيبه، وكان يعرف أن نقل أخبار الغيط إلى

البيت من ضمن الأمور الهامة التي تحبها كل إمرأة زوجة صاحب أرض وتتوصى بالشريك (النفر) تعطيه قرصه أو كعكه أو جزءاً من فطيرة أو تعريفه أو حذاءاً قديماً ينعله في قدمه. وفي يوم تخّمرت في رأسه أن يبلغ أم حسن بحكاية قدريه مع الحاج في غرفة التبن ولكن كان الوصول إلى هذه السيدة صعباً فهي لا تنكشف على الشركة (الأنفار).. وفي يوم كانت السيدة لبيبة مريضة في غرفتها فدخل بنقلة الرتش وقلبَها في الزريبة ثم سحب الحمارة إلى خارج السور وقال وهو يخرج :

– يا ست لبيبه أنا بَّره (يعني عند باب السور الخارجي).

وسمعته لبيبه فردَّت عليه بصوت مسموع :

– أم حسن هاتجيب لك الأكل..

ووجدها فرصه في أن يخبر سيِّدة البيت.. دقائق وجهزت أم حسن الطعام ووضعته في مقطف وأخرجت المقطف إلى خارج البيت حيث وضعته فوق مصطبه صومعة القمح وانقلبت إلى داخل البيت حيث وقفت خلف باب الوسط ونادت بصوت مسموع :

– الغدا على المصطبه يا فريد..

وسمعها فهرول إلى الداخل قائلاً :

– حاضر ياستي..

أمسك المقطف بيد وران بناظريه إلى حيث تقف السيدة خلف الباب وقال في همس:

– عايز أقول لحضرتك حاجة يا ستي..

ولم تكن متعوده أن تقول لشريك (النفر) شئ أو تسمع منه فقالت بحدَّه :

– عايز إيه..

– هاقولك حاجة ياست سر واوعى تقولي أنا قلت حاجة.. أنا بس علشان بحب البيت ده واللىِّ فيه..

– إيه في إيه..

– واحدة في الغيط إسمها قدريه قاعده مع الحاج على طول..

– قاعده معاه فين..

– في غرفة التبن..

– يعني إيه..

– ماعرفش ياست ماقدرش أقول..

– طيب خلاص وانت مالك روح لشغلك..

هرول سعيد بالمقطف وركب حمارة الرتش إلى الغيط وكان حزيناً وتأكد من أنه مطرود من هذه الدار لأن السيدة لم تلقى بأخباره أي إهتمام وعاملته في قسوة وأنها سوف تبلغ زوجها بوشايتي وأنه لابد أن يطردني ولكن بعد علقه ساخنه نالها من قبلي..

مَّر يومان ولم يحدث شئ غير أن أم حسن في ليلة بعد عودة أبو حسن من الدكان وجدته جالساً في المندره وحده فدخلت عليه في لطف قائله :

– أقعد معاك شويه..

– أقعدي..

– لبيبه لسه ماخِّفتش..

– إسألي عليها..

– دخلت لها النهاردة وقعدت معاها شوية وعملت لها كوباية ليمون..

– كويس خليكو كويسين مع بعض..

تربعت على الكنبه وهي تحمل حسن.. وكان الولد يميل برأسه ووجهه إلى الأمام كأنه يريد أن يترل إلى الأرض ولاحظت أمه ذلك فقالت لأبيه :

– هوَّ على طول كده مدلدِل راسه..

– علشان متغذّى كويس من لبن أمه..

– صدقت ولبن.. ولبن..

– تقصدي الفرسه والحماره..

– أيوه والله أنا خايفه الولد يطلع غبي ولاَّ مخه تخين..

– خلاص إحنا مش هانجيب تاني.. كفاية عليه كده وافطميه..

– شويه شويه..

– خلّى بالك أنا كنت زي الغريق عايز أتعلّق في أي شئ علشان إبني يعيش..

– إنت عارف أنا عملت إيه.. بعد السبوع خدته في حجري وقعدت على السلمِّ الفوقاني والفجر بيدَّن وقلعت التربيعه وبراسي عريانه بصيت لفوق وقلت.. يارب حسن.. يارب خلّى حسن وبارك فيه يارب ما يموت لي ولد تاني..

– كويس وعلشان كده جبت لبن الفرس والحمارة من كل بلد شويه..

– كنت بتجيب لبن الفرسه منين وازَّاي تقف الفرسه لحد يحلبها..

– كنت بجيبه من سرس اللَّيان واحد عنده فرسه أصيله وهوَّ إللىِّ بيحلبها وكان مشهور ببيبع لبن فرسته للىِّ زىِّ وناس كتير بيتوصف ليها لبن الفرسه..

– وماكنتش ترفسه..

– كان بيعمل ليها حاجة علشان تحن وتسكت وتبقه زي الأرنب..

– كان بيعمل إيه..

– ماقدرش أقولك.. كل حاجة وليها حلاَّل..

– مش مهم أعرف.. كان اللبن غال..

– الإزازه بجنيه..

– يعني تمن عشره كيلو لحمه..

– زي كده..

– طيب ولبن الحماره..

– ده كنت باجيبه من تلوانه..

– من مين..

– من نجيب شكري عبدالله إبن عمدة تلوانه..

– دا قريبي..

– وعلشان كده كنت بجيبه ببلاش..

– ربِّنا يسامحنا إذا كنَّا غلطانين..

– على فكره من الناحية الطبية لبن الحمارة ولبن الفرسه أقرب لبن إلى لبن الأم..

– معقولة..

– والله..

– ربِّنا يستر بعد كده والواد مايطلعش حمار ولاَّ فرس..

يضحك أبو حسن ويقول :

– دي ما تخافيش عليها الواد هايطلع عال العال..

.. حملت حسن إلى فراشه بعد أن نام في حجرها ثم عادت إلى زوجها قائله في دلال :

– عايزني دلوقتي..

ضحك بصوت عال وقال :

– إيه الهنا دا كله.. ماقدرش أستغنى عنك..

– طيب بالراحة أحسن لبيبه تسمع..

– أبوها وأبو أبوها.. هوَّ إحنا بنسرق..

– أد كده مش هامك..

– إنت زي القشطه..

– ولبيبه..

– زي الخبيزه..

رنَّت أم حسن ضحكه لم تضحكها من قبل مثل ضحكات لبيبه التي كانت تسمعها وتقول في نفسها.. ربِّنا يسد نفسك بتجيبي الضحكة دي منين.. أهي عملتها زي لبيبه.. إطمأنت لقربه منها بكلامه الحلو فقالت له في دعه ودلال :

– طيب ما نت حلو آهه وبتقول كلام حلو..

– ولسه فيه كتير..

– أسكت بقه أحسن بخاف..

– أنا غلبان أوي.. ياريت تفهميني..

– طيب بلاش غُلب دلوقتي.. أروح القاعة..

– روحي يا قشطه..

"شنآنه والكلاب"

كانت الكلاب في الغيط أنصح وأذكى من بنى آدم.. إستيقظ أبي في ليلة مبكراً قبل صلاة الفجر بساعة فركب دابته وذهب إلى الغيط وكالعادة راح يقرأ القرآن بصوت مسموع، وكان الليل ما زال يرخى خيوطه ولم تكن الليلة قمرية لكن النجوم كانت تنّور الطريق.. شمّت الكلاب رائحة صاحبها فأخذت تعوي وتزوم وتهز ذيلها وهو عند دار عبد الرازق حجاج وهي دار تبعد عن مكان الكلاب بمائتي متر.. نزل الرجل من فوق ركوبته وزفته الكلاب وجرت أمامه ناحية الغيط فلم ينتبه لقصد الكلاب ودخل الزريبه يمينا، لكنها لم تدعه يدخل أكثر من مساحة فتحة الباب وشدَّه الكبير من جلبابه وهو يصرخ.. بدأ أبي ينتبه فقال لهم :

– فيه إيه.. فيه حاجة..

الكلاب تقزح لأعلى وتجري ناحية الغيط ثم تعود إليه.. أخذه الكلب الكبير من ذيل جلبابه حتى قناة الري الرئيسية.. مشي الرجل خلف الكلاب وهو على يقين من أن هناك شيئاً لإصرار الكلاب على سحبه بهذا الحماس.. قطعوا مسافة فلقه وأخرى ثم فلقه ثالثة ورابعة (الفلقه تعني تقسيمه في الأرض تبلغ مساحتها عشرين متراً طولاً محَّدده بحدود لأنهم عندما يروون الأرض يروون جزءاً جزءاً (يعني فلقه ثم التي بعدها) أسرع الكلب الكبير حتى وصل قرب نهاية الغيط وراح يهبهب..

سمع صاحب الكلاب تخليع دره بمعنى أن أحداً يقطع الكوز عن عوده.. إسترق السمع فتأكد من أن هناك فعلاً تخليع الكيزان من

أعوادها.. لم يكن الذي يخلع يبالى بصوت ونبح الكلاب وهو ملخوم في استكمال سرقته ولم يرقى إلى تفكيره أن يكون صاحب الكلاب آت خلفها.. رآه بأم عينيه فهرول نحوه زاعقاً :

– إوعه تجري.. خلّيك زي ما إنت.. إوعه تتحرك..

توقف الرجل خالع الذره وتلعثم :

– معلهش يابه الحاج.. سامحني.. أنا.. أنا..

وصله صاحب الأرض وأمسك ذراعه وشخط فيه :

– إيه اللىّ بتعمله ياكلب.

– أنا غلطان يابه الحاج.. أصل.. أصل..

– أصل إيه ياسليمان..

– مافيش دقيق في البيت..

– تعال قوللىّ وأنا أدّيك هوّ أنا بحوش عنكم حاجة..

– لأ والله ياعم الحاج.. بس بلاش النقطة..

– نقطة إيه.. إنت عايز كام كوز..

وناوله صاحب الأرض صفعة قويه على وجهه وبعدها صفعه أخرى فوق الجانب الآخر لصدغه..

وانهار يبكى بصوت عال يسمعه من على السكه..

– أقعد ياكلب عد الدره..

وبيد مرتعشة راح يعد الذره.. حتى وصل إلى سبعين فقال له :

– قوم خلّع كمان ثلاثين..

في دقائق خلع سليمان بقيه المائة.. وقال وهو ينحني :

– أبوس إيدك..

– لأ.. بعد كده هاودّيك النقطة..

– قلبك كبير يابه الحاج..

– معاك شوال..

– أيوه..

– عبّى في شوالك..

إنتهى من تعبئة شواله وقال :

– أطلّعه بره..

– برّه فين..

– أوديه الزريبه..

– شيل على بيتك..

– ياهار اسود..

– إنت إللىّ نهارك إسود..

– شيل يا كلب على البلد.. مش إنت عايز دقيق.. ياله على دارك..

– ياهوي يابه حداد..

– لا تلت ولا تعجن.. إمشي من أدّامي..

سكتت الكلاب ولم تنبح وتوقفت ذيولهم.. كأنهم شعروا بأن صاحبهم لم يستفد شيئاً وكأنهم لم يفعلوا شيئاً.. شعر صاحبهم بذلك فراح يطبطب على ظهر ورقبة كل منهم قائلاً :

– تعالو.. تعالو.. وطلع إلى حيث مربط بهائمه :

كان سليمان يعمل عند حسين إبن أخت حداد وكان له أخ اسمه صلاح يعمل عند عبد العال شقيق حسين، وثالثهم شوقي يعمل عند أخيه دردير ورابعهم عدوى يعمل عند حسن قريب حداد.. وكانت لهم أخت حلوه متزوجة من أحد الأنفار يعمل عند أخيه محمود.. إسمها شنآنه كل يوم قبل الظهر بعد أن تقضي حاجات بيتها في البلده تذهب إلى الغيط.. تمارس نشاطها في جمع أعواد الملوخية الخضراء المتناثرة في حقول الذره، تاخد الباميه شوية من هنا وشوية من هناك.. تاخد كوزين دره من هذا أوذاك.. تقطع باذنجان وشويه خضار.. المهم كما يقولون تلقط رزقها ويقولون عنها في قريتي القشاشه وأحيانا يقولون عنها النتاشه..

عندما تصل شنآنه إلى الغيط تذهب إلى حيث يعمل زوجها لتخلع قميصها الأسود وتبدأ في ممارسة نشاطها هنا وهناك وهي ترتدي جلباباً ملوناً دائماً ترتديه تحت قميصها الأسود.. وهذا الجلباب غالباً ما يكون شفافاً خاصة في أيام الصيف ليظهر كثيراً من علامات جسدها المثير.. وكان لها في كل غيط زبون أو في كل دار واحد تعطيه جسدها حتى يكون لها غيطه مشاعاً لها.. لم تكن ترضى أن ترقد لنفر أوعامل.. كانت تحتقرهم وتشتمهم وتتبلّى عليهم لو اقترب أو تمسَّح أحد منهم فيها.. وكان فراشها لأسيادها

بين أعواد الذره أو بين أعواد القمح أو في عشه وسط الغيط أو خص قرب البحر.. كانت تبتعد عن كبار أصحاب الأرض وتختشي منهم وتعمل كأنها مكسوفه وغلبانه.. كانت إمرأة زوجة نفر شقيان وأخت لأربعة أشقاء جميعهم يعملون أنفار عند أصحاب الغيطان هذه.. كانت قشاشه ونتاشه ورقاده ولكن بمزاج.. تختار من هذه الغيطان أصحابها ولكن من الشباب لكي تشبع لهيب شوقها المتأجج دائماً.. كانت فاجرة الغيط ترقد لمن يريد والهدف إخضاع الجميع لتستطيع الحفاظ على حرية نشاطها بين الغيطان وأن تكون هي الوحيدة والمفضلة دون نساء كل الأنفار مستغلة فجور عينيها وجسدها الصارخ في إخضاع الجميع ولم يكن هناك في هذا الوقت من نساء الأنفار ألذ منها فهي ترضى الجميع وفي أي وقت وأي مكان.. وكان غالبيه نساء الأنفار الغاويات يعملن ما يريدون ولكن في قليل من الحياء وفي الدرا.. يعني لا أحد يراهم خوفاً من أي كلام أو فضيحة.. وكان لكل واحدة منهن طريقة وأسلوب ولم تكن تستطيع واحدة ليس فيها شئ يثير الرجل (وحشه) أن تقوم بمثل هذه الأعمال لأنه لا أحد يقبل عليها ويعمل الرجال أحراراً عندما يشتمون تلك المرأة الوحشة ويمنعونها من الدخول في غيطانهم.

كان زوجها يعلم بكل شئ.. إنه لا يستطيع أن يمنعها.. هي باكسه.. يعني لا أحد يستطيع من أخواتها وزوجها أن يقف في طريقها فهي إمرأة جامحة لها طموح وكم من السعادة تقريبا عندما تجلس مع نساء الأنفار في الحارة وتحكي لهن عن أعمالها تلك مع أحسن ناس في الملأه.. وهي في نهاية اليوم تجني مقطفاً مملوءاً بكل أنواع ما في الغيط من طعام.. وإذا إستطاع أحد من أهلها أو

زوجها منعها فإن أصحاب الغيطان يغضبون عليهم وقد يطردونهم من أعمالهم فهذه شنآنه تعمل لكل أهلها وزوجها الذين يعملون في الغيطان خربوشاً في جنى المزيد من المزايا.. فكانت شنآنه ورقة رابحة لأهلها جميعاً فهي تستفيد وهم يستفيدون ولولاها ما كان لهم كل هذا العشم والأفضليه لدى أصحاب هذه الغيطان..

كان لسليمان ضغينه في نفسه ضد أصحاب الزرع ومَّره قال لزوج شنآنه حوش مراتك شوبه.. خليِّها تدارى نفسها لكن زوجها قال له.. وانت مالك كل واحد حر في بيته خليِّك في حالك يا سليمان.. وكان سليمان هذا أكثرهم شعوراً بالخزى على أخته ولكن ماذا يفعل الفقراء بين الأغنياء لكي يكونوا أحراراً.. إن الأنفار والأجريه لا يستطيعون أن يرفعوا رؤسهم وهذه العادات والممارسات ورثوها منذ زمن بعيد وأن هذا هو حال مجتمع الشَّركة (الأنفار) وكما يقول المثل "ماحِّدش ضرب حد على إيده" شنآنه هَّي اللى بتروح للرجالة" شنآنه حلوه وفاجره ولها سوقها.. شنآنه إذا لم تأتي إلى الغيط أصبح زوجها وأخواتها الأربعة بلا ثمن.. فهي التي تعمل لأهلها جميعاً قيمة.. وكانوا جميعاً يعرفون هذه الحقيقة.. فما كان لأحد منهم يداً تستطيع أن تغيِّر هذه الأوضاع.. ولكن هل يستطيع أحد من هؤلاء الأنفار أن يتجاوز أو ينتقم أو يشفى غلاً في نفسه..

هذا سليمان يسرق الذره من عند حداد والقمح من دردير هو مستمر في سرقاته كرد إعتباراً أو إنتقام من أصحاب الأرض واحداً بعد الآخر.. رغم أن كل منهما ليس له علاقة بها..

وفي يوم كان صلاح يضحك بصوت عال دون سبب وهو يسير مع أخيه شوقي راجعين إلى البلده من أعمالهم بعد المغرب.. فسأله شوقي :

– ليه بتضحك من غير سبب..

– أبداً باخد حَقّى بس..

– يعني إيه..

– مش شنآنه مافيش واحد في الملأه إلاّ..

– ما تكملش..

– وأنا راخر مش هاسيب حقي مع الناس دي..

– ياليله سوده عملت إيه..

– مش الدار اللىّ أنا فيها..

– أمَّال رُحت فين..

– إنت عارف بركات قمر..

– أيوه..

– عنده ارض..

– بالكتير فدانين..

– أهو عنده أرض وبس..

– كمِّل عملت إيه..

– إنت عارف مراته.. هىَّ..

– شغّال معاها..

– بقه لي شهرين..

– دا غلبان حرام عليك..

– وهم مش حرام على الملأه كلها في شنآنه..

– هيَّ أختك غاويه كده وجوزها راضي..

– أنا باخد حَقّي..

– لكن بركات قمر مالوش دعوه بأختك..

– مش مهم.. أهو واحد عنده أرض..

– جت إزَّاي دي..

– دي حكاية طويله..

– مش مهم أعرفها لكن لولا بتوع الأرض في الملأه كنَّاها نشتغل فين..

– يالّه نمشي من هنا..

– اللىِّ محروق يمشي..

وفي يوم طرد دردير شوقي لإهماله في العمل فأخذه حداد يعمل عنده، وكان شوقي أكبر الأخوه متزوج من سعديه بنت أحد عبيد فرع مخيون، وكان دائماً يفتخر أن له نسايب عندهم أصل، ولم يكن عنده عرض بمعنى أنه لا يشم ولا يحس، وكان الحاج حداد لا يرتاح له كثيراً ولكنه كان يقوِّمه.. كيف يجتهد في عمله وكيف يكون مخلصاً لصاحب الأرض، ولكن شوقي كانت له رأس أخرى وتغلّبت على رأسه حكاية أخيه صلاح.. فراح ينظر بعين فارغه إلى

النساء اللائي يحلبن بهايم حداد كل صباح ومساء يقعد أمام كل إمرأة وهي تحلب اللبن لكي يرى ساقها العاريه ويعمل كأنه يوالي معهن العمل فإذا بجاموسه لم تحن (أي لا يقبل ضرعها تدليك يقوم بتدليك أفخاد البقرة والجاموسة من أعلى حتى تستجيب لأصابع الحلابه) وكان يذهب إلى صاحب الأرض ليحكي له مجهوده في تسييس البهائم حتى تحلب، وبدأ يولى كل إمرأة منهما إهتمامه، واستجابت له المرأتان لأنهما كانتا دائما موضع إهمال من الرجال وبالطبع مرضع إهمال من صاحب الأرض.. وعندما يدخل الحاج حداد عليهما وهما يقومان بعملهما الصباحي والمسائي يقول كلمة واحدة :

– الأمور ماشية..

ولا يقف ولا يقعد معهما ولا يجاملهما حتى بكلمة فكانت كل منهما تشعر بنقص شديد يعتريها.. فلمَّا جاء شوقي وجدت كل منهما ضالتها فيه لأنه شديد الإهتمام ويعاونهما في إتمام حلب البهائم.. ومَّرت الأيام فيها يذهب شوقي إلى دار فكيهه في نزلة البحر مَّره يشرب معها الشاي ومَّره يأخذ لها كوزين دره ومَّره يسرق لها فطير أو رغيف عيش وبدأ يودها قدر ما يستطيع.. وكانت فكيهه أرملة لرجل كان عجوزاً.. خلّفت منه بنت تزوجت في عمر السادسة عشرة صياداً من هيت يسكن في عشه في البر الثاني ملاصقه لمياه البحر..

وكان لها ولد يبلغ من العمر عشرين عاماً يعمل في مصر عاملاً في أحد مصانع النسيج.. كانت وحيدة وهي في كل الأحوال إمرأة لها حاجتها إلى الرجل.. وكانت تستقبل شوقي كل ليلة وفي ليلة من الليالي عرضت عليه أن يتزوجها فقال لها أنه يخاف من سلالة العبيد أقاربها أن يقتلوه، بعد ذلك تعّمقت العلاقة بينهما فبدأ لقاءهما

كل ليلة بعد العشاء أو قبل أن يطلع نور الصباح.. وكان ينام معظم الليالي في مربط البهائم متحججاً بأن صاحب العمل يريده أن يحرس البهائم والغيط مع الكلاب.. وكان أهل الملأة جميعاً بعد طول وقت قد أدركوا أن هذا النفر له علاقة شديدة بفكيهه.. ولم يكن أحد يجرؤ على مقاومته لأن من يتعرَّض له كأنه يتعرَّض لصاحب الأرض.. وكذلك لا يستطيع أحد أن يتعرض لفكيهه لأنها حلابة بهائم الحاج حداد.. وفي يوم كان حداد ودردير يجلسان في وقت الضهرية تحت ظل الشجرة الكبيرة فقال دردير وكأنه ينبه حداد :

– الواد شوقي بيروح لفكيهه..

– أهو واحد نحس زي أخته شنآنه..

– طيب وها تسكت على كده..

– الموضوع فعلاً بقه عوار في حقيِّ ولازم أعالجه..

– مشيِّ شوقي من الملأه كلّها..

– عملية قطع العيش دي صعبة أوي هاشوف حاجة تانيه..

– وبعدين يا حداد هوَّ إنت مش مكفيِّك مرتين (إمرأتان)..

– مش فاهم..

ضحك دردير بصوت عال وهزَّ رأسه وقال :

– قدريه.. قدريه ياحداد على طول عندك..

– دي غلبانه وأرمله بتيجي تحمي نفسها من حرارة الشمس..

– ماشي قلبك حنيِّن طيب ما تقعد في الزريبه ما هو فيه ضل في الزريبه..

– هيَّ بتخش قوضه التبن علشان تنام شويه براحتها..

– شوف إنت بتلف وتدور عليَّ.. بلاش الحرام يا حدَّاد..

وفي حزن وألم قال حداد :

– طالما وصلت لكده هاقولّك.. وسكت..

– قول سكت ليه..

– قدريه دي.. قدريه دي.. وسكت..

– قول.. قول ياحداد قدريه دي إيه..

– مراتي.. مراتي..

وقف دردير على الأرض وراح يضرب الأرض بقدميه وكفاً بالآخر :

– نهارك إسود هوَّ إنت مش مكفيك حد.. وليه..

– ليه إزَّاي.. واحده جوزها مات وحلوه وهاتبقه مطمع للرجاله وزي ما إنت شايف هيَّ فايره ولّما بدأت تقّرب مني وتغريني قلت ليه ماعملش عمل طيب ليها ولّ..

– يعني إنت فاتحها كل واحدة تعجبك تتجوزها.

– أبداً أنا بحب أحافظ على الناس حواليه وبعدين الشرع محلّل اربعة بقدر ما يستطيع الراجل يتجوِّز طالما قادر..

– دا الناس مفكّره إنك مرافقها..

– مش مهم الناس.. المهم ربِّنا.. وعلى أنا مابعملش الحرام..

– ياخويا دانت جامد أوي.. أنا مش قادر على واحده..

– دي أرزاق وأسرار..

– طيب ولظيمه بتاع الكفر..

– آه يا دردير تنِّتك ورايا لَّما جبت أراري..

– قول.. مرافقها ولاَّ..

– لظيمه مراتي يادردير..

أمسك دردير برأسه وراح يقول بصوت عال.. ياعالم ياعالم إلحقوني دماغي هاتفرقع.. وتركه حداد يقول ويندهش حتى سكت وتفحص وجه حداد وقال :

– إنت مش بنى آدم..

– أنا فعلا مش بنى آدم.. إنت اللىِّ بنى آدم يا دردير..

– أقصد إنت جبَّار وها تتجوز مين تاني..

– يا دردير أنا إنسان أعرف كيف أستغل رزقي الذي حبانى به الله ودا رزق زي الأرض والفلوس والبهايم.. أنا إنسان يا دردير بحاول أسعد الناس وطول مانا لا أغضب الله... يبقه الموضوع إنتهى..

– لكن لظيمه دي موضه أوي.. دي ست أفرنجي قادر عليها إزَّاي.. دانت بجلابيه وفلاح..

– هيَّ الست ست أفرنجي أو بلدي عايزه راجل صح يسعدها ويحميها وهيَّ لقت فيَّه كده وأنا حبِّيت أشوف طعم الستات الموضه دي.. فيه مانع يا دردير..

– يعوَّض ربنا..

– يعوَّض ربِّنا فيك واللىِّ زيك..

– ليه أنا راجل محترم متجوِّز واحده بس..

– كده فكرك وصَّلك.. أقولَّك إنت راجل خايب وعبيط.. يادردير خلِّيك في التسقيه..

– فعلاً يا حداد.. إنت ابن مرة وأنا ابن مرة.. (يعني إمرأة)..

– بالضبط كده أنا ابن ستيته وانت ابن قطيفه..

– لكن إنت كده ليه..

– إيه الغلط فيه..

– والله بعد كده طالما متجوِّز ماقدرش أقول إنك غلطان..

– خلىِّ اللىِّ قلته سر بيني وبينك..

– هاقول لمحمود بس..

وقام كل منهما إلى غيطه وكان الوقت يقترب من العصر فتوضأ حداد وذهب إلى مصلِّية فتح الله حجاج ليصلي مع الناس جماعة ولما رجع إلى زريبته وجد كل من رجب وشوقي يفرشان الرتش تحت البهائم فسلَّم عليهما ثم دلف إلى غرفة التبن فوجد بابها مقفلاً

بالترباس.. نقر الباب ففتحت له قدريه مبتهجه وارتمت على صدره متلهفة فاحتضنها ثم أخذها إلى فراش الغرفة..

نزل أو نزلة عامر هو مكان مشهور يذهب الفلاحون جميعاً (أنفار وأصحاب أرض) إليه يسقون بهائمهم ويستحمون وتغسل فيه النساء القمح والهدوم.. هو مترل (دحديره) تنحدر نحو شاطئ البحر الأعمى في نهاية هذه الترله المنحدرة (الدحديره) تجد طريقاً يحف البحر (شاطئ) فيه أشجار وأوتاد تُسحب البهائم من زرائبها ومرابطها كل صباح وضهر ومساء ليسقيها أصحاب الأرض والعاملين عليها من مياه البحر.. وهذا البحر هو فرع من الرياح المنوفي المتفرع من عيون القناطر الخيرية وتختلط مياه هذا البحر بمياه أخرى تترل إليه بواسطة برابخ (مواسير) أو قنوات من الأراضي الزراعية حينما تكون هناك مياه زيادة بعد الري.. هذا البحر اسمه في الخريطة البحر الفرعوني وفي ألسنة الناس إسمه البحر الأعمى ويبدأ هذا البحر من بلدة كفر الخضرة البلدة التي تحف الرياح المنوفي عن طريق الأسفلت الممتد من القناطر الخيرية حتى الباجور ثم شبين الكوم.. يبدأ هذا البحر من كفر الخضرة وينتهي عند حدود أراضي ومدينة منوف ماراً بعشرات القرى من مراكز الباجور وأشمون ومنوف، هذا البحر نبع وخير لكل الناس الذين يسكنون على ضفافه في البَرين (الشاطئين) فيه من السمك أنواع لا تعد ولا تحصى وينتشر على ضفافه صيادي السمك بمراكبهم الصغيرة وشباكهم وبيوتهم وعششهم عند تارة هذا البحر (حرف هذا البحر) من الجانبين.. الفلاحون في بلدى لهم حكايات مع هذا البحر والصيادون لهم حكايات لأنه مورد رزقهم الأساسي.. ولقد كان

أبي يحب البحر فيذهب إليه ومعه جاموسه أو بقره أو حمارته ليسقيها ثم يدخل البهيمه التي سحبها معه الى البحر إلى مياه البحر لتستحم.. وفي كل مَّره يذهب إلى نزلة عامر وهي الطريق الوحيد إلى البحر.. ليسقى البهيمه أولاً ثم يدعها تنزل إلى البحر لتستحم وتحت الشجرة ينظر يمينا ويساراً حتى لا يراه أحد وهو يخلع ملابسه وينسل الرجل وهو يمسك عورته بكف يده.. ينزل ليستحم ويسبح حتى منتصف البحر ثم يعود إلى بهائمه ليجُّرها إلى عمق ما.. العمق الذى يغطيِّ الجاموسه حتى لا يظهر منها حتى رأسها.. وكل زيارة للبحر تستغرق ساعة أو نصف ساعة.. إن الذهاب إلى البحر هو برنامج عمل لكل فلاح يسكن في ملأة مريان.. البهائم تشرب وتستحم وأصحابها وأنفارها يستحمون فقط ولا يشربون.. وكان أبي يقول أن في استحمام البهائم كثير من الفوائد لأن في الاستحمام نظافة للبهيم.. ومياه البحر لو كان هناك بهيم يشعر بالانتفاخ أو به ألم الهضم (عُسْر هضم) فإن نزوله المياه تشفيه وتنهي تلك الآلام والمياه والاستحمام فيه متعه كبيرة للحيوان وهو مثل الانسان تعيده من جديد إلى قوه نشاطه، وكم كان الأنفار يحاولون منع أبي من التعب والذهاب للبحر فهم سيقومون بهذه الأعمال بدلاً منه إلا أنه كان دائماً يقول أن هذا مزاج له منذ الصِّغر.. يسقي البهائم ويحمِّيها ويستحم، وكان من فوائد هذا البحر أنه وسيله للإستحمام السريع فعندما كان ينتهي من لقائه بقدريه فإن يذهب إلىىنزلة عامر حيث البحر ليستحم ويتطهَّر ثم يعود إلى رأس غيطه طاهراً.. وكانت كل نساء ملأه مريان يذهبن إلى البحر لغسل

القمح ونشره على حصير في المساحة المتوفرة بين مياه البحر وحدود الحقول التي تحف بالبحر..

وعندما ظهر وبان أن شوقي له علاقة أكيده بفكيهه التي تسكن في بيتها الصغير قرب نزلة عامر.. فاحت أخبارها.. وكان أخوه محمود عنده علم بزواج حداد من قدريه ولظيمه فوق زوجتيه كان يضحك مسروراً بينه وبين نفسه لقوة أخيه حداد، وفي يوم عرج محمود على حداد وهو يدخل غيطه.. كان حداد يقف متأملاً عيدان القطن.. ناداه محمود :

– حداد تعال..

جاءه حداد – أيوه يا محمود..

– تبقه شوف موضوع فكيهه مع شوقي..

– الناس قالت لي..

– طيب إنت ماترضاش الحرام يبقه حوالينا..

– بس أنا عايز أتأكد..

– كلنا متأكدين.. تعال في أي يوم من البلد بعد العشاء..

– يعني الواد بيروح لها في الوقت ده..

– أيوه.. وساعات قبل طلوع الشمس.. الواد دا نجس..

– أنا عارف..

– دول شغّالين عندك وأنت في ايدك تنهي الكلام الفارغ ده..

– معاك حق أنا هاتصرّف..

– الله يرضى عليك..

وانصرف محمود إلى داخل حقله وانتوى حداد أن يبيت الليلة في الغيط.. ونبَّه على رجب النفر الدائم عنده أنه سوف يدخل غرفة التبن لينام قليلاً وعليه أن يوقظه فور ذهاب شوقي إلى نزلة عامر حيث تسكن فكيهه فابتسم رجب وقال في حياء :

– هيَّ وصلتك يابه الحاج..

– خلاص يا رجب زي ما قلتلك..

عندما يحل الظلام في الليل وتسكن حركة المارة على السكة يقعد شوقي عند باب المربط يرقب الطريق المؤدى إلى نزلة عامر حتى إذا تأكد من أن أحداً لن يقابله ذهب إلى دارها.. وكانت حركة الغيطان غالباً ما تهدأ وتخلو الطرق من أي مارة بعد أذان العشاء بقليل.. تابعه رجب حتى دخل شوقي دار فكيهه..

– هرول رجب إلى حيث يرقد الحاج حداد وقال له :

– يابه الحاج.. الواد دخل دار فكيهه دلوقتي حالاً..

قام الرجل ووضع عباءته فوق كتفيه وقال لرجب وهو يخرج من داره :

– تعال معايا.. خليِّك ورايا بخطوتين..

تنصت الرجل برأسه على بابها.. سمع صوتاً وكلاماً وهمساً .. تأكد أنه بالداخل.. نقر الباب فلم يفتح أحد.. نقره بشده فارتبكت في الداخل وفتحت ترباس الباب وقالت:

– مين..

– إفتحي يا أنيته..

– يالهوي آبه الحاج..

– إفتحي بسرعة وإلاّ هاكسر الباب..

– لأ هافتح.. هافتح..

دفعها بيده من أمامه واندفع بسرعة نحو باب الغرفة الوحيدة في الدار فوجده يقف في العرقوب وقد تهدَّجت أنفاسه وزعق الحاج وتناول قلّه من فوق الفرن ورماها بكل قوته نحوه فأزاحها شوقي بذراعيه قبل أن ترتطم بوجهه وقال في رجاء:

– معلهش يابه الحاج أنا غلطان..

– تعال.. بتعمل إيه هنا..

– كانت عَيانه قلت أبص عليها..

– هيَّ عيانه كل ليلة..

– ما هي.. ما هو..

جرَّه الحاج بيد وباليد الأخرى صفعه مرتين فالتوى شوقي أمامه ووضع ذراعيه وكفيه فوق وجهه فقال له كفي.. إنت عارف المربط.. روح إستناني يابن الزانيه.. فجرى نحو الباب وهو يردِّد حاضر.. حاضر.. وانقلب نحو مربط الحاج وهو يبكي وتبعه رجب إلى هناك..

أمسك الحاج بذراعها لحظة وفي اللحظة التي بعدها.. ناولها صفعتين على وجهها فصرخت.. وقالت :

– غيتني يابه الحاج ماليش غيرك..

– إنت نجسه والنجس مايحلبش بهايمي..

– ومنين آكل.. دانا غلبانه.. إسترني يابه الحاج.. ماليش غيرك ماتفضحنيش..

– هوَّ أنا نصير اللىِّ زيك.. ليك بنت وليك ولد إعملي خاطر لهم..

– غصب عني.. غصب يا عم الحاج.. أنا عايزة أتجوز جوِّزني مش إنت بتحكم بين الناس وكل الناس الغلابة تحت إيدك.. جوِّزني راجل غلبان ماتفضحنيش أديني قلت لك يابه الحاج..

ولّما إنتهت من كلامها شعر بأن قالبا من الطوب ألقى فوق رأسه كأن أحداً قذفه به من أعلى وقال :

– تعالى ورايا..

خرج من بيتها إلى بيته.. حائراً تائهاً وكأن فكيهه قد ألقت عليه مسئولية كبيرة وأنه لابد أن يعالج أمور الناس جميعاً في الملأه وليس الحل أن يمنع الناس عن العمل.. ولكن عليه أن يعالج ويعالج ويوجد حلول وعليه أن لا يفكّر في أمر نفسه فقط وأن هؤلاء الناس جميعاً مسئولين منه ولكن كيف.. خاطر رافقه حتى جلس فوق دكة النورج في مقابلة المصطبه وأشار باصبعه :

لاذ كل منهما بحافة المصطبه جلست عند حافة المصطبه على الأرض واستحى هو ولم يجلس ولكنه وقف يرتعش عند الحافة الأخرى بعيداً عنها فقال الحاج وهو يهز رأسه :

– أختك شنآنه مش كده..

– مش قادرين عليها.. جوزها راضي..

– إنت بتاخد حق أختك..

– أبداً مش معنى أنا..

– هوَّ فيه ناس تانيه شغاله..

– الملأه مليانه..

– طيب.. الحرامي بمسكته.. الحرامي بسرقته.. إنت ليه عملت كده..

– أبداً الدنيا حواليه أكبر مِّني.. ومش أنا لوحدي هوَّ أنا رحت لها غصب عنها..

– إتجوزها..

– وسعديه..

– هوَّ دا الحل الوحيد..

– لكن أهل سعدية يموتوني..

– مالكش دعوة أنا هاتصرَّف..

– يابه الحاج من إيدك دي لإيدك دي..

– عايزاه يا فكيهه..

– الحلال أحسن يابه الحاج..

– بكره هاجيب المأذون سامع يا شوقي..

– هوَّ حد ما يسمعش كلامك..

ونظر إليها شذراً

– كفاية شنآنه في الملأه..

وفي ضعف ورجاء قال شوقي :

– ياريت تلاقي لها حل زي فكيهه..

– أختك متجوزة هاجيب حل منين.. دا شنآنه بترقد لأي واحد.. لو كانت حتى مش متجوِّزة مالهاش حل لأن هاجوِّزها تلاتين واحد..

– طيِّب ما تنصح جوزها يربِّيها ويحبسها في البيت..

– مش ها يقدر عليها لأنها فتحت على الآخر وما تقدرش تبطل..

– مشيهم من الملأه..

– هاتروح حته تانية تبقه الدنيا ضاعت في حتت كتير..

– ياريت تلاقي لها حل وشنا بقه في الحضيض..

– هيَّ المشكلة إن مافيش حد منكم ماشي كويس.. شوف إنت وسليمان حرامي هوَّ شغال في الدره وصلاح زيه.. ماعدش غير عدوى..

– دا مالوش دعوة بحد تضرب تقلب مع نفسه..

– ياريت تمشوا من البلد كلها..

وفي اليوم التالي قام الحاج بتزويج شوقي وفكيهه وارتاحت الملأه.. ومن هذا اليوم لم يغب عن باله كيف يعالج أمر شنآنه..

مرَّت ايام بعدها وأرسل الحاج في طلب جوز شنآنه والذي جاءه هادئاً وفي برود جلس أمام الحاج في مربط البهائم فقال له في هدوء :إنت ليه سايب شنآنه..

– بتساعدني على المعيشة..

– إنت عارف إنها بترقد للناس كلّها..

– ماقدرش عليها دلوقتي ولو حبستها في البيت هاتجيب الرجالة في بيتي.. خليِّها بَّره أحسن.. تروح تعمل في الوسع.. إديني فدان وجاموسة تبقه لقمتي ملكي الأول وبعدين حاسبني.. إحنا طلعنا لقينا الدنيا كده..

– نغيَّرها..

– مين يقدر يغيَّر إنت ومحمود ودردير تقدروا تعملوا اللىِّ إنتو عايزينه لكن الفقير مايقدرش يعمل حاجة.. يابه الحاج إديني حريتي الأول.. إديني لقمتي بحق وحقيقي خليِّني بكدي بس أكفيها وأكفي ولادي.. لكن إذا كنت مش قادر أكفي نفسي.. يبقه الكل لازم يطلع يشوف له حل.. إحنا كلنِّا بنشتغل ويادوب بناكل وعلى فكرة شنآنه هيَّ اللىِّ بتجيب لنا اللقمة الطرية.. الموضوع أكبر مِّني يابه الحاج.. يابه الحاج أنا غلبان أوي وماقدرش أعمل حاجة..

– طيب عايز أشوف شنآنه..

– أنا سايبها في زريبه الشيخ عَّمار..

– مين معاها جوَّه..

– إبنه..

– خبَّط عليها وهاتها..

– ماليش دعوه..

– أد كده بقيت ندل..

– ياريت يابه الحاج تدوَّر بنفسك ليه أنا بقيت ندل.. وإذا ماوصلتش لحاجة تعال وأنا أحكيلك عن أبويا وجدي..

– أبوك وجدك كانوا كده..

– أنا ورثت عنهم كل حاجة.. تعال شوف حارة حسين حنضل وحارة أم الرزق الديبه وحارة شعبان فرج.. وشوف الناس اللىِّ في الحارات عايشين إزَّاي.. يابه الحاج إنت جيت عاالوجع اللىِّ مالوش دوا..

– طيب روح إنت أنا هاتصرَّف..

ومرت الأيام فيها طرد الحاج حسن نفره عدوى لأمر لم يفصح عنه حتى عندما سأله قريبه الحاج حداد لماذا طردت عدوي.. فقال الرجل كده وخلاص مش عايز حد من ريحة شنآنه أدَّامي.. ضمَّه حداد إلى شوقي ورجب فأصبح عنده ثلاثة أنفار بصفة دائمة وكان عليه أن يوجد لهم عمل في غيطه..

وكان رجب يسكن بصفة دائمة في زريبة صاحب الأرض وإذا زهق من إقامته في الزريبة طلع الى المربط لينام فيه، وبدأ شوقي بعد المغرب في كل ليلة يذهب إلى فكيهه لينام عندها فقد أصبح

زوجها.. ولم يعد غير عدوى الذي لم يتزوج بعد ورافق رجب في نومته فوق فرن الزريبه أو في المربط فوق كومة من الرتش.. ومن ليلة لأخرى شعر رجب بأن عدوى ينسلُّ من جانبه في منتصف الليل وأحياناً في الهزيع الأخير من الليل ثم يعود بعد وقت، في أول الأمر لم يهتم رجب بالأمر وقال إنه يخرج إلى أول الحقل يتبول لكن ذلك لا يستغرق خمس دقائق.. وفي تلك الليلة بعد منتصف الليل لّما قام عدوي كعادته كل ليلة تابعه رجب.. وجده يدخل المربط ويقف خلف حمارة الرتش.. خلع سرواله وانعدل قليلاً بعد أن وضع تحت قدميه قوالب من الطوب وراح يأتي بحركات غريبة كأنه يدهن جسد ومؤخرة الحمارة بمرهم.. إقترب رجب ليتأكد ماذا يفعل.. ياهوي ياللفظاعه إنه يعاشر الحماره.. يخرب بيتك ياعدوي هاتروح في داهيه.. آه لو الحاج عرف.. كتم في نفسه الخبر واحتار هل يقول لصاحب الأرض.. هل ينصحه هو بالابتعاد..

عن فعلته الشنعاء.. راقبه عدة ليال وشعر رجب بالحسرة عليه وفي ليلة من الليالي بعد أن تناولا شاي الرَّكيه في مدخل الزريبه فاتحه رجب قائلاً :

– إنت بتروح فين كل ليله..

– مانا نايم جنبك طول الليل..

– لأ إنت بتقوم وتدخل المربط.. ياعدوي أنا شفتك..

– شفتني إزَّاي مش فاهم..

– لو كنت بتصلّي عمرك ما كنت هاتعمل كده..

– أعمل إيه.. قولىّ أنا باعمل إيه..

– ياعدوي بعينيه دول اللىّ هاتاكلهم الدود بشوفك.. بتعمل إيه في الحماره..

– أنا أبداً.. (وارتبك وتلعثم) دانا بدّلك ليها علشان قرّبت تولد..

– طيب بتقلع سروالك ليه.. وبتحط طوب تحت رجلك ليه.. شوف عيب اللىّ بتعمله ده..

– إنت قلت لآبه الحاج..

– قلت أقولّك الأول علشان ماظلمكش..

– طب هاروح فين إنت عارف أنا مش متجوّز وماقدرش أتجوز.. طب قولّي أعمل إيه وبعدين هوَّ أنا بضرحد.. مش أحسن ما ألوف على واحدة في الملأه واتفضح زي شوقي..

– بقولك إيه.. هوَّ إنت عملت كده عند الحاج حسن.. سرَّك في بير..

– صحيح هاتستر علىَّ..

– عيب قول ياعدوي..

– كنت شغال مع الركوبه بتاعته..

– الله يخرب بيتك أد كده إنت فاجر.. وبعدين..

– مسكني بعملتي وخدني من قفايا وعلى بَّره..

– بس الراجل دا كويس المفروض كان غَّرقك في البحر..

– على فكره الحمارة الركوبه حاجة تانيه خالص غير حمارة الرتش..

– يعني إنت معلّم حمير..

– خلاص الله يكرمك يا رجب سيبني غصب عني وماتقولش لعم الحاج..

– أنا محتار ماعرفش أعمل إيه..

كانت الكلاب الثلاثة عندما تنام في الليل فكل واحد فيهم ينام في مكان منفصل عن الآخر.. أصغرهم ينام بين باب المربط وباب الزريبه والوسط ينام عند الباب المؤدى إلى مدخل الغيط وأكبرهم ينام خارج باب البيت الرئيسي فوق القنطرة.. وكان العرف بينهم إذا رأى أي نفر طالع خارج فإنه يكمل نومه لأنه لا خطر أما إذا رأى أي منهم غريباً يخترق الحدود فإن كل منهم يهبره ولا يتركه سليماً.. كان الكلب الصغير الذي يحرس بهائم المربط يرى عدوى كل ليلة وهو يدخل المربط ثم وهو يخرج منه فيكمل نومه لأنه واحد من البيت.. لكن في ليلة من الليالي سمع همهمه وأصواتاً غريبة تخرج من وسط البهايم بعدها سمع الحمارة تنهق بصوت عال ومستمر فقام ودخل بين العجل والبقرة والجمل فلم يجد شيئاً لكن في العرقوب المواجه وجد الحمارة تجتر وعدوى يأخذ سرواله من فوق الأرض ويرتديه فعوى عليه الكلب وكاد يهبره.. لكن عدوي قعد على الأرض وراح يحتضن الكلب ويقبّل رقبته.. وكان يتملّص من بين يديه لشعوره بأن هذا النفر الجديد يأتي بأفعال يراها الكلب لأول مرّه..

في صباح اليوم التالي وصل الحاج دار الغيط وكالعادة قابلته الكلاب بزفتها حتى قعد عند الراكية ليتدفأ.. وكان كل من رجب وعدوى يقمّران (يسخنان) بواقي خبز على النار ويغمسانه بالجبنه فراح الحاج يشاركهما الطعام.. جلس الكلبان الكبير والوسط قرب الحاج الذي أخذ يرمي اليهما ببعض بقايا الطعام.. غير أن الكلب الصغير راح يعوعو.. يقترب من عدوى ويصرخ ثم يهرول نحو باب المربط ويدخله حتى يصل الى الحماره ويعوى.. ولّما وجد الكلب أن أحداً لا يفهمه.. أمسك الكلب بكم جلباب صاحبه وراح يشدُّه إلى المربط فقام الحاج معه حتى وقف الكلب خلف الحماره وراح يعوى عواء الكلاب التي إذا ما سمعهما كل صاحب كلاب قال.. هناك مصيبه هاتحصل.. إنحنى الحاج على الكلب وطبطب على ظهره وقال له : تعال.. فتبعه الكلب وهدأ قليلاً وقعد خلف صاحبه، وكان للحاج خبرة بالكلاب فهو منذ صغره يعيش وسط الكلاب والحمير والجاموس والبقر.. وكان للكلاب لغة خاصة يفهمها ويعيها ويكاد يفهم كل حركة للكلب ماذا تعني.. جلس الحاج ثانية بين نفريه وهزَّ رأسه وقال في ثبات وهدوء:

– يا رجب إيه اللىّ حصل إمبارح في المربط..

إنفلج رجب

– مافيش أي حاجة حصلت..

– عمر الكلب ما يعمل كده لوحده.. (وران ببصره نحو عدوي) واكمل :

– مافيش حاجة شفتها إمبارح ياعدوي..

تلعثم وارتبك

– أنا طول الليل نايم جنب رجب..

– يبقه إنتو الإتنين ماتنفعوش.. بياتكم في الغيط زي قلّته.. كنت فين يارجب إمبارح.. إوعه يكون ليك صاحبه بتروح لها بالليل زي شوقي..

– لأ والله يابه الحاج..

– طيِّب قوم يا عدوي سيبني شويه مع رجب..

قام عدوي وهو يرتعش وخرج من زمام البيت حتى وصل إلى قناة الري الرئيسية للغيط وراح يكلمِّ نفسه خائفاً.. إذا ضغط الحاج على رجب فإنه سوف يفشى ما فعلته لأنه في النهاية بيحافظ على لقمة عيشه.. يارب ما يقول.. تبقه مصيبه هاتفضح في الملأه.. هيقولوا علىَّ بتاع الحمير وساعتها الناس دي كلها هاتاكل وشي..

قضم الحاج غيظه وقال لرجب في صرامه :

– بقالك بتشتغل عندي خمس سنين.. آمنتك على غيطي وحالي كله.. لازم تقول إيه اللىِّ حصل يا رجب..

وراح رجب يبكي.. فهز الحاج رأسه ومَّد يده وطبطب على كتفه وطفق :

– قول يا أمين. قول يا رجب..

مسح دموعه بكم جلبابه وشهق ثم سعل بعدها قال :

– يابه الحاج عدوي.. وسكت..

– قول عدوي إيه..

– بيـــ بيـــ..

– ياخبر أبيض النهارده قول عدوي إيه..

– بينيِّل الحماره..

– تقصد إيه.. بيضربها قول إشرح قول الحكايه..

– يابه الحاج بيقوم من جنبي بعد نص الليل كل ليله وبيروح المربط.. يركب الحماره ويعمل فيها زي ما تكون مراته..

– كويس كويس.. يبقه الحاج حسن مسك الواد بالعمله دي برضه..

– مش عارف يابه الحاج..

– طيب وانت قلت له إيه..

– نصحته ومافيش فايده..

– إنت رأيك إيه يا رجب.. الواد بعد كده له قعاد عندي..

– الحق يابه الحاج دا واد نحس..

– أنا مش عايز أظلم.. ماقدرشي أقعد واحد زي ده.. دي كارثه..

– صح يابه الحاج..

– مش المفروض ياخد علقه..

– يستحق..

– خليِّ بالك إن دي حمارتي.. بكره يروح للجاموسة وبعد يروح للبقرة.. وبعده ماتعرفش هايروح فين..

– المثل بيقول إقطع عرق وسيَّح دم في الأمور دي..

– طيب روح هاته..

وضع الحاج كفى يديه على وجهه كأنه يتخذ قراراً..

أتى به رجب.. نظر إليه صاحب الأرض نظره نافذه غاضبه ثم قال في حزم:

– لم هدومك وتعال..

إنصرف ومشى مطأطئ الرأس ودخل من الباب الثاني للدار.. ولَّم جلبابه وأثمال باليه أخرى لفَّها في جلبابه وانقلب إلى الحاج فقال له :

– قرَّب شويه..

(إقترب وأصبح في حوزة ساعديه) بصق في وجهه ثلاث مرات.. ثم قال :

– حرام أمد إيدي على نجس زيك..

إنحنى على كفي يديه ليقبِّلها فأزاحه الحاج قائلاً :

– لوشفتك في الملأه دي تاني هايكون آخر يوم في عمرك..

– سامحني يابه الحاج..

– أسامح إزاي وانت زنيت في داري..

– طب أروح فين دلوقتي.

– البلد واسعة.. روح رحيله روح الحوض.. روح شروة حسن.. وعلى فكره كل ما تروح حته هايكر شوك..

– مانتش عارف حد في مصر أروح عنده..

– يعني أنا راجل مجنون أبتليه بمصيبه زيّك..

– يعني خلاص..

– إمشي من أدّامي يا كلب..

وعلى السكة جرى نحوه الكلب الصغير وهبره من ساقه..

***

"أسرار البيت الكبير"

كانت أم حسن في الشهور الأخيرة للحمل عندما بدأ حسن يتكلّم كلاماً مفهوماً ويمشي بقوة على الأرض.. كانت تقوم بأعمالها اليومية ماستطاعت وكانت أم إبراهيم تغنّي فرحه بقدوم مولود جديد وبدأت السيدة لبيبة تسلّم بالأمر الواقع وهدأ نشاطها في أعمال السحر التي كانت توصي بها عمتها أم الرزق دائماً، كانت تضع الأعمال التي تصلها من عمتها تحت خشبة خلف حنفية الوش بعد أن باتت ترضخ للأمر الواقع وأن حميدة بدأت تثبّت أقدامها بالفعل خاصة بقدوم البطن الثالثة.. تناولها عمتها أم الرزق الأعمال وهي غالباً ما تكون في أحجبة أو كمية من الشعر ملفوفة في قطعة قماش فتقول لها :

– أعمال كدَّابه.. زي قلّتها..

فتقول لها عمتها :

– أصبري..

شعرت باليأس لدرجة أنها كانت تضع الأعمال عاريه ومكشوفة خلف الحنفية أو صومعة القمح، كانت تصلّى بصفة دائمة في غرفتها، وعندما بلغ حسن العامان أعلنت عن صلاتها خارج الغرفة.. تفرش مصلّية حصير أمام باب الغرفة وتصلي وبعد الصلاة تقوم بالإستغفار على حَّبات مسبحه حباتها تسعة وتسعون حبه لونها بني.. وكان حسن يمشي نحوها وهي تصلّى ويقول.. أكبر ويرمى بنفسه فوق المصلية أمامها فتسجد فوقه في رفق وعندما تنتهي من

صلاتها تأخذه في أحضانها فيجلس في حجرها قليلاً ويخطف المسبحه من بين يديها ويجري إلى المندره وكان كثيراً ما يقع على الأرض فتهرول نحوه وتحمله وهو يصرخ وتقول :

– العين عليك بارده.. إسم الله عليك وقعت على أختك أحسن منَّك..

وكانت حميدة تسعد لهذه المداعبات لإبنها وتقول في سِّرها.. ياهادي يارب.. ولم تكن لبيبه تحن على سعاد أو تحضنها بنفس القوة كما تحضنُ حسن.. ولذلك نشأت سعاد أختى في صغرها تنشئه جافه بين أحضان صدر محروم من الخلفه.. ولم تكن سعاد تستطيع أن تغادر مكانها مع أمها لبيبه وتذهب إلى أمها وإذا ذهبت إلى فهي لا تندفع إليها وكذلك فإن أمها تقول لها : روحي لأمك.. كواجب وود نحو لبيبه ولكي تشعرها دائماً أنهما شركة في الأبناء.. وكانت لبيبه تسعد لذلك ولكن سعاده لا تدخل إلى القلب ولكن هي سعاده لا تتعدى طبلة أذنيها.. كانت الأعراف في ذلك الوقت إذا أنجبت الزوجة بنتاً فكأنها لم تلد وكانت البنت شئ قليل والجميع ينتظر الولد في شوق والبنت يزيحونها على جنب.. لكن أبي كان يأخذ سعاد في أحضانه في بعض الأوقات وعندما يعود من دكان عبده أبو سعده كل ليلة يشتري لها بقرش حلاوة.. وفي هذا الوقت كانت الحلاوة الطحينية هي الحلوى المرغوب فيها والتي يتمناها أي طفل أو غلام ولم يكن هناك من الحلوى غير الحلاوة الطحينية والكراميله.. وعندما كان والدي يذهب إلى السيدة لظيمة البدري في الكفر كانت تعطيه دائماً قطعة من حلاوة جوز الهند وكانت ترسل دائماً مع أي واحدة ذاهبه إلى أشمون لتشتريها خصيصاً لحسن إبن

الحاج.. وكان الناس في الكفر يعملون ألف حساب لعلاقة الحاج بلظيمه.. فمنهم من يقول أنه قريبها.. كان صديق زوجها.. إنه خالها.. إنه سيتزوجها.. أو هو عاشق لها وفي كل هذه الأسقف الكلاميه المتداولة بين الناس.. يقول الجميع في النهاية إنه الرجل الطيب الودود الذي يود الناس.. فتقول كثير من النساء ياريتني كنت لظيمه وخالي الحاج حداد، وكان الناس في أهله يقولون.. الحاج بيحب الكفر ولظيمه بتحب الحاج.. ومحمود يقول بتحبه بالجلابيه والعبايه والمسك اللىِّ بيتريحه وفلوسه ودقيقه وأقفاص الوز والبط.. ودردير يقول.. علشان متعلّم ليه نص البلد.. ياخويا مافيش ولا واحدة بتقول ياخال دردير.. فيقول له محمود على إيه يادردير وهوَّ مين يقرَّب منك دا إنت بتعض عمرك ما قبلت حد ولا خبِّيت حد.. الله يرحمك يامرات عمي.. وكان محمود يقصد قطيفة أم دردير وهي المثل في أولاد أبو عافية والخارجة والعزبة البحرية وملأة مريان مثلُ البغُض والكراهية وكان الناس من أعيان عائلة القطان رجال ونساء يقولون عنها ومين يقدر على قطيفة دي سمِّت بنت جوزها وسكت الحاج على عليها.. لكن ليه سكت.. الناس في البلد كلها يقولون ليه سكت.. قطيفة خلّفت دردير والسيدة وشفيقة وفتاة أخرى كانت غير جميلة ولم تخلّف وعادت إلى قطيفة في بيتها حتى ماتت.. ومرَّ جدى على حسين في حياته بثلاث مراحل.. مرحلة الذهب التي فيها فتح زلعة أبيه ليخرج منها الذهب شيئاً فشيئاً ليشترى الأرض.. والمرحلة الثانية موت أخيه السيد قبل أن يبلغ الثلاثين عاماً وتبنيه لإبنه محمود وكان دائماً يأخذه معه في أي مكان يذهب إليه ويقولون أنه كان يخاف عليه

من أولاد محروس أن يقتلوه لدرجة أنه أخذه معه إلى الحجاز ليحج وعمره ثلاثة عشرة عاماً.. والمرحلة الثالثة صراعه مع الناس واحتوائه الكامل لإبنه حداد وكيف حافظ عليه حتى كبر بعيداً عن خطر قطيفة وكثير من الحكاوي.. كل هذا ما علمته حميدة أم حسن عن أهل حداد وأبوه وأخوته ولكنها كانت تريد دائماً أن تعيش في مكان وتعرف ما حولها ماضيه وحاضره وكيف يكون مستقبل هذا البيت.. عقدت العزم على مفاتحته في كل شئ.. وفي ليلة أخذها إلى القاعة فأطاعته وأعطته نفسها رغم أنها في شهرها الأخير.. بعد ذلك جلست معه في المندرة قبل صلاة الفجر، جلس هو على كنبه وجلست هي على كنبه في مواجهته وهي تضع فوق حجرها حسن وتحتضنه، قالت له في ود :

– بعد كده أعذرني مش هاقدر تاني.. شايف بطني قرَّبت..

– ربِّنا يبلغك السلامة..

– روح بعد كده للبيبه..

– أنا عارف هاعمل إيه..

– ياحاج أن عايزة أعرف كل حاجة عنَّك..

– عايزة تعرفي إيه..

– إنت بتحب أخوك دردير كإن مافيش حاجة..

– أخويا لازم أحبه..

– مش أمه سمِّت أختك..

– وش عرفني إنها سمِّت أختي..

– البنت قالت وهي بتموت والناس كلّها بتقول كدة لغاية النهاردة..

– لكن حد شاف حاجة ماحدّش شاف حاجة.. أهو كلام..

– ياه أد كده مسامح..

– والله أبويا قال طالما مش متأكدين هانعمل إيه ولو اتأكدنا هاعمل إيه..

المشكلة إنها بنت عمه وعيب نقع في مشاكل زي دي واحنا بيوت كبيرة..

– يعني أبوك ردم على الموضوع..

– الموضوع كان لازم يتردم عليه ونسكت ونصبر ونترك الأمر لله.. لأن ماحدّش ماسك حاجة..

– وإنت مشيت ورا أبوك..

– عيب أقول حاجة غير الّلي بيقولها.. دا الكبير والكل بيمشي ورا كلامه..

– كان المفروض يمشّي قطيفة..

– والبنات تروح فين..

– تقصد السيدة وشفيقة والتالتة كان إسمها..

– كمونه..

– السيدة أم عبد الحميد وشفيقه أم مجيده ومنوفي.. وكمونه إتجوزت وماخلّفتش..

– أبوك ماخفش عليك من قطيفة..

– خاف..

– نبِّه على كل اللّى في البيت إن لا آكل إلاّ في وجوده ولا أأكل من إيد قطيفة وقال لها كده.. لو أكلت حداد في غيابي أو حضوري هاقتلك.. كنت أأكل في حضور أبي ومعه.. وكان دردير يأكل معنا ويقوم من على الأكل ويدخل لأمه لتعطيه المزيد فإذا قمت بعد أخي.. يقول أبي لي.. رايح فين كُلْ ده داخل لأمه.. وإنت هاتدخل لمين..

– أمك ماتت إمتى..

– كان عندي سنتين..

– وأختك..

– كان سِّنها ست سنين..

– سمعت إن خالك اللىِّ ربَّاك..

– فعلاً خالي محمد أبو لبيبه وكانت ستى أم أمي عايشه عملت لي كتير وأكلتني كل حاجة من إيديها وكانت تبكي وهي تطعمني..

– خالك محمد كان طيب..

– كان أطيب واحد في درويش..

– خالك كان فقير سمعت كده..

– كان فقير لكن كان غني بأخلاقه وطيبته..

– عشت في بيت خالك كتير..

– لغاية سِّني سبع سنين إلى أن وعيت..

– كان أبوك بيِّديهم..

– كل حاجة علشاني وعلشان هِّم أهلي اللّي ربوني وحموني بعيد عن قطيفة..

– يعني لولا أهل أمك..

– دي حقيقة وأبويا عارف كده وكان جزيل العطاء بهم.. لولا هُمَّه..

– كنت هاتموت..

– أكيد.. دي كانت ست ماجاش زيِّها في الكره والغل.. قلبها كان زي قلب الكلب الإسود..

– علشان كدة بتحب دار خالك..

– عندي حق ولاّ لأ..

– بصراحة آي أنا رخره مدينه

–

– لهم..

– بجد يا حميده..

– آي والله..

– طيِّب ماتزعليش لمَّا أكون حنيِّن عليهم..

– لأ مش هازعل.. بس مايجوش البيت.. إدِّيهم من بِّره لبَّره..

– على أد ما قدر.. فعلاً مجيُّهم بيضايقك ولكن خلّينا واحدة واحدة..

– لكن إنت بتحب دردير أوي رغم إنه إبن قطيفة..

– ودردير ذنبه إيه.. أنا ماعرفش أكره..

– يمكن دراستك في الأزهر نوَّرتك شوية وبيَّضت قلبك..

– لأ والله.. أنا من صغري لا أكره..

– واخوات دردير البنات.

– بيحبوني اكتر من دردير..

– ليه.. هيَّ جاية من عند ربِّنا وكانو بيزعقو لأمهم علشاني وعلني أدَّام كل الناس اللّى بتدخل البيت..

– كانوا عارفين حقيقة أمهم..

– كانوا عارفين إن أمهم خميرة من الظلام.. كانت بؤره من بؤر الجهل والبغض راحت..

لما ماتت أبويا إتشال من على صدره جبل كان راقد على نفسه.. وكان دائما عندما يأتي أحد بسيرة قطيفة.. يقول روحي الله ما يرحمك ويظلّم قبرك..

– وبعد كدة أبوك بقه من غير زوجة..

– وطول عمره من غير زوجة.. أمي ماتت بدري وقطيفة كلاب البلد ماتقبلهاش..

– عرفت إنه.. كان فيه واحدة..

– إسمها.. كانت ست جميلة وبديعة وادارجيه رافقت أبي حتى موته وكان كثير من الناس يقولون الراجل عشق على كبر..

– صحيح..

– عرفنا بعد كدة لّما مات.. عرفنا الحقيقة في ورقة جواز رسمي وجدناها في الصندوق..

– ياه.. والناس عرفت..

– كل حاجة قلتها للناس علشان يتقطع الكلام على أبويا..

– أبوك كده كان راجل دماغ..

– إنت عارفه كان متجوزها إمتى..

– إمتى..

– من أربعين سنه

– أبوك مات سنه كام

– كذا وتمانين..

– هايل خد حقه..

– الله يرحمه..

– أنا كده عرفت الحقيقة منّك.. أنا كده عرفت اللّي فات وإن شاء الله إللّي جاي هايبقه أحسن..

– يارب..

كان الفلاحون جميعاً أصحاب أرض وأنفار يواظبون على أداء الصلاة في أوقاتها.. وفي الملأة توجد ثلاث مصلّيات للصلاة جماعة.. مصلّية فتح الله حجاج تقع عند الساقية الكبيرة الخاصة بحداد

ومحمود ودردير وسميت بهذا الإسم لأنها ملاصقة لدار فتح الله التي تحف الساقية من بحري وتتسع هذه المصلية لعشرة أنفار وهي مفروشة بقش القمح والإمام في هذه المصلية عادة ما يكون فتح الله وإذا وجد الحاج حداد فهو الذي يؤم الصلاة، والمصلية الثانية تقع على تارة البحر مقابل دار محمد الهلالي وتسمَّى باسمه وهي تفيد كل الذين يستحمون في البحر أو يتطهرون فيصعدون الترل (نزل عامر) ويصلُّون فيها والذي يؤم الناس فيها محمد الهلالي إذا لم يوجد الحاج حداد، والمصلية الثالثة تقع على المسقة الشرقية قرب دار الحاج حسين والذي يؤم الناس فيها محمد أبو شاطيه.. وكان من أجمل العادات أن أهل الملأه الذين يقيمون الصلاة فيها عندما ينتهون من صلاتهم خاصة صلاة العشاء يقعدون بالقرب منها في دائرة على الأرض ويشعلون النار في راكية (حفرة) يحفرونها في الأرض ويتكلمون في كل أمور الغيط والزرع والقلع والبحر والصيد ولبن الجاموس والبقر وأسعار كل منها في سوق الخميس أو سوق الأربعاء أو سوق السبت.. وهى الأسواق الثلاثة وتقع في شنشور سوق الخميس، والأربعاء سوق أشمون، والسبت سوق منوف وهذه هي الأسواق الثلاثة القريبة والتي فيها يشترون بهائمهم ويبيعونها ولم يكن في الملأه تاجر مواشي واحد ولكن كان أشهر تجار القرية في المواشي أولاد شراره وهم يتاجرون في السقط.. يعني المواشي درجة تانية وتالتة والتاجر الوحيد القوي والمشهور في قريتي هو الحاج إبراهيم على وتقع داره في شروة حسن.. لكن في ليلة من الليالي بعد صلاة العشاء كان حديث من تجمَّع حول الراكية عن حدث واحد.. هو مظاهرة قام بها أطفال الملأه من سن ثماني سنوات وحتى

سن خمستاشر سنة لفُّوا الملأه سُبعه (يعني كثيراً أكثر من سبع مرات رايح جاي على جسر الترعة يمين وشمال من دار أبو القاسم السوداني وحتى دار شوقي الهلالي عند البحر.. بحماس وبصوت عال.. ياشنآنه عيب عيب كُبَّه تاخد المتاعيس.. كفايه علينا صغيَّرين لما نشوف المجرمين.. ياشنآنه عيب إحنا لسه صغيَّرين.. أوقفهم فتح الله حجاج حتى يكفوا ويذهب كل منهم إلى داره فلم يقدر عليهم، أوقفهم أحمد سليم محاولاً تهدئتهم فلم يستطع، أوقفهم الحاج محمود وانصرفوا بعد أن وعدهم بأن كبار الملأه سوف يعالجون الأمر من الليلة..

بعد صلاة عشاء هذه الليلة إلتفوا حول الراكيه بجوار مصلية فتح الله وقرب دوران الساقية الكبيرة وراح صلاح حجاج يصب الشاي ويوزعه على من يلتف حول الراكيه.. الحاج حداد ودردير ومحمود وعبد الرازق وأحمد سليم وفتح الله وعبدالعال.. قال فتح الله وهي ينظر في وجه عمه حداد :

– إنت أول واحد فينا حافظ للقرآن وكلّك حركة في البلد كلها في حل مشاكل الناس.. معلهش ياعم الحاج بتحل مشاكل الناس كلها وماعرفش ليه مابتحلش مشاكلنا..

هَّز حداد رأسه وقال :

– تقصد حكاية شنآنه..

– أيوه..

ويقول محمود :

– العيال فاضت بيها دا بقه عيب لّما العيال تقرف من أفعال واحده زي دي واحنا لسه ماضجّناش..

ويتابع دردير :

– هَّو الكلام ده لسه النهاردة شنآنه من زمان شغَّاله واحنا كلّنا ساكتين..

ويقول عبد الرازق :

– الناس صاحبة الأرض في إيدها الحل..

ويقول أحمد سليم كأنه يريد أن يفهم :

– مش فاهم.. مش معنى أصحاب الأرض..

فيقول له عبد الرازق :

– اللى يملك يحل ويربط..

فيقول عبد العال :

– هيَّ بتخش أرض مين أكتر..

وفي صراحة يقول حداد :

– أرضنا كلّنا وهي على طول لابده في الشرق..

ويكمل فتح الله :

– علشان الشباب هناك كتير وبياخدوها عند الساقية وكأنه يدافع عن نفسه وعن إخوته ويقول دردير :

– الحمد لله ولادنا لسه صغيَّرين..

أحمد سليم يقضم غيظه ويقول :

– بكره يكبروا ويعملوا زي الكبار ما بتعمل.. ملإتنا ماكنتش كده..

ويقول محمود وكأنه يصدر قراراً لا رجعة فيه :

– دي تمشي وجوزها واخواتها الأربعة معاها من بكره..

وفي حكمه يقول حداد :

– هاتيجي إزَّاي.. دا قطع عيش همَّ ناس من البلد برضه مش عايزين نظلم.. الظلم ظلمات يوم القيامة..

يسكت الجميع عندما تكلَّم حداد عن الظلم..

لكن عبد الرازق قطع صمتهم :

– يبقه تتسَمْ..

شعر الجميع بالذعر من اقتراح عبد الرازق ولكن أحمد سليم قال:

– نغرَّقها في البحر..

يكمل محمود :

– ده قتل وده قتل.. يبقه ندى الموضوع لجبر صميده وندِّيله قرشين..

يرفع حداد كف يده لأعلى كأنه يقول لهم كفاية ولَّما أنزل يده قال :

– خلّيني أبعت ليها بكره وأشوف الموضوع معاها الأول..

.. وسكتوا جميعاً وكأنهم لم يصلوا إلى شئ وقالوا جميعاً واحداً بعد الآخر :

– خلاص الحاج حداد يشوف الموضوع معاها الأول..

لكن محمود الذي يحّبذ قتلها قال :

– لكن الموضوع لازم يتعالج بسرعة وقطع بتر..

أكملوا شُرب شايهم وتناثر الحديث بينهم عن أشياء أخرى ثم إنصرفوا كل إلى داره.. وذهب أبي إلى دار الغيط فاستقبلته الكلاب الثلاثة بكثير من الحفاوة وأخبره رجب بأن الست قدريه منتظراه جوَّه..

دخل اليها ونقر باب غرفة التبن وفتحت له فوجدها باكيه فقال لها :

– فيه إيه..

– إبني كردي..

– عمل إيه..

– كرشني من البيت..

– ليه..

– مش طايق يشوفني علشان أنا على علاقة بيك..

– دا عايز يتأدب على العموم دي دارك.. خلّيك هنا ولا يهمك هاجيبلك كل ما يلزم للمعيشه هنا وأشوفه عايز إيه..

– صحيح ياحاج..

– مش إنت مراتي أدَّام رِّبنا.. خلاص يكفيك الغرفة دي..

– إنت راجل أد الدنيا.. إنت مالكش حد مثيلك ياحاج.. بس أنا خايفة من مراتاتك..

– الموضوع دا بتاعي أنا..

– طيِّب عايزه هدومي..

– روحي هاتيها الصبح..

– وإذا ضربني..

– دي تبقه مصيبه آخدلك حقّك..

– طيب عرَّفه الحقيقة ياحاج..

– أوي أوي..

كان أبي يشعر بأن حائطاً وقع على رأسه هذه الليلة فترك لها نفسه ونام على بطنه وعرَّى ظهره لتكب فوق جسده كاسات الهوا.. وشعر بأن البرد يملأ ظهره وأن جسده موجوع من الهموم التي ألّمت به دفعة واحدة.. نام أبي وهي تداويه وحتى الصباح لم يلقاها ونامت إلى جواره منكوده ولّما بزغ نور النهار قال لها :

– سخَّني ميه..

– حاضر ياحاج..

وفي كانون صغير قرب باب الزرييه الداخلي أشعلت النار تحت حلّة كبيرة وتركتها تغلى وذهبت اليه وقالت :

– عايز حاجة دلوقتي..

– لازم الدنيا تمشي مش هاتقف معايه..

– مش فاهمه..

– روحي إتشطفي وتعالى..

– حاضر ياحاج..

وكان في دار الغيط كنيف له باب دهنت أرضيته بالأسمنت وبصفة دائمة به إبريقان من الفخار مملوءان بالماء..

ودخلت إليه وخلعت ملابسها وقفلت الباب وقعدت إلى جوار رأسه كعادتها تمرِّر أصابعها في شعر رأسه القصير وقالت له :

– شايفني..

– شايفك..

– طيِّب ما تقوم..

قام أبي وخلع جلبابه وعلَّقه فوق وتد بالحيطة وانقلب اليها.. وقبل أن تلمسها يديه قالت :

– ربَّنا يخليك ويبارك فيك للغلابة اللّى زيي..

– خلاص بقه يا قدريه مش عايز كلام..

– ياريت مارحش لإبني تاني..

– قلت بلاش كلام..

***

"شنآنه في غرفة التبن"

أرسل أبي شوقي ليحضر شنآنه فوجدها في داخل زريبة عوضين السطوحي فنقر الباب فقالت :

– مين..

– أنا شوقي أخوك..

– عايز إيه..

– أبويا الحاج عايزك..

– الحاج مين..

– الحاج حداد..

– يالهوتي دانا وصلت.. معقوله..

– أنا ماشي وتعالى ورايا بسرعة..

– وراك.. بس أغيَّر هدومي..

عاد شوقي إلى أبي وأبلغه بأنها قادمه فهَّز رأسه وخرج من باب المربط ليشَّق على أول الأرض وجلس عند أول فلقه ذرة.. وكان رجب النفر الأول عنده قد ظنَّ أن الحاج إنحرف وأنه يريد شنآنه ليلتقى بها فاقترب من شوقي وقال له هامساً :

– شنآنه جايه صحيح..

– أيوه الحاج عايزها

– ليه

– وأنا مالي مش عارف..

– مش أختك..

– أنا في حالي لمّ دعوه ببيتي ومراتي بس..

– على الأقل مش قدَّامك..

– بقه أنا هاعمل حُرْ على الحاج.. دا كلاب الملأه قطعَّوها..

– أنا مش مصدَّق..

– ياخبر بفلوس بس لما تيجي هامشي..

– هاتروح فين..

– هاروُّح..

– أد كده بتوسع لأختك..

– جوزها أولى بيها..

وكانت قدريه قد ذهبت إلى دارها في البلده لتحضر هدومها وحاجياتها.. قليل من الوقت ودخلت شنآنه من الباب الكبير ومنه إلى باب الزريبه وهي ترتدي جلبابها الشفاف الذي يظهر كامل جسدها وعلى عجل قالت :

– واد يا شوقي أبوك الحاج جوَّه..

– لأ.. جوه في الغيط..

– إبعت هاته أنا جوه..

– طب إستني لما ييجي

– يا وسخ مش ها تعرفني أمشي إزاي..

وكان رجب يشعر بالحسره لظنه أن الحاج طلبها ليلقاها.. وراح يضرب كفاً بالأخر ويقول :

– سقطت الملأه كلّها النهاردة.. لا إله إلا الله.. لا حول ولا قوة إلا بالله..

وفي سرعة البرق أبلغ شوقي الحاج بوصولها وانها دخلت جوه.. أخذ الحاج يهز رأسه ويقول :

– جوه .. جوه ليه..

ولم يجبه شوقي لأنه فر من خلفه إلى داره حتى لا يرى أخته أمام عينيه في أعمالها اليومية.. تنحنح الحاج ودخل من باب المربط فوجد رجب يقول.. لا إله إلا الله .. فردَّ عليه بصوته الجهوري الأخنف :

– لا حول ولا قوة إلا بالله..

– آي والله يابه الحاج..

– الآنيته دخلت جوه..

– أيوه..

– هاتها بتدخل ليه..

وتهلل وجهه وتهدجت أنفاسه فرحاً وهرول ليأتي بها فوجدها عاريه راقده في غرفة التبن فوقف لحظة ينبهر بجسدها وقال متغلباً على نفسه :

– تعالى عمك الحاج عايزك بره..

وضحكت ضحكة كل أنيته (فاجرة) وقالت ساخرة وهي تترع جسدها من فوق الأرض:

– هي الناس بتعوزني برَّه ولاَّ جوَّه..

وقفت أمام أبي ترتدي جلبابها العاري فقال لها وهو ينظر إليها شذراً :

– حطي على نفسك عبايه.. هات لها حاجة تلبسها يارجب..

– حاضر..

جاء بعباءة له واعطاها إياها.. إرتدتها فتدارى الجسد الخال من الحياء، وجلس الحاج القرفصاء وقال لها مشيراً إلى حرف المصطبه :

– أقعدي أدامي..

قعدت وهي مشدوهة ماذا يريدها.. أهو درس في الأخلاق كما تعود منه الناس.. طيب ما يقول لنفسه قدريه معاه علني من سنين وأسكتها عن ظنونها وقال في تريث:

– شوفي أنا سايبك سنين لكن الموضوع زاد عن حده.. وسكت برهه ثم طفق :

– العيال إمبارح فاضت بيهم حكايتك مشيو في كل حتة في الملأه.. كانوا يستغيثون منك..

– مش فاهمة يابه حداد..

– آبه يقرصك.. إلهي تعبان يمص دمك.. البعيدة ما عندهاش دم..

– إنت عايز إيه ياشيخ الملأه..

– عايزك تبطلي..

– أبطل عيشه.. الناس عايزه كده..

– إشتغلي في أي بيت وكلي لقمة حلال.. دا كل فرع في مريان مال عليك..

– ولاد الناس اللى معاهم فلوس هم إللى بيدفعوا وأناعايزه الفلوس..

– جوزك بيشتغل وولادك بيشتغلوا وإخواتك.. الدور كلها نسوانها بتشتغل..

– دول بياخدو ملاليم لو قعدت في البيت هاناكل بتاو وجبنه.. أنا بجيب اللقمة الطرية لأولادي وجوزي..

– إنت خدتي الموضوع وراثة عن أمك..

– دي حقيقة.. أمي كانت في البيت وأدام عيني..

– كانت مدارية..

– بس إنتوا كلكم كنتم عارفين.. وولاد الناس اللى عندهم أرض هم اللى بيجوا ليها..

– كانت ماضي ضلمه وراحت أمك.. إنت العوار اللى هايخلي الناس دلوقتي توطي راسها..

– هو أنت جوزي ولا أخويا..

– ماعندهمش دم.. وبعدين أنا راجل كبير في الملأه وعيب أسكت عليك..

– يابه الحاج.. قدرية بتجيلك على عينك يا تاجر..

– يا كلبه يا بنت الكلاب قدريه مراتي على سنة الله ورسوله..

– قدرية مراتك.. معقوله إنت تتجوز مرات النفر..

– معقولة أوي..

– ونسوانك راضيين بكده..

– راضيين مش راضيين المهم هي مراتي وروحي قولي للناس كلها..

– إبنها كردي كرشها علشان بتجيلك..

– إبنها كردي غبي قال زي الناس على أمه.. لكن لو كان عاقل كان جه سألني..

– عايزني أبطّل.. إتجوزني..

– نهارك إسود..

– هي قدرية أحسن مني..

– قدرية ما حدش لمسها غير جوزها اللى مات.. لكن إنت خربتيها..

– شوف حد تاني يتجوزني من الناس الغلابة.. بس على شرط يكفيني..

– الحل الوحيد إنك تمشي من البلد إنت واخواتك وجوزك وولادك..

– ماحدش يقدر يمشينا..

– يا قليلة الأدب أنا أقدر..

– لو كنت تقدر ورِّيني..

وقام واندفع نحوها وراح يصفعها على وجهها حتى سقطت فوق الأرض وهي تولول وتصرخ..

ياناس الحقوني.. حرام عليك.. سيبني في حالي.. إنت مالك ومالي..

– قومي يا أنيتة يا نجسه.. قومي روَّحي على البلد.. على دارك ومن النهاردة ماشفكيش في الملأه..

وشدها رجب بذراعيه وقال لها وهو يجرها نحو باب السكه :

– إمشي دلوقتي على البلد وقصَّري الشر.. روحي بس دلوقتي واسمعي الكلام..

ولم تدري ولم تشعر بأنها ترتدي جلبابها العاري وراحت تبكي وتدعى وكلما قابلها رجل أو إمرأة وسألها..

قالت له :

– إللى ينضرب في قلبه.. اللى تجيله مصيبه الحاج حداد عايز يقطع عيشي..

وراح الناس يتساءلون على جانبي الطريق.. هو الحاج حداد عمل إيه في شنآنه.. ولم يجب عليهم أحد لكنهم تأكدوا من أن شيئاً ليس عادياً قد حصل لها.. علينا أن نذهب ونسأل الحاج عما

جرى.. ولما وصل بعض الرجال إلى غيط أبي وجدوه يجلس مع زوج وأولاد شنآنه في حديث هامس لا يسمعه أحد. وكان أهلها ينصتون لما يقوله أبي في طاعة..

لما إنتهى لقاء أبي مع أهل شنآنه دخل إلى غرفة التبن ليستريح من عناء عمله.. وبإخلاص قام رجب إليه وغطى أبي بالحرام.. كان أبي يرتعش رغم أن الجو لم يكن بارداً، تركه رجب لينام ودخل الغيط يعزق بعض شرائح الذرة المملوءة بالنجيل والحشيش.. ولما طلع يستريح في المربط جاءه الحاج محمود ليسأله عن حداد فأبلغه أنه نائم فسأله محمود :

– ماتعرفش عمل إيه مع الكلاب..

– ضربها يابه الحاج وروَّحت..

– وبعدين..

– جاب جوزها وأولادها واتفق معاهم على إنهم يمشوا من البلد..

– معقولة..

– والغريب إنهم وافقوا..

– معقولة بالسهولة دي.. ياريت يبقه عمل أحسن عمل..

وانصرف محمود إلى غيطه فرحاً بهذه الأخبار ولكن عليه أن يعرف التفاصيل من حداد فلما قام من نومته في غرفة التبن سأل رجب عن قدرية التي لم تصل بعد وقلق عليها خاصة أن إبنها

متهور.. فكّر قليلاً في الأمر ثم ذهب إلى محمود وأبلغه بما حدث مع شنآنه وزوجها ولكن المطلوب شوية فلوس فقال له محمود :

– فلوس أد إيه..

– لو خمسين جنيه يلموا الموضوع.

– ليه هانشتري فدان..

– الناس دي هاخدهم مصر عند واحد صاحبي في امبابة نعمل لهم بيت وحياة..

– خلاص نجمع من كل واحد قادر..

– إنت ودردير والحاج حسن وحسين وعبد العال وعبد الرازق واللى يقدر يساهم..

– من بكره..

– أيوه من بكره..

حملهم أبي بحاجة بيتهم من قريتنا في عربة يجرها حمار إلى قرية الخضرة حيث الرفّاص، وصل مصر في اليوم التالي إلى ساحل روض الفرج ومن روض الفرج إلى إمبابة بعربة كارو وهناك دخلوا منطقة خالية من الناس إلا من بيوت قليلة بنيت بالطين.. ذهب إلى دار صديقة جابر عسر وكلّمه عن الناس الذي أتى بهم ولكنه لم يخبره بسر المرأة.. ترك أبي الناس مع جابر عسر كأمانة.. أقاموا في بيته حتى بنى لهم بيتاً.. وسعى في تشغيل زوج شنآنه وأولادها الثلاثة.. وراحت شنآنه تقلي الطعمية في نصبة أمام بيتها.. بعد ذلك قام أبي بترحيل أخوات شنآنه إلى إمبابة فأقاموا هناك بجوار أختهم وأوجد لكل منهم عملاً ومعاشاً..

الولادة قبل الفجر

كان الحمل في بطن أمي هو الخامس ولكن هو الولادة الثالثة التي ستحيا مثل سعاد وأنا إذا قُدِّر لها أن تعيش.. وفي الأيام الأخيرة قبل الوضع كانت أم إبراهيم تعتني بأمي عناية كبيرة وقبل أن تمشي إلى بيتها تشعل لها النار في المنقد الحديد وتضع لها البخور.. وكانت في بعض الأحيان تنام معها على الأرض بجوار الكنبة التي تنام فوقها أمي.. وفي ليلة قبل الوضع بيومين وجدت أم إبراهيم أحد الأعمال ملفوفاً بقماشة خلف حنفية الوش بالصالة الخارجية للبيت فأحضرته بيدها لأمي قائلة :

– أدى لفة من بتوع أم الرزق..

– معلهش كل حي منه لله..

– ياترى عاملاه ليه علشان الواد يروح زي سامي وسعيد..

– بعيد الشر ربنا فوق.. بطّلية يا أم إبراهيم..

.. وضعت أم إبراهيم بعض المياه في كوز وسَّخنتها فوق النار ثم وضعت لفة العمل في الماء الساخن..

وهي تقول منكم لله.. مش كفاية يا لبيبه.. فردت عليها أمي :

– ماتظلميش لبيبه.. الوليه تأثيرها كبير أوي..

– كرهها وحقدها يملا بلاد زي بلدنا..

– ربنا هايِّديك كمان وكمان..

ودخل عليهما أبي وكما سمعت حديث أمي وأم إبراهيم سمعت أبي يقول :

– إنت تعبانة أوي..

– أوي..

– أروح أجيب الدايه..

– لسه الطلق ماجاش..

– يمكن على ما تيجي..

– روح يا حداد..

تمشي أبي إلى غرب البلدة حيث تسكن أم هان الدايه في شارع طراد.. وكان صاحب حس في كل أنحاء البلده.. إذا تنحنح أو سعل أو تخنف بصوته الرخيم عرفه الناس جميعاً في بيوتهم كانوا مستيقظين أو نائمين أن هذا هو الحاج حداد.. تنحنح في أول الشارع مرتين فانتبهت أم هان في بيتها الصغير بمنتصف الشارع وواربت باب البيت وقبل أن يده قالت لما رأته سيقف:

– أيوه ياحاج آجي..

– تعال ورايا..

وانقلب الرجل إلى بيته وبدأ يقرأ القرآن بصوت مسموع والدموع تنسل من عينيه ودعا أن يبلغ المولود السلامة وأمه.. وكان يقول دائماً بينه وبين نفسه رغم أنها إمرأة ترفس فهي التي جاءتني

وانقلب الرجل إلى بيته وبدأ يقرأ القرآن بصوت مسموع والدموع تنسل من عينيه ودعا أن يبلغ المولود السلامة وأمه.. وكان يقول دائماً بينه وبين نفسه رغم أنها إمرأة ترفس فهي التي جاءتني بالبنت والولد.. فكيف لا أشكر الله.. ومن شارع طراد ماراً بدار صبحي رمضان ودور الهلالي في العزبة البحرية حتى دار حسن تنك ثم إلى الشارع المملوء بأقاربه خلف بيته الذي يقع على الترعة الكبيرة المقابل لمترل زكي أبو شنب ملأ أبي كل هذه الشوارع بكلمات القرآن العظيم التي ألقت بمعانيها الكبيره ظلالاً مثل خيمة نور فوق كل بيت.. وقال وهو يدفع باب البيت الكبير.. ياالله.. فوجد لبيبه تقف في باب غرفتها والتي فاجأته قائلة :

– تعال كنت فين.. هوَّ فيه إيه تعال جوه..

– آجي هو دا وقته.. إخشعى أم هان جايه..

– يالهوي هيَّ هاتولد..

– قل أعوذ برب الفلق إتق الله.. دا إنت بتصلي يالبيبه..

– أستغفر الله.. أستغفر الله.. مين معاها جوه..

– أم إبراهيم بايته معاها..

– أم إبراهيم أحسن مني.. هو أنا عدوه..

– إنت مش هاتقدري تسهري معاها طول الليل..

– لأ مش كده.. دا المعنى تاني خالص..

– إخشعى يا لبيبه..

وراحت تبكي ودخلت إلى غرفتها بعد أن قفلت بابها بالترباس حتى لا يدخل عليها أحد.. وأخذت تضرب بكفي يديها على صدرها حتى مزَّقت صدر جلبابها.. ولما دخل أبي على أمي التي بدأت في الطلق أخبرها بأن أم هان تعقبه.. فراحت تزعق.. يارب.. يارب.. وجلست فوق سريري أبكى على صراخ أمي وكنت قد بلغت العامين فقلت لأم إبراهيم.. أبويا ضربها.. فقالت وهي تعري جلباب أمي عن جسدها.. يا حبيبي أمك بتولد عارف يعني إيه بتولد.. لأ أبويا عمل إيه.. ودخلت أم هان وهي تحمل حقيبة جلدية قديمة في يدها بها أدواتها.. وقالت.. باسم الله.. دا طلق الولادة.. سَكتُ عن أسئلتي وخجلت لأني رأيت أمي عارية وغطيت وجهي لكنني كنت أسمع كل شئ وأبكي.. إحذقي ياست ايوه.. يقويك ربنا، ولادتك سهلة زي ولادتك قبل كدة.. هات.. يارب.. ولم تتكلم أمي بشئ ولكن صراخها يكاد يخرج إلى شارع الترعة كأن رجلاً يضرب زوجته.. ورحت أقول كلمة واحدة والدموع تدخل فمي.. يارب.. يارب.. يامه حبيبتي.. أمي.. أمي.. هو فيه إيه.. إلا أنني عندما إسترقت السمع جيداً أيقنت أن هناك مولوداً سيترل من بطن أمي خاصة لما أخذت الدايه تقول.. أيوه جاي أهه.. كمان مره أوي.. أهي راسه بانت..

وشعرت بأن أبي غلبان مظلوم راجل طيب أوي.. حينما صرخت الدايه حمدالله على سلامتك أهو جه نزل ولد.. وصرخت أم إبراهيم كانت صرختها زاعقة شاكره قائلة ولد.. أخ حسن جه.. زعق الرجل الجالس قرب باب الغرفة.. ياالله.. ياالله يارزاق.. كان يتشنَّح في دعائه ويبكي بكاءاً حاراً.. سمعته وأنا صغير وفهمت

ودخل في قلبي شيئاً عميقاً صافياً وشعرتُ باطمئنان شديد كدت فيه أزعق مثل أبي.. كان فرحاً جديداً يدق قلبي وأن أبي وأمي كيان واحد وأم إبراهيم سيدة مخلصة في بيتنا وأن الله يفعل ما يريد.. فهذا يريد وهذا لا يريد ولكن الله يفعل ما يريد..

.. إستيقظت أختي سعاد في غرفتها على الصراخ والدوشة فقالت لأمي لبيبه :

– فيه إيه يامه..

– أبوك بيضرب أمك..

– يضربها.. تعالى نامي جنبي..

– شوية هاطلع جنبك..

كانت تجلس على الكنبة.. دققت سعاد النظر في وجه أمها لبيبه فوجدته باكياً ولما جالت بناظريها إلى صدرها وجدته ممزقاً فقالت :

– مين قطع هدومك..

– نامي ياسعاد في عرض النبي..

– طيب غطيني..

راحت أم إبراهيم تحضر الماء الساخن في حلل وأوعية من فوق حلة كبيرة فوق الكانون.. وجلست أم هان تعدل الطفل وتربط صرته وتلفه في لفف من القماش ولما شعر ابي بأن الأمور تسير على ما يرام قال :

– الأمور كويسة يا أم هان..

– كل حاجة كويسة ياحاج.. ولد.. مبروك..

– تمام.. البركة في الله.. تسلم إيدك..

– الحمد لله ولادتها سهلة..

– هاتسميه إيه يا أم حسن..

وفي همس لم يسمعه أبي قالت لأم إبراهيم.. قوليله عبدالعزيز.. واقتربت أم إبراهيم من ا لباب ليسمع ابي وقالت بتقولك الست.. عبدالعزيز..

– حلو.. كله حلو.. على إسم أخوها..

.. وكان خالي عبدالعزيز أحمد فوده في السنة النهائية في كلية الحقوق وكان محبوباً من أبيه وأمه وأخواته البنات كان نابغاً في مواد الحقوق كما هي العادة في أهل فوده جميعاً.. ودخل أبي عليها قائلاً:

– مبروك .. مبروك يا حميده..

وفي صوت واهن قالت أمي..

– مبروك ياحداد..

كنت قد بلغت ذروه فرح فأزحت الغطاء عن وجهي وقلت ما ستطعت :

– بروك.. بروك.. (يعني مبروك)

ذهل الجميع وراحوا يضحكون.. وقالت أم هان وهي تجمع حاجياتها.. القط دا كان فين.. سبقها أبي إلى خارج البيت وأعطاها

أجرتها على أن تأتي كل يوم كالعادة لملاحظة الطفل وأمه.. ورجع أبي يقول من خلف الباب المقفل :

– أبعت تلوانه..

– أيوه إبعت..

– مين هايعمل لك الأكل..

– أم إبراهيم على ما يبعتو حد..

وكان صوت أمي واهناً ضعيفاً وكانت أم إبراهيم تكرر ما تقوله أمي لكي يسمعه وكانت الشمس قد بزغت حينما ركب أبي ركوبته وذهب إلى الغيط.. أيقظ رجب وأخبره بالولادة فباركه رجب.. وقام وارتدى ملابسه وقال له ابي :

– روح تلوانه.. عدى بالقارب وبلغ الحاج أحمد بأن أم حسن ولدت عبدالعزيز..

– حاضر يابه الحاج.. أقوله ولدت إمتى..

– النهارده بعد الفجر..

وكانت الكلاب تزوم وتجري على السكة فرحه.. وتعجَّب الحاج ربما تكون قد فهمت ما قلته لرجب.. ليس في الكون شئ إلا وسره عندالله.. ذهبت شنآنه وزوجها وأولادها.. وشوقي وزوجته فكيهه وجميع إخوته.. ذهب ناس من مكان إلى مكان وجاء الله بآخرين وتأكد الرجل من الله يبرئ الناس بالسلامة إذا ما قاموا بأعمال يرضى عنها.. كان الرجل سعيداً ملأ كل الحقول حوله.. ولم يكن أحد من الناس قد وصل إلى الغيط فراح يسحب بقره بقره

وعجلاً بعد عجل وجاموسه بعد جاموسه.. ذهب بكل بهيمه فرادي وسحبهم إلى البحر كي يشربوا ويستحموا ويغتسلوا.. إن في هذا اليوم لابد أن تشبع كل بهيمه في زريبته من الطعام والشراب وأن تستحم.. إنه نسى أن يتناول كسرة من طعام فأخذ يجمع الطعام المتبقى من أمس وأشعل النار وسخَّنه وراح يتناول لقيمات من عيش القمح والبتاو مغموسة من الجبنه القديمة والقريش.. كان الطعام جافاً خشناً على زوره.. ولكنه كان كمن يأكل الفته بلحم ضأن..

***

"القافلة والزرزور"

أعدت جدتى شلبيه الشيخ زوارة تليق بإبنتها التي بدأت تثبت أقدامها في شنشور بمولودها الثالث، وكالعادة بدأت قافلة النساء تستعد للذهاب إلى الوالدة، وفي اليوم الثاني كانت زوجة خالي عبد الحكيم هي أول من يتقدم القافلة راكبه حمارتها وتمسك أمامها بقفص الديوك الرومي، وثانية القافلة خالتي عزيزة التي لم تتزوج بعد تمسك أمامها فوق ظهر حمارتها قفص الديوك البلدي والفراخ وثالثتهما عديلة الغولة تركب حمارتها الزعره وأمامها قفه بها ثلاث حلل.. حله بها دجاجتين محمرتان، وحله مملوءة بالأرز المحمر، وثالثه بها عشرة بواكي من الزبدة.. إتخذت القافلة طريق كوبرى أولاد الشاطر ثم الطريق المؤدي إلى كفر الخضره بعدها وصلت القافلة قلتى الكبرى ثم عرجت الحمير يميناً إلى السكه المؤديه إلى زمام شنشور ناحية رحيله.. وكانت عديله الغوله كلما رأت الطريق خالياً من الرجال علا صوتها بالغناء.. تلك الأغنيات القديمة التي كان الناس يتغنوا بها في الولادة.. وقالت لهم جدتي وصية أوصاها بها جدي أحمد.. وأنتن تطرقن الباب نادوا ياست لبيبه.. فقالت لها خالتي عزيزة وهم يهمون بالرحيل فوق ظهر الحمير :

– ماشاء الله.. أهل لبيبه بيتقرعوا على أختى وأنتو بتقضوا ليها الواجب أوي فزعقت فيها جدتي :

– اللى بيوجِّب بيوجِّب بنفسه.. وهودا أصلنا.. وزي ماقال أبوك..

قالت لها في مضض :

– حاضر .. حاضر..

دخلت الركايب الثلاثة من باب السور الخارجي المفتوح بصفة دائمة وخبَّطت زوجة خالي عبد الحكيم بنقزتوت على الباب الكبير مناديه :

– ياست لبيبه.. يا أميره إفتحي..

هلعت إلى الباب وفتحته وفوجئت بالوفد، وكانت كل منهن قد أنزلت ما تحمله فوق الأرض والركايب واقفة.. وبادرتها خالتي عزيزة :

– إزيك يا ست الدار

خجلت وربما فوجئت بالذوق المتناهي من أهل حميده :.

– أهلاً أهلاً..

– الحمير هاتدخل جوه ولا نربطها في الشبابيك..

– لأ تدخل الزريبه أحسن..

..وكان باب الزريبه مفتوحاً فدخلت الحمير في شكل منظم مخترقة باب الوسط حتى باب الزريبه.. وهرولت أم إبراهيم التي قفزت من جوار الوالدة لتقفل باب الزريبة وانقلبت بسرعة إلى أم حسن :

– ياستي ياستي باين الجماعة بتوعكم.

– هاتيهم هاتيهم..

كانوا ثلاثتهم قد جلسن على المصطبه بجوار صومعة القمح.. وقالت عزيزة لأم إبراهيم عندما خرجت إليهن :

– دخلتي الحاجة جوه..

لم تستطع حمل أي قفص ولا حتى حمل القفه وحدها فساعدتها عديله الغوله حتى أدخلا زوارة الوالدة إلى صالة البيت الداخلية قرب باب غرفة أم حسن.. وراحت لبيبه تسقيهم الماء من كوزملأته من زلعة مملوءة دائماً بمياه الشرب.. وراحت أم إبراهيم تتأملهن على عجل ففاجآتها عزيزة قائلة :

– أم حسن صاحية..

– ياهوي.. تعالو إتفضلو..

– قوليلها الأول عشان ندخل..

– قلتلها والله إتفضلوا..

كانت أم حسن قد جلست بين السرير والكنبه وأسندت ظهرها على مسند وكان عبد العزيز نائماً وحسن تحت الغطاء يسمع كل شئ وعندما دخل النساء من أهل جدته إنتعشت رأسه وتيَّقظ وأفاق فأزاح الفراش عن رأسه ليرى ويسمع إنه يريد أن يرى كل شئ ويسمع دون أن يلحظه أحد.. وبلغت الهيصه والفرحه بين أمي ونساء أهلها.. روح قلبي.. سلامتك.. ألف مبروك.. فين هو.. هو الزرزور ده.. وشه محموش.. لأحسن قمر مافيش زي حسن.. إسم الله عليه.. لأ خليه نايم طول الليل مغلّبني فيه مغص في بطنه.. مافيش حد من الصحة يشوفه.. إزيك يا أم حسن.. أد إيه أبوك

فرح وأمك.. فيه قفصين يا حميده.. قفص فيه عشر فراخ وقفص أربع ديوك رومي.. هات القفه يا عديله.. وراحت زوجة خالي عبد الحكيم ترفع حلة بعد أخرى من القفة وقامت عزيزة بكشف الحلل الثلاث لأختها.. أبوك بكره أو بعده هايجيب أمك.. عايزه خروف ولاّ جدى.. لم تكن حميدة تستطيع ملاحقة الفرحة كانت السعادة تبك من عينينها و لم تكن تستطيع الرد على كل كلمة حلوة فرحة تفوهت بها إحداهن فكانت تضحك وتبتسم.. يعني مش حلو.. حلو بس وشه محموش.. دا حسن دا حاجة تانية. لأ مش كده يا عزيزه والله حلو.. بس ياريت يبطل زرزرة ده طول الليل زهقان.. العيال الصغيره كده.. أمال فين الحاج.. في الغيط.. جاءتهم أمي لبيبه مرة رحبت بهم من فتحة الباب ومرة أخرى حملت إليهم المُغات الذي أرسلته سلفتها الست مجيدة القطان زوجة محمود أخوه.. بعد ذلك عملت أم إبراهيم شربات من زجاجة إشترتها من دكان محمد عفيفي.. بعدها عملت لبيبه الشاي ووضعته أمامهم.. ويبدو أن النداء عليها وهم يطرقون الباب قد جعلها في قوة معنوياتها لترحب بالناس.. وكانت تندهش.. الناس دي ذوق ليه.. أد ايه بيحترموني.. أمال الناس.. النسوان عندنا وحشه ليه.. كما قالت لهم جدتي بدأت إبنتها عزيزه بفتح المائدة :

– هات ياست لبيبه حله..

– حاضر.. وناولتها الحلة وهي بالباب.

غرفت الأرز إلى وعائها حتى بلغ نصفها ثم وضعت فرخة محمرة فوقها وحملتها الى الباب مناديه :

– ياست لبيبه إنت والحاج..

– يا نهار أبيض دا واجب علينا إحنا..

– كلنا واحد يا حاجة.. خدي..

وقالت زوجة خالى عبد الحكيم لأمي :

– إتعدلي يالله كلي الفرخة دي كلها والرز ده..

– وأنتم..

– أكلنا أهه..

ومن بؤجه كانت بجانبها فتحتها وأخرجت حله بها نفس الأرز وفرخه قسَّموها.. كان كل ذلك المولد ولم يذكر أحد حسن ولم يسأل عنه والذي فاجأهم وهم يأكلون.. أن خرج حسن من تحت غطائه كأنه يفاجئهن.. وفرختي.. ضربت كل منهن صدرها بيدها.. ورحن يتمطعن من الضحك وقامت إليه خالته عزيزة لتحمله بين يديها.. تعال ياروح قلبي كل مع خالتك.. إحنا قلنا إنك نايم يا مكار.. إنت شقى أوي.. وراح حسن يضحك وترك حجرها وراح قرب عبد العزيز يتأمله وهو يقول.. الله أكبر.. الله أكبر.. وكان قد تعوَّد على هذه الجملة عندما كان يجد أبيه يصلي كما يقول.. يقول كأي طفل الله أكبر.. وراحت كل منهن تطعمه أرزاً ودجاجاً.. هاصت الدار وفرحت جدران الدار بأثاثها بالأهل ولم تنس عزيزة أم إبراهيم التي ملأت لها طبق أرز وربع الدجاجة والتي تناولت طعامها على عتبه باب الغرفه.. وفاجأت زوجة خالى عبد الحكيم الجميع وراحت تغني أغنيات الولاده الجميلة وكل من

عديله وعزيزة يرددان خلفها ما تقوله وأم إبراهيم تصفق بكفيها على نغمة الغناء وراح حسن من غبطته يصفق هو الآخر ويتمتم بشفتيه وكأنه يردد معهن كلمات الغناء الصعبة عليه.. تركهم حسن وراح يجري فجأة قاطعاً طول الدار من باب الزريبه حتى جدار السور الخارجي.. ولكنه قرب باب الغرفة التي فيها الأهل تعثر حسن بالأرض فوقع على وجهه فجرت إليه أمه لبيبه تحمله وعلت بصوتها :

– إسم الله عليك وقعت على أختك أحسن منك

وكررتها وهي تحتضنه وتمسح التراب عن وجهه وملابسه.. ولما سمع الأهل كلامها الجميل ودعائها وحنيتها على حسن قالت عزيزة لأختها:

– ما هي كويسة يا حميدة.. دا بتموت في حسن..

– والله ما حد عارف حاجة.. دا بس عشان إنتم قاعدين..

– إزاي إحنا لينا الظاهر..

– طول النهار لوحدي ولو الدنيا اتقلبت هنا تعمل نفسها مش حاسة بأي حاجه.. معلهش إنتو ناس طيبين ..

– أمال فين سعاد..

– سعاد تلاقيها نايمة.. سعاد بقت بنت لبيبه..

فقالت عديله الغوله :

– أهي شايلاها عنك بكفاية عليكي الولدين..

– أنا بقول كدة برضه.. البت دي هايطلع قلبها جامد زي بتوع شنشور..

وأكملت عزيزة:

– أنا بقول لأمي سعاد دي حتى شكل الحاج حداد..

– هو حداد اللى قسِّمها من الأول وعلى فكرة هو هدفه ملأ حياة لبيبه:

عديلة: – يبقه بيحبها عايز يبقه ليها ولاد بأي شكل..

وضحكت أم ابراهيم عند الباب وقالت وكأنها تهمس كمن تقول سراً :

– بتحب قوضه لبيبه أوي ولو طلعت في وسط الدار وقلت لها تعال هنا لأمك تقول لأ وتجري تدخل قوضتها وتقفل :

وأكملت أمي :

– زي ما يكون ولدها.. كأنها مانزلتش من بطني.. وعلى فكرة أنا حاسة إنها بتقسِّيها عليَّ وأنا مش بدق علشان تلهي لبيبه عني يمكن تخلى قلبها يصفالي شوية..

وتقول عزيزة :

– وحداد يمكن عايز كده..

وتقول زوجة خالي عبد الحكيم :

– والله دا راجل كله عقل وإنت ماتزعليش يا حميده..

– والله ما زعلانه.. بس هي الأمور عجيبه شويه..

وتكمل عديله الغوله :

– بكره تكبر وتعرف كل حاجة ودي ليه تبقه مشكلة..

ونادت خالتي عزيزة على لبيبه :

– ياست لبيبه.. ياست لبيبه.. فين سعاد..

– إديتها أكل وبتاكل في القوضه..

– هاتيها نسلم عليها..

– حاضر..

– ليها أهل من أمها.. برضه تيجي وتعرفنا..

– حاضر هاجيبها حالاً..

ورحن ينتظرن سعاد.. وهن يداعبن حسن ويحملنه ويقبلنه.. دخلت عليهن سعاد تشدها أم إبراهيم إلى داخل الغرفة.. قبلتها واحدة بعد الأخرى.. كانت كالعجْل العاصي الذي يمتنع عن دخول الطبلية (الساقية) فقالت لها أمها زاعقه فيها :

– أهل أمك يا خايبه يانايبه..

فكشرت سعاد فقالت لها عزيزة وهي تمسكها وتحاول أن تأخذها في حجرها :

– أقعدي مش أنا خالتك..

– ماعرفش..

– طيب إعرفي.. شوفت عبد العزيز..

– وحش شوفته.. حسن أحلى..

– طيب بوسيه..

وقامت من حجر خالتها وانقلبت مسرعة الى خارج الغرفة وكأنها تهرب أو تختبئ منهن في جحرها.. وهرولت إليها أمها لبيبه وفتحت الباب فوجدتها تلوذ في فراشها بالسرير.. ابتسمت لها أمها لبيبه إبتسامة عريضه.. وقالت لها.. شاطره.. ياروح أمك ياسعاد..

ومازالت الهيصة في غرفة الوالدة وحسن يجري هنا وهناك في داخل الدار كأنه يريد أن يقع مرة ثانية وأم إبراهيم تجره إليهن حتى لا يقع ثانية.. وفي مره وهو يجري حاولت أمه لبيبه أن تدخله غرفتها.. وهو مستحيل وكأنه ولد كبير يأبى أن يدخل غرفتها ويجري منها نحو الهيصه وأهل أمه اللائي ملأن البيت فرحاً وسروراً..

وسكنت الهيصة قليلاً ولما دخل الحاج بيته كان حسن يشم رائحة أبيه وهو عند باب السور فجرى نحوه ليقابله فحمله أبوه على صدره ومشي به إلى داخل البيت فأخبرته لبيبه بأن جماعة تلوانه جوه.. وفرح الرجل وراح يقول.. ياألله.. ياألله.. ياساتر.. وإجتاز باب الوسط وقال وهو يقف أمام باب الغرفة :

– يا أهلا بالنور.. النور كله جه بلدنا..

ودخل وصافحهم جميعهن مرحباً.. وسأل عن عبد العزيز فقالت له أمي :

– عايزين أم هان باين عنده مغص والواد شكله بيتألّم..

وقالت عزيزه لأختها :

– طيب ياكل الأول وبعدين يروح..

.. وحملت إليه أم إبراهيم طعامه ووضعته فوق طبلية صغيرة وجلس قرب باب الغرفة ليسأل عن كل فرد في تلوانه ويتناول طعامه وقال ضاحكاً لهن :

– صحيح دا رز وفراخ تلوانه حاجة تانيه.. أحسن من بتاع شنشور بكتير..إنتو عارفين ليه علشان من إيد الحاجة شلبية..

وراح الجميع يضحك بمن فيهم حسن الذي بدا عليه وكأنه يفهم كلام أبيه..

***

لما ذهبت قدريه إلى بيتها لتحضر بعض ملابسها وجدت إبنها كردي عاطلاً في الدار بلا عمل، وكان الولد يكضم غيظاً كبيراً نحو أمه لما يراه في قربها من الحاج حداد، وفي هذا الصباح شتم أمه وكاد يضربها وهذه عادة معظم كثير من البيوت في شوارع معروفة.. عادي جداً أن يدفع الولد أمه ويقول لها ياوليه.. يلعن أبوك بنت كلب.. يامره (ياإمرأه) جتك داهية إنت وأمك هكذا هذا شئ عادي في هذه البيوت سواء في داخل القرية أو في الغيط، وكثير من أبناء القرية الآخرين البعيدين عن الفقراء ينادون أمهاتهم بلفظ (ياوليه) وقليلون يقولون يامه.. وفي هذا الوقت لا يوجد في القرية كلها واحد يقول لأمه ياماما.. ولكن في الكفر هناك أولاد الموضه والأفرنج وعبد البر وبيت لظيمه.. شئ عادي أن يقال ياماما.. وآه لو سمع أحد من أبناء القرية الآخرين كلمة يا ماما من أحد.. خد يا سخرية وياتريقه ويافلحنه للصبح، إن الناس جميعاً في قريتي يستهجنون المعاملة الطيبة والرقيقة والمهذبة بينهم.. إنهم جميعاً ينشرون الغلظه.. وكان عادياً أن يقول كردي لأمه ياوليه يامره ياوسخه ياكلبه يابنت الكلب.. طرق خالها الحاج الباب ليسأل عنها إنها غائبه منذ أيام ولا تأتيه في غرفة التبن ودق الباب منادياً يا قدريه :

فرد عليه إبنها من الداخل :

– مش هنا ياحاج..

– إفتح ياكردي..

أمسك أمه من ذراعها قائلاً :

– قومي إفتحي لأنيتك.. (يعني للذي يعمل فيك)..

وفي مراره وحزن قامت وفتحت الباب إنها الآن في حماية رجل.. فوجدته راكباً حمارته فقالت :

– إتفضل يابه الحاج..

وبصوته الأخنف الرخيم القوي :

– إنت فين ياقدريه إيه جرى إيه..

– أصل كردي زعلان معايه شوية وعمال..

– عمال إيه..

ونزل الرجل من فوق دابته وربطها في شباك جيرانها ودخل بيتها قائلاً :

– هو فين..

كان كردي قد هرب في ركن الغرفة لا يعرف ماذا يفعل.. وسأل نفسه لماذا يهرب.. ألم يكن منذ قليل يرفع صوته على أمه ويتهمها بعلاقتها مع الحاج.. وزعق الحاج :

– ياكردي تعال.. تعال (وهو يشخط)

ومثل بين يديه فجلس الحاج فوق المصطبه وجلست قدريه على عتبه الغرفة (قاعة للشتاء والصيف) وتنحنح ثم سعل ثم بصق وزعق في كردي بقوة وقد خفض من صوته حتى لا يسمعه أحد وطفق قائلاً :

– شوف إسمع كويس.. أمك دي شريفه ومافيش بينها وبيني غير الشرف..

وفي ضعف وكأنه سيبكي :

– آمال إيه اللى سامعه.. دانا مكسوف من الناس كلها..

– أمك مش شنآنه..

– وغرفة التبن دي بتجيلك ساعات والناس كلها شايفه..

– إسمع ياكردي.. أمك دي تبقه مراتي..

ضرب وجهه بكفيه وكأنه يلطم :

– مراتك إزاي..

– والله يابني مراتي من سنين وانت صغير من يوم أبوك مامات..

– مش مصدق يابه الحاج..

– روح إسأل الشيخ أمين.. مأذون البلد كلها..

– طيب ليه ماقلتش للناس..

– مش لازم الناس المهم ربنا..

– طيب وليه اتجوزت أمي..

وقعد كردي مذهولاً أمام الحاج :

– عشان أبوك كان غلبان وانت صغير عايز تأكل وتشرب ماكانش في بيتكم بتاوه وأمك حلوه وفي عز شبابها.. بجوازي منها بعدت عنها الديابة الموجودة في كل حته في البلد وكفلتها

وكفلتك.. وكل حاجة كويسة تمت عليك وعلى أمك.. الستر عارف الستر.. الستر اللى بيخلي الناس كلها تعيش في سلام وأمان.. ما هو ربنا مش خالقنا ناكل ونشرب بس.. المقتدر يعمل الخير على أد ما يقدر.. ربنا مديني ارض وصحه وعقل.. لما العقل يشتغل الإنسان يعمل خير كتير أوي.. الفرق بين وبين إخواتي محمود ودردير.. إن أنا مش عايش لوحدي ومع نفسي وبس.. لازم أمد إيدي لغيري وأساعده بأي طريقة إن كانت.. وأمك مش لوحدها.. لو كان فيه رجاله في البلد ما كان فيه مطلقة ولا أرمله ولا غلبانه..

– يانهار إسود يابه الحاج.. يعني أمي شريفة..

– أشرف من الشرف..

– طيب لما إنت راجل بتعمل الخير وكلامك كبير أوي على فهمي ليه قطعت عيش شنآنه من البلد..

– وهي شنآنه كانت بتاكل عيش.. ياكردي ما انت عارف شنآنه كانت مضيعة ملأه مريان بالكامل..

– بيقولوا إنك كرشتهم وخدتهم لمصر وسبتهم في الشوارع وجيت..

– معلهش خللي الناس تقول.. روح إسأل جابر عسر..

– مين جابر عسر.. الراجل ده من بلدنا بيشّغل الناس في مصر.. ساكن في إمبابه وراجل ليه دماغ حلوه..

– طيب يابه الحاج أنا عايز أهج من البلد..

– لوحدك..

– وأمي معايه..

– وهاتاخد مراتي معاك ليه..

– كفاية عليك يابه الحاج مانت عملت اللى عليك..

– وإنت عايزه كده يا قدريه..

– خلاص ياخال حداد..

– أفهم من كده أنا من النهارده بقيت خالك..

– إنت تاج راسي.. طول عمري هاحلف بيك وبرجولتك وبإنسانيتك.. خليني أروح معاه أهو برضه أعيش وآخذ بالي منه..

– وأنا موافق..

– مش زعلان ياخال..

– طيب خلي أمك تجيلي النهارده بس..

– وبعدين يابه الحاج..

– من بكره جهزوا نفسكم ولفوا عزالكم..

– يعني هاتودينا لجابر عسر..

– أيوه..

– أنا نفسي أروح مصر..

– مصر واسعة والبلد ضيقه وإن أخلصت في شغلك ربنا هايديك بس خللي بالك من أمك..

– حاضر يابه الحاج.. بس أنا من دلوقتي هافرح علشان هاتودينا مصر..

– وأنا عند كلامي.. أنا ماشي دلوقتي رايح الغيط..

– وأمي وراك.. ربِّنا يخليك يابه الحاج..

"حكاية عبد العزيز والسر"

من عادات أهل قريتي حتى ولو كانوا في شدة فقرهم أن يعملوا له ويتجمعوا في ولادة الطفل وفي سبوعه وعند سفر أحدهم أو في مرضه، إنهم يتجمعون عندما يموت أحد خاصة بعد دفنه في الدوار أو في البيت أو أمام بيت الميت.. في الأفراح والمسرات وفي المضرات.. إنهم قوم يتوددون ويجاملون ويقترب بعضهم البعض من بعض بأي شكل من الأشكال في محاولة لإثبات وجودهم الطيب في الحياة وبأقل أو بأي إمكانيات متاحه، كل ذلك رغم أنهم يتشاجرون ويتناوشون على بصله أو على تعليق الطبلية (الساقية) أو على كوز دره أو فحل خميره أو كبشة دقيق او على فرخة عدَّت السطح أو على جاموسة قطعت الحبل وخرَّمت في غيط الجار، إنهم ناس ضيقي الصدر لا يتحملون يموتون في النقار والشجار وتقطيع الجلاليب والردح خاصة بين نساء الحارات والفقراء.. إنهم يتوددون في توتر ويبتعدون وينفرون في توتر أشد، إنهم يكيدون كيداً في المعايره والمحارنه والغيظ والعكس في المجاملة والتقرب إنهم أقرب الناس إلى الحب وأقرب الناس إلى الكراهية وكلاهم مثلهم تهبهب في السراء والضراء ولا تعرف في كثير من الأحيان أي معنى لنباحهم.. إنه بمقدار الدفء يقابله مقدار من التلامه والبرود وأنه بمقدار الغلظة يقابله مقدار من القلوب الرهيفة الضعيفة الواهنة.. إنه وهن من الضعف.. ووهن من الحب ووهن من الكراهية وكلها أحبال ممتدة من العلاقات التي يحميها العمل في الحقل والبيت.. وانه يشفيها حصاد القمح وجنى القطن وحلابة البهائم.. إنها تلتئم في ولاده بقرة

أو عُشْر جاموسة أو مأمأة معزة وإن الوزه والبطة والفرخة التي تقنيها (تربيها) زوجة الفلاح في زريبه البيت تغنيها من الذهاب إلى السوق وشراء كيلو لحمة من الجزار.. إن قريتي كلها تغتسل وتستحم يوم الخميس.. ويقول الفلاحون أُجريه وعمال وأصحاب أرض.. يوم الخميس فيه لقمة زيادة تبقه الطشبوت تخبَّط في الحلل.. الخميس والسويقه في بلدي هو يوم عيد بدون جلاليب جديدة ولكن بصحن طبيخ وجته لحمة والذهاب إلى الدكان لشرب الشاي والجوزه ثم العودة إلى البيت بمزاج عال تكون النساء قد ملأن الحلل من حنفية خليفة الأكرت لتبسخينها في أي وقت بالليل كي تستحم ويستحم زوجها.. يقولون عنها في يوم الخميس حلة زيادة ولقمة زيادة وصحن طبيخ فيه حتى لحمة أو ورك فرخه.. إن الناس في قريتي يعيشون زي ما تودِّيهم الريح.. زي الشجر وعود الدره والقطن والتليس.. يوم الخميس في قريتي عيد أحسن عندهم من أي عيد لأنه سريع وبييجي كتير وكل أسبوع فيه خميس.. الناس في قريتي بس عايزه راجل حكيم وست بتحكي الحكاوي والحواديت لنسوان وأطفال وحتى الحمير بتسمع كلام الحواديت.. شوف ودان الحمير كبيره ومطرطره بتموت في التصنيت.. الدكاكين في الناحية البحرية كتير.. دكان دردير حجاج ودكان محمد عفيفي ودكان شديد البكل ودكان عبد المحسن محروس ودكان عبده أبو سعد.. ودكان فهيم عثمان ودكان أحمد عبدالله ودكانة كمال هاده.. دكاكين فيها الشاي التقيل والسجاير اللف ومعسل الدفراوي والعنتبلي وزغلول.. فيها القوالح والدكان فيه أحلى النكت والحكاوي والحواديت والضحك والود.. فيه الناس تتبسط.. كانت

السليوه الوحيده في الليل هي الدكاكين.. والعزبة البحرية اللي فيها بيت أبويا وأمي فيها دور كتير حوالينا.. دور زي دارنا ودور تانية في العراقيب.. بيوت ريحتها حلوه وبيوت ريحتها ولا جلة البهيم.. بيوت عاليه وليها سور وليها أبواب كتير وبيوت زي الحُق بيوت عنكب شد واركب وسرح كشكه وإديله في اللاوندي على أدعلبة الفسيخ.. بيوت كبيرة على الترعة بيوت الصاوي والقطان وأبو سعده وصاحب مكنة الطحين.. وحواليها والقرب منها وبرضه على الترعه بيت أبويا وأمي وبيت الحاج أمين ونصر عبدالحليم والحاج حسين.. بيوت كبيرة وعاليه وواسعه وليها أسوار وأبواب كتير وبيوت الغلابة جوه في العكننه والزنقه وفشل الحمير حتى تلاقي الكلاب فيها جربانه ومسعوره وقرَّبت تروح سراية المجانين.. لكن الناس عايشه وقنوعه وراضيه والسطح عندهم متعه في الصيف.. السطوح كلها مفتوحة على بعضها تعدِّيها في شبر واحد وكان سهل أوي على العاشقين جايين ورايحين وعلى أد العشه اللى فوق السطح جنب شويه فراخ يدوقوا ريحة المزاج على حِس نبح الكلاب أو حتى تنهيق الحمير.. نشأت هنا في قرية لا تستحي من أعمالها في النهار والليل.. نشأت على حرف ترعة كبيرة متفرعه من فرع الرياح المنوفي.. وكان طريق الترعة جميلاً إذا ذهبت إلى الكفر وفظيعاً إذا ذهبت إلى الحقل.. وحرف الترعة عيداً إذا ذهبت إلى السويقه قبل أن تصل إلى الكفر وحرف الترعة قاسياً إذا ذهبت إلى شروة حسن (ناحية بعيده من البلده أهلها أصحاب قلوب قاسيه) وحرف الترعة المؤدي إلى ملأة رحيلة أروع حروف الترعة لأنه يؤدي إلى الطريق المؤدي إلى البلده التي منها أمي.. ولما كبرت قليلاً

كنت أخاف من غرب البلد وأخاف من ظلام شارع الدوار وأكره شارع الخارجه الشارع الذي يسكن فيه أبو لبده زرقه.. الرجل الذي سلّط كلبه المسعور عليَّ وأنا صغير وكاد الكلب يمزقني في عرقوب دار حسن نظلهان لولا مجيدة بنت عمتي شفيقة التي إنزرعت من تحت الأرض وأنقذتني من بين أنياب الكلب بل وأخذتني من يدي وذهبت إلى صاحبه وكيَّلت له من الشتائم مالا يستطيع أسوأ رجل في قريتي أن يتحمله.. نشأت في حياة رغيدة في بيت أبي وكفلني أب حُرم من الأطفال على مدى عشرين عاماً وهو كلما وُلد له طفل مات بعد شهور قليلة من ولادته.. وراعتني وأحبتني أم عرفت بعد شهور قليلة من زواجها أنها جاءت إلى هذا البيت لكي تلد لصاحبه أطفالاً.. كم أطعمتني وكم عطفت على وكم بكت من أجلي إذا سعلت.. وكم كنت محظوظاً حتى زوجة أبي كان قلبها ينفطر عليَّ فإذا وقعت على الأرض جرت مفزوعة وحملتني من الأرض وقالت.. إسم الله عليك.. وقعت على أختك أحسن منك.. وسوف أظل ما حييت أن أتذكر في صباح كل يوم.. كانت أمي لبيبة تأتيني قرب سريري وتقول وهي ميِّته من الضحك :

- قوم ياحسن روح المضرسه (وليس المدرسه) ولا أقوم من فراشي إلا إذا كررتها مرَّات.. أقوم وأنا أموت من الضحك.. فتسعد أمي لبيبه لأنني أقوم إلى المدرسة عن طريقها.. وأمي كانت جد سعيده بهذه (المضرسه) كل صباح.. ورغم أن بيت أبي وأمي وأمي لبيبه كان مليئاً بالنقار طول الليل والنهار.. مليئاً بالكراهية بين أمي وضرَّتها وبين أمي وأهل أبي إلا أنهم إتفقوا جميعاً على حبي.. لم

يكن أمام من حولي نفاقاً أو تقرباً أو من أعماق قلبه إلا أن يحبُّني أو يظهر حبه لي.. نشأت قوياً في الحب لأنني شبعت منه ونشأت حذراً خائفاً من الكراهية التي أجدها في كل مكان حولي.. وكم كرهت الكلاب.. كلاب الحوارى الضيقة وكلاب الشوارع الواسعة وكلاب الطريق في رحيله الطريق المؤدي إلى بلدة أمي.. إلا أنني أحببتُ كلابنا الثلاثة في الغيط.. وأحببت كلاب جدي أحمد فوده لأنها كانت كلاب راقيه من صنف الهول.. ولم أكن أستطيع أن أفصل بين ما أكره وبين ما أحب.. لم أكن أستطيع أن أفصل بين الكراهية والحب أو أن أفصل بين كلاب الناس وبين كلابنا في الغيط وبين كلاب جدي.. كانت الحياة حولي وعندي وأمامي وخلفي خليط من الحب والكراهية وشكّل ذلك صراعاً شديداً في داخلي وكانت الكلاب أيضاً.. وكان على أن أختار طريقاً واحداً.. هو أن أحب كل شئ.. أن أحب الحب وأن أحب كل الكلاب وأن أحب الكراهية لأنني إذا أحببت الكراهية إنقلبت إلى حب.. هكذا إعتقدت وسرت على هذا الدرب إلى.. لا أعرف إلى أي عمر أو إلى أي مكان..

.. مرَّت الأيام والشهور فيها كبرت وكبر عبد العزيز.. لم أكن أعرف كيف أداعبه لأنني كلما إقتربت من وجهه لأقبله صرخ وأزاحني بقبضة يده الصغيره.. وكانت أمي تقول لي.. معلهش أصله برِّى.. زرزور.. وكنت أبتسم وأركن بعيداً عنه.. وكان يزِّهق أمي في الليل بكثرة بكائه ولا يتعب ولا يكل من الصراخ.. وكانت أمي تقول الواد دا حِمقي (يعني خلقه ضيق) وكانت تقول أيضاً.. من

يوم ما جه مغلبني وداوش القوضه.. أكيد يا حسن إنت زعلان من أمك.. فأقول لها زعلان أوي فتنتبه لقولي :

– قولي من إيه يا حسن..

– القوضه كانت هاديه.. وكنت باعرف أنام..

– وإيه كمان..

– كنت بتحكيلي عن جدي وجدتي وعن إخواتك.. وعن أبويا وأمي لبيبه..

– ودلوقتي..

– لا نوم ولا حكايات..

– أعمل إيه يابني..

– بيعيه.. بيعيه يامَّه..

وراحت تضحك.. وتقول ياريت يابني كنت أقدر أبيعه.. هو الضنا بيتباع.. أبداً عمره مايهون..

– يعني إنت بتحبيه..

– أيوه يابني..

– وأنا..

– إنت أكتر..

– أكتر أوي..

– أكتر أوي أوي..

.. وفي ليلة فضح الدنيا من العياط (كما يقولون.. يعني اللي على السكه سمعه) حملته أمي ومشت به في طول البيت وعرضه حتى خرجت تمشي به بجوار سور البيت الخارجي ولا فائدة.. إستيقظ أبي في المندره مرتين من إزعاجه ثم نام.. خرجت أمي لبيبه تسأل عن نباحه المستمر.. فقالت لها أمي في زهق :

– خديه شويه..

– هات..

.. وحملته أمي لبيبه دقيقة من البكاء الحاد ثم سكت فجأة.. إندهشت أمي لبيبه وقالت:

– دا سكت..

– ياريتني إديته ليك من بدري..

– هاخده قوضتي..

– خديه إشبعي بيه..

ومن شدة إندهاشي لسكاته في حضنها خاصة عندما نامت أمي لبيبه على الكنبه وأخذته إلى جوارها قائله :

– هُوُه هُوُه.. لأنه كان ينفجم من كثرة بكائه..

دخلت إلى غرفتها لأ لاحظ ويبدو أن أمي من تعبها تركتنا ودخلت غرفتنا وراحت في النوم على كنبتها..

.. كان عمري وقتها عامان ونصف بدأت أعي جيداً وألاحظ بدقة كل شئ حولي.. وعندما سكن الولد ونام كانت أختي سعاد

صاحبة الثماني سنوات ترقب كل ما يجري وهي ممدده فوق سرير أمها لبيبه لكنها مفتَّحه العينين فقالت :

– خلاص يامه.. كل ما يعيط خديه إذا كان كده هاينام على طول..

– ضحكت أمي لبيبه على كلام سعاد وأحكمت الغطاء حوله وقالت وهي تطلع إلى سريرها لتنام بجانب سعاد:

– علشان تعرفي أنا حنينه إزَّاي على الولاد الصغيرين .. وخرجت من غرفة أمي لبيبه إلى غرفتي .. فوجدت أمي تشخِّر في نومها من كثرة التعب، ودخل أبي علينا وأنا أسحب الغطاء فوقي فقال:

– هيَّ نامت .. أيوه ..

– فين عبد العزيز ..

– في قوضة أمي لبيبه ..

– ياسبحان الله ياريت يسكُت بلبيبه كل ما يعيَّط ..

– إنت بتحب عبدالعزيز..

– طبعاً..

– بتحبه أدى..

– لأ إنت أكتر ياحسن..

.. وفي اليوم التالي كان كلما بكي أعطته أمي لأمي لبيبه فيسكت.. وعندما جاء الليل وبدأ يبكي بكاءه الطويل إرتاحت أمي

منه وناولته لأمي لبيبه فسكت معها ونام مثل ليلة البارحة.. وفي الصباح من اليوم الثالث وأمي تخض القربه وأم إبراهيم تحمي الفرن للخبيز وأمي لبيبه تملأ القلل والتي جلست بعد ذلك أمام طبلية لتقرِّص الخبز فوقها (تقطع العجين أرغفة عيش) وراح الثلاثة يتحدثن عن الخميرة والدقيق وهن في إنهامكهن في الكلام والحديث صرخ عبدالعزيز صرخه عاليه تبعها بصرخات أعلى منها فقالت أمي :

– إلحقي يالبيبه خديه..

– آخده أوى ..

وهرولت إلى الغرفة وحملته ووضعته في حجر أمه فصرخ ثانية فقالت أمي لها:

– خديه خالص روحي بيه قوضتك دانا لسه مرَضَّعاه..

سعدت واحتضنته فسكت وراحت به إلى غرفتها فنام في أحضانها فوق الكنبه وهذه هي المره الثالثة..

وعادت أمي لبيبه تضحك قائله :

– ياريت كان عندي لبن في صدري..

– يمكن ربنا يديك علشان عبدالعزيز..

– إديه لي ياأم حسن..

– ياريت..

– والله صحيح..

– خديه زي سعاد..

– لما ييجي الحاج أقوله..

– أنا صاحبة الشأن بقولك خديه وهو هايفرح كده..

– بكام يا أم حسن..

ضحكت أم حسن وقالت :

– ببلاش هاديك فلوس عليه..

وراحت أمي لبيبه تغني.. تغني بحق وحقيقي وأم إبراهيم تضحك وتقول لها..

– أهي جات لك من السما..

– والله ربنا بيعوض..

– ربنا يعوض عليك.. ربنا كبير يالبيبه..

– إنت رضعيه وأكّليه وأنا أسكّت وأنيم..

– هادعيلك يالبيبه..

– طيب مش معنى حسن مابيجليش..

– يعني عايزة تاخدي الولاد كلها..

– أبداً أنا باسأل دا حسن مابيطيقش يقف في قوضتي دقيقة ويطلع جرى ليك..

– أسرار بتاع ربنا..

– هانقول للحاج..

– هو أول واحد ها يفرح علشان عايزك تسعدي وتبقى مبسوطه..

.. ولما جاء أبي من الغيط أخبرته أمي لبيبه بكل ما حدث فقال لأمي :

– صحيح ياحميده..

– والله صحيح..

– إنت موافقة إنه يبات مع أمه لبيبه..

– عادي.. ما هي أمه ياحداد..

وقامت أمي لبيبه وباست أمي من رأسها فتأثرت أمي من تصرفها ورفعت يديها إلى السماء قائله :

– يارب تدي صدر لبيبه اللبن..

– أهو كده أبقه أم بصحيح..

ولأول مرة يحصل الرضا التام بين كل أهل البيت.. وراحت أمي لبيبه تحكي لأهلها عما حدث.. وحكت أمي لكل أهلها الذين زاروها تباعاً بعد هذا الحديث، هذا غير أم إبراهيم التي ملأت شوارع وحارات العزبة البحرية بحكاية عبد العزيز مع أمه الجديدة لبيبه.. وملأت الحكاية دور أبي محمود وأبي دردير وقالت أمي مجيده القطان لأبي محمود :

– حاجة غريبة واحدة تخلّف وواحدة تسكّت والعيال يسكتوا في حضنها..

فيرد عليها أبي محمود :

– علشان الدراوشه يسكتو شويه عن حميده وتبرد نارهم..

– بالعكس يمكن الحكاية دي تخلّيهم يطمعوا أكتر في حداد..

– ربنا يهدي.. بس حسن إبن أمه بصحيح..

.. كلما ذهب أبي إلى أي مكان تعلّقت في يده وذهبت معه إلى الدكان في الليل وإلى دار عمي محمود وعمي دردير.. كانت كل زيارات أبي وخروجه في الليل.. ولكن ما أجمل أن يذهب أبي إلى الكفر ويأخذني معه هذه الليلة إلى بيت الست لظيمه البدري.. دخلنا إلى بيت جميل وسيده رأيتها جميلة وابنتها في منتهى الجمال والتي بلغت من عمرها خمسة عشرة ربيعاً ويزيد..

.. كنت أعي وأرى وأتأمل.. كانت السيدة منشغله مع بعض السيدات والفتيات من أهل الكفر وجلست أنا وأبي في الصالة واستطاعت السيدة لظيمه أن تنهي أعمالها معهن في نصف ساعة على ما تناولنا واجب الضيافة الذي قدمته سميرة الجميلة.. إنصرفت السيدات وفتاتين بعد أن فصلت لهن الست لظيمه فساتيهن وجلابيبهن وكانت خياطة الكفر الجميلة وإبنتها يحيِّكن لأرقى سيدات وبنات الكفر أجمل وأشيك الملابس الداخلية.. وبعد أن ودعت صاحبة البيت زبائنها حتى الباب الخارجي للبيت فلم يكن قد بقى من الزبائن غير فتاة واحدة جاءت ومعها كثير من الأقمشة لتفصيلها فساتين وجلاليب وقمصان داخلية وسراويل أنيقة.. إنها عروس الكفر في الشهر القادم.. عادت السيدة لظيمه فقبَّلت أبي.. وقلت ياريتني كنت أبويا وكانت الست في منتهى الذوق فقبلتني

أكثر من أبي.. وكانت العروس بالداخل في غرفة سميرة كي تكمل لها تفصيل ملابسها..

نادت صاحبه البيت سميرة وقالت لها :

– خدي حسن.. دا صغنون وجميل.. خديه معاكم.. مش عارف حاجة لسه..

وانحنت سميره لتحملني فأبيت وأمسكت بأصابع يدها وقلت في فخر :

– أنا بمشي.. أنا كبرت..

دخلتُ مع سميره غرفتها وهي تفصِّل أرق الثياب للعروس والتي رحبت بي وقبلتني في كل وجهي قائله.. منين القمر ده.. فقالت لها سميرة.. من بحري إبن أبويا الحاج.. غاليين عندنا اوي.. وأخذت الست لظيمه أبي من يده إلى غرفتها بعد أن تعطرت حيث سمعتها تقول في الخارج.. تعال هات إيدك الطريه دي في إيدي.. تعال نخش جوه أحسن.. واحشني ياحاج.. فقال لها أبي.. إيه الريحه الحلوه دي.. إنت وحشاني أوي..

ولأول مرة لطفل مثلي عمره يقترب من ثلاث سنوات يرى خياطه صغيرة السن مثل سميره تفصل ملابس عروس.. راحت تقيس لها بالمتر صدرها وأكتافها وحتى الخصر ثم إلى طرفي القدمين.. جلاليب وفساتين وبيجامات وكل نوع تفصيله شكل.. كل هذا وأنا مندمج في رؤية فتاتين واحدة في السادسة عشرة والعروس في العشرين من عمرها.. كلامهما ضحكهما تفصيلات حديثهما.. و لم أكن قد رأيت من قبل عروس في بحري قبل العرس أو عروس لها

تلك الثياب الجميلة التي ستحيكها ولا يوجد في العزبة البحرية كلها إمرأة أو فتاة ترتدي تلك الملابس الناعمة الرقيقة ولا البيجامات وحتى ملابسهن الداخلية فهي سراويل طويلة وقمصان نوم كأنها جلاليب وهي قَصَّة واحدة يقوم بخياطتها خياطين رجال مثل نصر على ومصطفى القاضي دون أخذ قياس.. بحري البلد كلها خناشير النساء تتحلى كل منهن بالقميص الأسود الواسع أم شمار وإذا خلعت لزوجها القميص الخارجي أو ما تحته رجعت كثيراً إلى الوراء حتى تخلع عنها ملابسها.. لا رقة ولا عذوبه ولا كياسه في الكلام أو حتى في وقت ملازمة زوجها في الفراش تقول كلمة حلوة أو تخنع لزوجها في أنوثة ودعه.. كل هذا عيب ولا يصح فأنا أم الرغيف وأم الفطير وأم كل أنواع الخبيز.. أحمى الفرن وأكنس الدار وأحزِّم البردعة فوق ظهر الحماره.. أحلب البقر والجاموس وأعمل أحلى تسقية كل صباح ومساء لزوجي وأولادي على فرن القاعة صيف شتاء..

النساء في ناحيتي بحري جحافل مصفحة. مكافحات عاملات عرقهن هو عطر فراشهن.. هن جميعاً عوامل إنتاج في الحقل وفي الدار.. وهل يستطيع طفل في هذه السن المبكرة أن يعقد هذه المقارنة بين النساء في قرية واحدة.. إنني عندما رأيت العروس تخلع ملابسها لتبقى أمامي وأمام الخياطة بقميصها القصير وسروالها الصغير حتى تستطيع الخياطة أن تفصِّل القميص وما تحت القميص مثل الذي ترتديه والتي إشترته من مصر عندما كانت مع أمها هناك في العام الماضي.. وحتى لباس الصدر خلعته لها كي تحيِّك لها مثله الكثير وحتى يكون محبوكا وشيكا وأنيقاً على صدرها.. ولأول مره

أسمع فتاه عروس تحكي بالتفصيل لفتاة مثلها تصغرها بثلاث سنوات عن سحر الملابس الداخلية ليلة الدخلة الأولى على زوجها وأنه إذا إهتمت الفتاة والتي ستصبح سيده بعد ذلك بتلك الملابس تستطيع أن تكون ملكه في دارها وساحرة لزوجها طول العمر.. حكت كثيراً للحائكة الصغيرة والحائكة تبتسم وتسمع وتقول لها.. برافو صحيح.. بس هو فيه كام واحدة في البلد زيك.. قليل أوي ومافيش غير في الكفر.. إنت جايبه الحرير والساتان لكن باقي البنات وكل بنات بحري وستاته عليهم بالدبلان والبفته.. إن كثيراً منهن لا يستطعن شراء الحرير وإذا إشترين الحرير فإنهن سيفصلنه كما تفصَّل الأشولة على الحمير.. ياجميلتي الجميل جميل.. وماذا تقول عين طفل وهي تسبح في كل أنحاء جسد العروس العاريه.. إن رأسي رأس طفل لكنه تخدَّر، وإن عيوني عين صغير ولكنها تجرأت واقتحمت وغاصت في أعضاء الفتنه.. وإن حواسي كرجل قد إنتصبت كأنني رجل ينفعل ويثار.. وهل كنت يا أبي تعرف أنني سوف أرى ما لم يره شاب في العشرين.. وهل كنت تعرف يا أبي أن إبنك سوف يكون له طموح وهل كنت تعلم يا أبي أن ولدك سوف يظل عبداً لجسد النساء عندما يكبر.. وهل سمعت يا أبي صوت إبنك عندما إرتدت العروس ملابسها أن قلت كما يقول الأطفال.. الله.. الله.. إيه ده.. إيه ده.. وهل تعلم أن الفتاتين قد ضحكتا طويلاً واحتضنت كل منهما الأخرى لما سمعن إندهاش واعجاب طفل صغير.. هل تعلم يا أبي أنك أرسلت إبنك إلى عالم أكبر منه.. هل تعلم يا أبي أنك جعلت لإبنك أو صنعت لولدك خيال لا حدود له وأنه من الآن قد أدرك أن واقع كل إمرأة ترتدي ملابسها فإذا

خلعت كان ذلك الخيال. هل تعرف يا أبي أنت لو طاوعت رغبتي وطموحي وخيالي وعمق اللذة التي إنتابتني في هذا البيت لبقيت في هذا البيت أبداً.. ولن آتى معك إلى بيتنا الذي يقع في بحري.. إن بيتنا الفقير بالمشاعر والأحاسيس والغنى بنقار الضُرر والغنى بالطعام والشراب وكلاب الغيط وغرفة التبن كل هذا لا يفيد إنني يا أبي من الآن لا أحب بحري.. إنني أريد أن يكون بحري مثل الكفر.. إنني أريد أن تكون كل فتاة في بحري مثل تلك عروس الكفر.. هل تعرف يا أبي أن العروس حملتني فوق صدرها العاري لتقبِّلني طويلاً وأنا مستمتع في لذة على صدرها ليتني مانزلت منه أبداً.. هل تعرف يا أبي ان العروس أعطتني تاجاً هو شهادة ستظل أبداً وهو أنني جميل وقمر وإمتى أبقى راجل.. والله لما أبقه راجل هاتجيلي من آخر الدنيا هكذا قالت لي وقالت لسميره.. هل تعرف إنني من اليوم سبقت طفولتي لأنني عرفت قيمتي عند النساء الجميلات..

.. ومن هذا اليوم بدأت أتمرد على نساء الترعة وأنهن جميعاً خناشير وعيب عليَّ وأنا في هذه المنزله والقدر من الجمال الذي رأيته والقدر من الجاذبية الذي منحته لي عروس الكفر أن أنزل إلى حرف الترعة وأن أنزل لأن أرى النساء الفلاحات وهن يحلبن البهائم.. هؤلاء من طينه العرق والحطب ومن تبن القمح الذي منه شيدوا غرفة التبن.. إن أبي على حق لما دخل مع لظيمه غرفتها.. إن أبي إختار من الكفر واحدة.. فهو رجل قد أدرك الجمال قبلي ويعيش فيه..

.. لقد أصبحت أكبر من عالمي في العزبة البحرية.. صحبني أبي وعاد بي إلى بيتنا.. دخلت البيت وقابلني بكاء عبد العزيز فناولته

أمي لأمي لبيبه وهي تقعد على المصطبه ورحت أرقب أمي التي جلست بجواري قُرب الصومعه ودخل أبي المندرة..

دقائق وسكت البكاء فقالت أمي للذي سكت :

– مش طمران فيك صدري..

وضحكت لبيبه في ثقة :

– ياستي هو بيحبني..

– وانت بتحبيه..

– أكيد مش دا إبن حداد..

– إشتريه يالبيبه أكتبيه بإسمك..

– والله لو كان ينفع أعمل كده أعمل..

– خشي إسألي حداد..

– فين..

– جوه المندره إنت مش داريه بحاجة..

– لما باخد عبد العزيز في حجري بتوه..

– طيب خُشي إسأليه..

وحملت عبد العزيز أمامها بذراعيها أمام صدرها ودفعت الباب وقالت :

– ينفع أكتبه بإسمي يا حداد..

فلم يرد عليها كان ممدوداً بكامل جسده فوق الكنبه وكان شخيره منخفضاً لم يعلو بعد.. إقتربت منه فسمعت شخيره فطلعت وقالت لأمي :

– دا رايح في سابع نومه..

وهزت أمي رأسها وقالت في غيظ :

– أصله كان بيعزق عند لظيمه..

وضحكت لبيبه ضحكتها إياها.. الضحكة التي ترجرج البيت ولم تبالي بالمعنى الذي قالته أمي..

وأخذت عبد العزيز إلى حيث يرقد كل ليلة..

وأمسكتني أمي من ذراعي وكأنها تستحلفني وقالت :

– عملتوا إيه عند لظيمه..

– قعدنا في الصالة وكلت موز وأبويا شرب شاي وقهوه..

– وبعدين..

– قعدنا قعدتنا وجينا..

– بالذمه ياحسن..

– يعني إيه ذمه..

– يعني قول الحقيقة أبوك ماقعدش مع لظيمه لوحدهم..

– مش فاهم..

– فعلاً في السن دى مش هاتفهم حاجة..

– ياريت أفهم اللى إنت عايزاه..

– عمرك ما هتفهم يابني تعالى أعشِّيك علشان تنام..

– لأ.. أنا كلت موز..

.. وطلعت إلى سريري ورقدت أمي على كنبتها وكانت تريد أن تحكي لي عن ما حصل في اليوم ولم أره.. وعندما بدأت تتكلم رحت في نوم عميق مثل أبي فقامت من فراشها لتشد الغطاء فوقي..

.. وفي الصباح عقدتُ العزم أن لا أقول سراً عن أبي ولن أبوح بشيء مما رأيته.. وأدركت أن للنساء في داخل البيوت عالم يختلف تماماً عن عالم الرجال.. ولكن كيف يكون لأبي كل هذه العوالم ومتى يكون لي عوالم مثل أبي..

.....

"الساقية والراكيه وعكيله"

.. كان كثير من أهل ملأة مريان بالغيط لا يعرفون أبي فهو الرجل الذي يقوم بأعمال كثيرة خيِّرة للناس دون أن يتكلم عنها للآخرين، وكان أول عمل طيب عم الجميع هو توليه ترحيل شنآنه وأهلها.. وفوجئوا جميعاً بنجاحه في ذلك وراحوا جميعاً يحيونه ويحكون عما فعله، ولما طلَّق قدريه أمام الشيخ أمين وإبنها طلقه ثالثة لا رجعه فيها.. كان ذلك مفاجأة للجميع ولإبنها وهم الذين يتكلمون عنه منذ سنوات بأنه عاشق لقدرية في غرفة التبن، وبات عندهم يقين بأنه لا يجب أن يتكلموا عن هذا الرجل لأن أعماله بدأت تظهر فباطنها خير وظاهرها شك يلوك بين الناس..

.. ولما بدأت بعد أن أكملت الثالثة من عمري أشبط مع أبي في أي مشوار وأصر أن أذهب معه كان يرضخ لرغبتي واصراري في أن أذهب معه إلى أي مكان لأرى العوالم الجميلة التي يذهب اليها.. ومن عادة أصحاب الأرض عندما يقومون في الليل برى أراضيهم يذهب صاحب الأرض إلى الغيط ليباشر هذا العمل الذي يستمر ليله وليلتين.. بعد عشاء ليلة من الليالي ركب أبي حمارته وأخذ معه طعاماً وشاياً وسكراً لزوم سهر الليل بجانب الساقية وحتى يأكل الأنفار كلما جاعوا طيلة الليل.. ركبت أمامه ولفنَّي بعباءته معه واجتازت الركوبة ثلاثة كيلو مترات حتى وصلنا "الكبَّاس" الساقية التي تروي الأرض.. فإذا كانت الساقية كبيره سموها الكباس وإذا كانت متوسطة سموها الطبلية وإذا كانت صغيرة سموها الساقية.. وكان هذا الكبَّاس ملك لأبي وأبي محمود وأبي دردير فقط فهو يقع على رأس غيطهم منذ زمن بعيد.. وهم الذين يروون أرضهم أولاً

بعد ذلك ليسقى بقية الناس أرضهم من ساقيتنا بدون مقابل.. وفي عرف الفلاحين أن ذلك يعتبر ثواباً يجازي به الله لأن كثيراً من الفلاحين لا يملكون أي نوع من أنواع السواقي..

.. وفي ليلة الري يكون هناك عند الأرض التي ينصب فيها الماء نفرين أو ثلاثة يقومون بالتحويل والتصريف في شرائح الأرض المتجاورة.. وعند الساقية نزل أبي وحملني من فوق ظهر الحمارة إلى الأرض وفرش حراماً فوق الأرض وأجلسني ووضع فوق جسدي عباءته كي تحميني من البرد.. وأرسل في طلب رجب من عند المروه.. ولما جاءه رجب كان أبي قد إنتهى من حفر الراكيه وتكسير الخشب الناشف الذي وضعه قطعاً صغيرة في حفرة الراكيه وأشعل النار فيها.. مرَّ وقت قليل وجاءه رجب الذي قال :

– أيو يابه الحاج..

– الميه عامله إيه..

– كله ماشي كويس..

– فاضل أد إيه..

– لسه في أول الغيط..

– مين معاك من الأنفار..

– فتحي..

– طيب خد عشان تاكلوا كل ما تجوعوا..

وناوله أبي عيش وشوية بتاو وجبنه وحلاوة طحينية.. ثم قال له :

– أقعد لقّم الشاي الأول (يعني عاير الشاي)

.. لفَّ الطعام في لفافه من الخيش وقعد ليعمل الدور الأول من الشاي وفي عجل وضع كوبايه من الشاي في براد صغير ليذهب به إلى زميله فتحي وقال :

– هاروح أنا عشان المَيَّه عايزني في حاجة تاني يابه الحاج..

– بعد ما تطمن على الري.. هات عنب وتعال عشان حسن..

– هاجيب عنب الجنينه كله عشانه..

– تبقه إغسله من الطرمبه (الطلمبه).

– حاضر سلام يابه الحاج..

لأول مرة أرى كيف تدور الساقية التي تُجرها بقره في شكل دائرة وكيف تنزل المياه التي تندلع من عيون الساقية في حفرة رئيسية ثم تنصرف الى قناة متفرعه من الساقية إلى الغيط.. وكلما وقفت البقرة قال لها أبي.. عا.. أوعَهْ فتمشي.. وأخبرني أنها لو كانت جاموسه سيقول لها.. حيه.. وأخبرني أن البقر أفضل في تدوير الساقية من الجاموس فالجاموس يقف كثيرا والبقر لا يتوقف مثله ومن أول ندهه.. عا.. يمشي لكن الجاموس عاصي ولابد أن تضربه بالفرقله كي يمشي.. وأفهمني أبي أن وجودنا بجانب الساقية ضروري لأنه سواءاً كان بقرة أو جاموسة فإنه يمكن أن تقف بصفة دائمة أو تكثر من الوقوف فتتوقف المياه ولا تذهب إلى الأرض.. فالذي يقعد بجوار الساقية لكي يسوق البهيم الذي يجر الساقية

ليستمر ضخ المياه إلى الأرض. وبعد أن أخبرني أبي بكل هذا شعرت بأنه أطال على وأنني لم أستوعب كل كلامه فقال :

– إنت زهقت..

– لأ..

– فهمت..

– فهمت يابه.. دي حاجة حلوة أوي..

.. كان الظلام حول الساقية دامساً وكانت مساحات الحقول حولنا لا ترى مداها وكانت الترعه التي يتم سحب المياه منها إلى الساقية خالية من البط والوز الذي يسبح فيها طول النهار لأن أصحابه يأخذونه عند المغرب في داخل بيوتهم.. لكن من وقت لآخر يضرب شيئاً في مياه الترعة كأن واحداً ألقى فيها بطوبه.. فيقول أبي هذا قرموط سمك.. وكنت مشدودًا.. ولما كثرت ضربات القراميط في الترعة قلت لأبي :

– هوَّ السمك الناس بتجيبه من الترعة..

– بعد الناس ما تروي ويخلص الدور (يعني إندلاع المياه من مصبها الرئيس) الترعة بتنشف.. والسمك بكل أنواعه بيكون قريب من إيد الناس.. كل واحد عايز يصيد سمك يترل يصيد.. وعلى فكرة السواقي بتبقه مليانه قراميط.. وكل واحد صاحب ساقية بيجيب قراميط زي ما هو عايز بعد الميه ما تنشف.. عرفت كل حاجة.. بكفاية..

– لأ قول كمان يابه.. أنا مش عايز أقعد في البلد..

– ماينفعش لّما تكبر هاتيجي وتعرف كل حاجة بنفسك..

– عايز أشرب شاي..

– الدور الأول تقيل صعب عليك.. هاعملك كوبايه لوحدك..

– مش أنا راجل أشرب كل حاجة..

– لأ شاي خفيف أحسن زي أبويا ما كان بيعمل لينا..

– خلاص يابه.. هات..

.. ورحت أنظر حولي فلم أر غير إمتداد الحقول والظلام قد فرد عباءته إلى آخر مدى لا أرى ماذا بعده.. وحلّقت بعيني إلى السماء فرأيت مئات النجوم المضيئة والناعسة إلا أنني رأيت مجموعة من النجوم ساطعه في محور واحد فقلت :

– ليه دي منورة أوي..

– علشان دول النجم القطبي..

– يعني إيه..

– شوية شوية.. دا موضوع كبير..

– طيب ودي دار مين..

– دي دار فتح الله حجاج..

– هو جوه في الدار..

– ليه مايجيش يقعد معانا..

– بعد المغرب كل واحد بينكن في داره وأي واحد يحب يقعد معانا ييجي..

– ودي إيه..

– دا سور المصلّيه..

– بتاعة مين..

– بتاعه الناس كلها.. كل واحد عايز يصلي يصلي.. دي بتاعة الناس كلها..

– عايز أشوف السمك في الترعة..

– مش دلوقتي بالنهار بعد الميه ما تنشف..

.. ورحت أرقب كل ما حولي دون كلل رغم أن الليل مظلم ولا أرى أمامي إلا أمتار قليلة.. وجاء رجب بجردل عنب مغسول من الطرمبه.. ووضع أمامي غطاء حله وأخذ يخرج أقطاف العنب من الجردل ويضعها أمامي.. وأبي يبتسم ويقول..

.. كل.. شوف العنب بتاع الغيط.. ورُحت أأكل وانقلب رجب إلى المروه مرة أخرى..

.. جلس أبي بجواري وتغطي معي في عباءته وراح يدفء كفيه فوق نار الركيه وعملت مثله وراح أبي يقهقهه ويقول :

– كده مره واحدة بقيت فلاح..

.. وسمعنا صوتاً على السكه ينادي :

– يابه حداد.. يابه حداد..

فتطلع أبي نحو السوط ورد قائلاً :

– مين.. مين..

– أنا عبده عماره..

– تعال..

.. فلاح في الخمسين من العمر يرتدي بُلْغة وجلباباً وطاقيه.. نزل من فوق حمارته بعد أن إقترب من زمام الساقيه وربطها في جذع شجرة صغيرة على حرف الترعة.. وتقدَّم نحونا وهو يمديده لأبي قائلاً :

– لأ والله خليِّك قاعد زي ما انت.

وصافحه أبي وجلس مقابلتنا حول الراكيه وأخذ يتكلم عن الزرع والقلع والري وأمور أخرى ثم قال وكأنه يهمس :

– إنت عارف يابه الحاج بنت على العناني..

– لأ..

– دي جوزها مات من سنة.. مالهاش حد وأنت عارف إنها قريبتي من بعيد..

– أيوه عارف إن على العناني قريبك.. وعايز إيه..

– هي ست شروخ وهاتعجبك وهي المشكلة أنا خايف عليها من الناس حواليها..

– هات من الآخر عايز إيه..

– إتجوزها يابه الحاج..

– يعني أنا قاعد للنسوان اللى إترملت..

– لأ والله العفو..

– اتجوزها إنت..

– مراتي هاتبهدلني.. إنت عارف النص فدان إللى بترزع فيه بتاعها.. ياريت يابه الحاج أقدر..

– ومش معنى أقدر أنا..

– إنت جامد أوي أنا ضعيف.. وبعدين هي هاتبقه خدامتك.. هاتها معاك هنا في الغيط ولو عايزها تشتغل في الغيط هاتشتغل..

– هي كام سنة..

– أقل من خمسين.. لكن زي البقرة..

– يعني إنت مالقتش حد غيري..

– يابه الحاج إنت بتاع الغلابة وهاينوبك ثواب..

– طيب أشوفها إزاي..

– ممكن تتكرم عندي بكره أو في أي وقت يعجبك..

– إسمها إيه..

– عكيله..

– خلاص ياعبده هاجيلك بكره بعد العصر..

– هايبقه يوم هنا لما تنوَّر بيتنا..

– بس تعرف أنا باخد الواحدة بجلابيتها.. وهاتعيش معايا هنا في بيت الغيط..

– هاقولّها على كل حاجة..

.. وانصرف الرجل وهو يشكر أبي.. وابتسم أبي نحوي وقال :

– فهمت حاجة..

– دي واحدة هتتجوزها.. يعني إيه تتجوزها..

– أبداً.. هاتيجي تطبخ وتغسل وتوضّب قوضتي..

– وأمي وأمي لبيبه..

– دي في الغيط ودول في البلد..

– ولظيمه..

– يانهار إسود عليك ياحسن..

– قولي يابه مش إنت قفلت الباب وهي معاك جوه..

– يابني دخلنا جوه من البرد.. وكنت باكل معاها..

– يعني الجواز واحدة تعمل للراجل حاجته..

– زي صيد السمك من الترعة..

– برضه مش عارف الناس بتصيد إزاي..

– شوية شوية هاتعرف.. لّما تروح هاتحكي لأمك إللى شفته..

– إنت عايز ايه يابه..

– ماتحكيش..

– عمري ماهاحكي عنك حاجة.. مش إحنا رجاله زي بعض..

.. وانخرط أبي في ضحك متواصل حتى سعل من كثرته.. وخرج رجل من البيت الذي يقع مقابل الكبَّاس بفانوس مضئ في يده يبدو أنه إستيقظ من سعال أبي.. وألقى الرجل السلام على أبي وهو يقف في طرف جدار بيته فقال له أبي :

– إزيك يا أحمد..

ثم دخل الرجل إلى بيته فقلت، لأبي :

– ومن هذا..

– أحمد سليم..

– قريبنا..

– لأ راجل طول عمره جارنا دا من غرب البلد..

– عايز أنام..

– أروَّجك ولاَّ تنام هنا..

– أنام هنا.. هو فيه حد يسيب صوت الساقية ويروَّح..

***

وفي فجر هذا اليوم سمعت صوت أبي وهو يؤم المصلِّين في مصلية فتح الله حجاج فاستيقظت على كلمات القرآن ولكنني أثرت أن أظل راقداً.. كان صهد نار الراكيه شديداً لكن سقعة الفجرية كانت أشد، ويبدو أن أبي قد وضع غلاي الشاي فوق الراكيه فماؤه تغلي وتكاد تفور ومازال أبي بصوته الرخيم يرج مدار الساقيه

ولما أمعنتُ النظر أمامي وجدت كلبنا الكبير يرقد فوق كومه رتش في مقابلتي ترى من أتى به وما علاقته بالساقية.. وسمعت المصلّين.. حرماً.. جمعاً إن شاء الله.. وهبهب الكلب مرتين ثم أتاني أبي وجلس حول النار وبقى معه رجل من المصلّين وسمعته يقول لأبي وهو فوق القنطرة :

– الدنيا برد عليه ليه جبته ياحاج..

– مش قادر عليه..

– دا لسه لحمه مكانه الفرن..

– عنيد.. عنيد أوي..

– أجيب حرام أغطيه فوق البطانية..

– لأ ياحاج أحمد مافيش برد ولا حاجة أنا مدفّيه ولافف العبايه عليه مرتين..

– عايز حاجة ياحاج هاخش أنا شوية..

– لأ روح إنت..

إقترب الكلب من أبي فوضع يده فوق رأسه وراح بيده كمن يدلك رقبته مع رأسه وراح الكلب يزوم كأنه يشكره.. وقلّب أبي في مقطف وأخرج منه بعض الخبز وقطعة من الحلاوة ووضعها للكلب ليأكل.. وأخذ الكلب يلتهم طعامه وأبي يقول له:

– والله تستاهل خروف..

.. وضحكت من تحت الغطاء وفوجئ أبي بأني أسمعه فقال :

– آه يامكار إنت صحيت..

– وسامع صوتك وانت بتصلي..

– بردان..

– لأ..

– شوفت الكلب..

– إيه اللى جابه..

– هي دي عادته كل ما نروى ييجي في نص الليل يقعد معانا هنا..

– هو عارفني..

– أكيد وكان لما ييجي يتمشى بين الدار والساقية ولكن باين لما شافك نايم خايف عليك..

– مش فاهم..

– يعني لما عرف أن فيه صغير نايم قعد قصادك على طول يحرسك..

– معقولة الكلب ناصح لغاية كده..

– وأكتر من كدة أنا عارف كلابي..

– الكلاب في الغيط كتير أوي..

– والبلد فيها أكتر..

– عايزين كلب في بيت البلد..

– لأ.. مافيش ديابه حوالينا ولا حراميه ولا تعالب..

– شوف الكلب إللى قصادنا عمال ينبح من الصبح..

– دا كلب أحمد سليم.. كل كلاب الحته بتخاف من كلبنا بيهبهب وبس لأنه شايف السبع..

– والحته دي كلها فيها سبعنا بس..

– لأ الحاج حسن قريبي على تارة البحر عنده سبع تاني..

– من ضمن الحاجات الحلوه في الغيط صوت الكلاب..

– دايماً تهبهب وبتشعر الناس بالأمان وإن لا ديب ولا حرامي ولا تعلب يستجري يهوِّب ناحية الدور..

– هوَّ الديب والتعلب ممكن ياخد إيه..

– ياخد الفراخ والوز وكل أنواع الطيور وياخذ المعيز وكل حاجة صغيرة ممكن يجرها ويلتهمها جوه.. هناك.. حجوره في البوص اللى على البحر..

– وليه الناس بتربي طيور كتير..

– لما تكبر تعرف أن الطيور هي معاش الفلاح.. الفلاحه يوم الخميس لما تبيع فرختين تقدر تجيب كل حاجة البيت من السوق..

– مش فاهم أوي..

– بكره تفهم.. مش كل حاجة هاتفهمها ميه الميه.. أنا بقولك علشان مخك على أد ما تقدر يتوسع واحده واحده..

– النهار شقشق ولسه الأرض ماخلصتش ري..

– لسه فاضل النهارده..

– هاتني نايم هنا لما الارض كلها تخلص..

– مش هاينفع لازم أروحك بكفاية عليك كده..

– كل حاجة هنا حلوه والبلد مافيهاش حاجه..

– بصراحة مافيش طفل أدك شاف إللى إنت شفته.. أنا سايبك براحتك على أد ما قدر علشان..

– علشان إيه..

– علشان تتبسط ولما تكبر هاتعرف كل حاجة بنفسك.. أنا نفسي تكبر وتبقه جنبي في كل حته شوف أنا سنى أكتر من أربعين سنة ومالیش حد من ولادي كبر..

– بكره هاكبر..

– طيب ياله أروحك..

– خليني شوية لما أشوف الشمس بتطلع..

– هاتشوفها واحنا مروحين..

***

"حكاية قديمة وكلاب أخرى"

دخلنا البيت والشمس قد سطعت فوق أسطح البيوت وكانت أمي تبكي وأخذتني من أمام أبي قائله :

– كانت ليلة بيضه حرام عليك ياحسن..

وضحكت وأنا أحاول أن اتخلص من إحتضانها لي ونيمتني على الكنبه قائله :

– كلك عفار هاحمِّيك الأول..

سمعت الطشت يخبَّط في القاعة فهل دخل أبي يستحم ولحظات سمعت أبي يتنحنح في المندرة.. وجاءتني أمي وحملتني إلى القاعة بكامل عفاري بتاع الغيط وخلعت عني ملابسي واقعدتني فوق كرسي الطشت وراحت تدعك جسدي بالليفه والصابوبة وتصب الماء الدافء فوق رأسي.. نشفتني بفوطتي الصغيرة وألبستني ملابس نظيفة ولفتني في عباية قديمة لأبي وخرجت بي من باب القاعة لتدخلني إلى فراشي في الغرفة المقابلة ولما أحسنت غطائي قالت :

– نام شوية على ما أعملك فطار..

وأخذني النوم العميق وقلت في نفسي وأنا ممتن لحب أبي وحب أمي.. فعلاً البلد مافيهاش حاجة فيها أمي بس.. لكن أبويا هو العالم الكبير.. الدنيا كلها عند أبويا.. وفي هذا اليوم لم تستطع أمي أن تطعمني حيث بقيت طيلة اليوم أغط في نوم عميق.. وفي المساء بعد المغرب إستيقظت على بكاء عبدالعزيز وهو يرضع اللبن من صدر أمي.. وكانت أمي تقول له كأنه سيفهم.. بطل عياط زهقتني..

إرضع وروح لها.. وكانت سعاد أختي تقف عند باب الغرفة تراقب عبد العزيز مع أمي وكأنها تنتظر أن تأخذه معها إلى غرفتهم.. وكانت أمي لبيبة تقضي بعض أعمال البيت وهي تسمع كلام أمي لعبد العزيز فتضحك وتقول :

– ياهناي ياعبدالعزيز..

فتقول لها سعاد :

– وأنا..

– وأنت..

– خلاص رضع..

.. وتأخذه سعاد من حجر أمي في لهفة وتذهب به إلى غرفة أمي لبيبه، وما إن شعر الولد بأنه ليس في حجر أمه لبيبه علا بالصراخ فهرولت إليه أمه وأخذته في حجرها حتى نام..

.. وفي هذا اليوم جاءت أم الرزق خالة أبي لزيارة إبنة أخوها لبيبه، وكانت العادة أن يتم قفل باب الغرفة حتى تأخذ كل منهما راحتها في الحديث عن أمي وأحوال البيت.. لكن في هذا اليوم قالت أم الرزق :

– والنبي ما لقيت أخيب منك..

– ليه ياعمه..

– بتزرعي في غيط غيرك..

– فسري ياعمه..

– هم دول ولادك..

– والله فعلا بيحبوني..

– لما يكبروا هايروحو لأمهم..

– وأنا هابقه لوحدي أبداً..

– بكره تشوفي ياخايبه..

– مش فاهمة أعمل إيه ياعمه..

– خليه يكتبهم بإسمك..

– خلاص لما ييجي هاقوله..

وكانت سعاد تسمع ولكنها لم تبال وقالت لأمها لبيبه :

– هات قرش أجيب بيه حلاوة..

– هاتعرفي لوحدك..

– هاعرف..

.. أخذت القرش وذهبت إلى دكان محمد عفيفي واشترت نص كيلو حلاوة بقرش ولما عادت بالحلاوة شاركتها أم الرزق في أكلها ولما إنتهت قالت :

– وعامله إيه المعِّدله..

– كويسه.. بصراحة إدتنى الأولاد ومش زعلانه عن طيب خاطر..

– يعني إنت بتربي وتحمِّي وتشيلي وبعدين..

– خلاص ياعمة هاقول للحاج يكتبهم بإسمي..

– وبعدين مش مضيَّقين عليك عيشتك لما حداد بيعوزك..

– أبداً هو حداد قبل الولاد بيحب ياخدني القاعة..

– قوضتك أنضف من القاعة..

– أصل قوضتي على الشارع وممكن أي حد يسمعنا..

– إنت برضه بتصدقي الكلام ده..

– بيقولوا فيه عيل صُغير من ولاد حرب بيلف الدور كل ليلة علشان يسمع..

– ماتصدقيش..

– بيقولوا الناس.. طلع لعريس وعروسه الشجرة علشان يسمعهم..

– هم متجوزين في المقاعد..

– أيوه..

– ومش خايف يقع وتتكسر رقبته..

– هو دا مزاجه بيقولوا هو إتولد علشان يتسنط..

– قوضتك أحسن وإنت ليه تزَّعقي مش معنى هي ليها قوضه..

– برضه بياخدها القاعة..

– طيب أنا هاقوم مافيش فايده من كلامي..

– إستني ياعمه..

ودخلت أمي لبيبه غرفة الغموس وملأت مقطفاً قديماً بالعيش والبتو وجبن قريش ورطلين زبده وخرجت إلى عمتها قائله :

– خدي دول دلوقتي.. بكره هانعمل فطير تبقى تعال آخر النهار..

– طيب يالبيبه هاجيلك بكره..

.. ولما تجاوزت الباب مودعه إبنة أخيها وجدتني جالساً بجانب باب الغرفة فقالت وهي تشوِّح بذراعها نحوي :

– إنت مقعبز هنا.. يالهوي..

ولما كنت قد تجاوزت الثالثة بكثير بدأت أشعر بمن حولي فهذا يحبني وهذا لا يحبني وهذه تكرهني.. فهذه المرأة التي تجاوزت الخامسة والستين عاماً أم الزرق مرات عبد الرازق الورك تكرهني وأنا أكرهها، وفي هذا اليوم عندما جاء أبي من الغيط بعد المغرب قلت له :

– أم الرزق خالتك يابه..

– فهز رأسه وقال :

– آي مش قلت لك قبل كدة..

– الست دي مابتحبنيش ليه..

– دي بتحبك بس إنت مش واخد بالك..

– لأ يابه..

– ماتاخدش في بالك ياحسن..

– أمك كانت زيها كدة..

– أبداً يابني.. كانت بيضه وماكنتش زرقه كده وبيقولوا كانت طيبه وبتصلّي وعلشان كده ماتت.. كانت طيبه زي خالي محمد.. وعلشان طيبه إتجوزت أبويا أحسن راجل في العيلة..

– أم الرزق دي وحشه في كل حاجة..

– وعلشان كده إتجوزت عبد الرازق الورك.. شوفته..

– أنا شفته مابيجيش ليه.. يعني إيه ورك..

– أنا منعته إنه ييجي.. طول ما هو قاعد يتف وينف على الأرض ويقعد بره في السور ومش عايز يتنقل من البيت.. ألكع راجل في شنشور.. هو أنا يابني عملت بيتي ملجأ.. كرشته وقلت لخالتي مايجيش هنا تاني..

– قالت إيه..

– دا غلبان ياحداد هو بييجي علشان ياكل..

– قلت لها خدي أكله..

– يعني إيه ورك..

– تقريباً علشان رجله شكل رجل السلعوه..

– غريبة أوي هو يعتبر قريبنا..

– لأ.. هو جوز خالتي بس..

– غريبة.. ولما هو راجل سكلّي كده جوزتوه خالتك ليه..

– خالي إللىِّ جِّوزه.. أصل خالتي وحشه ماانت شايفها زي ما يكون ساقطة من قعر المحمة..

– يعني لّمتوها وخلاص..

ضحك أبي وقال – زي كده ياحسن..

– تعرف أنا باتمنى إيه..

– إيه ياحسن..

– أم الرزق تموت والورك بتاعها يموت وراها..

– ياه للدرجة دي.. سيب الملك للمالك زي أبوك.. إنت عارف إن أنا بقه لي مده أقعد بالكرسي جنب قوضه أمي لبيبه..

– ما تقعد أدام المندره..

– أبداً أصل عايز أسمع أمي لبيبه وهي بتكلّم سعاد..

– طيب ماده يبقه عيب.. دي عاده وحشه..

– يابه أنا عيل صغير.. عايز أعرف ليه سعاد بتحب أمي لبيبه وليه عبد العزيز بيسكت معاها..

– على العموم إنت لسه صغير إعمل اللى يعجبك.. وسمعت إيه..

– أنا سمعت خالتك بس..

– بتقول إيه..

– إكتبي سعاد وعبدالعزيز بإسمك.. هو إنت خدامه هاتربي العيال ببلاش..

– وأمك لبيبه قالت لها إيه :

– لما ييجي حداد هاسأله..

– وبعدين..

– دي أهم حاجة حصلت..

وسكت أبي لكنه كان حزيناً فقلت له بعد طول صمت أنا عايز أروح الدكان.. فهز رأسه وقال وأنا كمان عايز أروّق بالي شوية.. وأخذني من يدي إلى دكان عبده أبو سعده وكانت العاده أن يرحب بي الرجال هناك ويتسابق كل منهم في شراء النعناع والكراملة والحلاوة السمسمية ويضعوها في حجري.. إلا أن أبي لم يدعهم بعد ذلك يفعلون ذلك وحلف عليهم.. وكان أبي لا يحب أن آخذ شيئاً من أحد.. وكنت مغرماً وشغوفاً وأجد لذة كبيرة وأنا أرى شلة أبي وهم يشربون الشاي ويدخنون الجوزه والسجائر وكنت أسعد أكثر عندما أجد أبي يدخن كرسي الجوزه بشراهة وأرى شخلول الدخان يخرج من فتحة أنفه الواسعة كأنه فوهة ماكينة طحين.. وكنت أبتسم وكان أبي يسعد عندما يراني مسروراً.. وطول القعدة التي تزيد عادة عن ساعة أسمع حكايات من هؤلاء الرجال عن الزرع والقلع والخبز والحصاد وصيد السمك والأنفار.. كانت الدنيا كلها في الدور والغيطان حولي ينقلها أصحابها في الدكان وأسمعها كلمة كلمة وحكاية بعد حكاية.. وكان أبي ينقل كل حلوى الدكان إلى حجري.. كراملة.. نعناع..

حلاوة حمصية وسمسمية وطحينية وغيرها وكان صاحب الدكان يفرح عندما يجدني في صحبة أبي.. وعندما يهم أبي بالخروج من الدكان يشتري بعض الحلوى لسعاد خاصة الحلاوة الطحينية التي كانت تُحبها..

.. وكنت بدوري أحكي لأمي وأنا في سريري أهم الحكايات التي سمعتها في الدكان فتضحك وتقول وايه كمان.. ولما أنتهى تحكي لي كل ما حدث في البيت مع أمي لبيبه وأم إبراهيم الشغالة..

وكانت أمي شاطره في عمل الفطير المشلتت والكعك بشهادة أبي وكان أبي دائماً يضحك ويقول.. حميدة تعمل الفطير والكحك.. ولبيبه تعمل البتاو.. وكانت لبيبه تضحك ثم تسكت وتقول يابختى حتى أنا في الخبيز أخبز البتاو واللي بيجرح الزور وأحيانا تقول.. قليل البخت قليل البخت في كل حاجة.. وأخرى تقول قليل البخت لقى العضم في الكرشه.. وكانت أم إبراهيم الشغالة تموت من الضحك لشهادة أبي لأنها كانت تحب أمي وكانت أمي تحبها لأنها كانت تأتي لها بأخبار الدور والناس حولنا وخاصة أخبار دار عمي محمود وعمي دردير.. وكانت أم إبراهيم شرفه بحكاياتها ترى أمي البلد من حولها ولم يكن هناك تسليه في بيتنا غير حكايات أم إبراهيم لأمي.. وفي كل البيوت لا توجد أي وسائل ترفيه غير الحكايات وكانت الشغالات يقمن بهذا الدور كما ينبغي للحفاظ على عملهن في بيوت أصحاب الأرض.. يعني نقل الكلام والأخبار والحكايات واللت والعجن والخبص كان من أهم مؤهلات الشغالات في تلك الفترة وكان ذلك عند السيدات في هذه البيوت أهم من شغل أم إبراهيم وغيرها..

.. وفي اليوم التالي جلست على كرسي عند باب أمي لبيبه لأنني أعرف أن أم الرزق قادمه لتأخذ الفطير وطال إنتظاري إلا إنني تذكرت أنها ستأتي بعد العصر وكنت في داخل نفسي أريد أن أقترب من أختي سعاد لكنها لم تساعدني على ذلك.. كانت كاشة مني كأنني إبن حميدة وهي بنت لبيبه ولابد أن تأخذ موقفاً مقفولاً مني.. إلا أنها في هذا اليوم قالت لي :

– أبوك بياخدك الدكان..

– ايوه..

– أنا عايزه أروح الدكان..

فسمعتها أمي لبيبه فزغدتها في صدرها وكأنها تلقى عليها درساً من دروس الأدب وقالت :

– ياجامدة البنات ماتروحش الدكاكين..

وراحت تبكي وطلعت إلى السرير وانكفأت نحو الحائط تبكي في صمت.. ولما زهقت من طول الإنتظار وطول النهار ولم تأت أم الرزق.. خرجت ولأول مرة ووقفت في فاتحة الباب الخارجي للسور.. وكأنني كنت أمله لكل الذين يمرون في الطريق خاصة الستات والفتيات اللائي كن يذهبن لملأ الحلل والزلع من حنفية خليفة الأكرت.. تقترب كل واحدة منهن مني ويملن نحوي :

– هو إنت حسن..

– ياحلاوة..

– إطلع بقه خلى الناس تشوفك..

– والنبي لأتوحم عليك.. ياهوي لو جبت واد زيك..

– ليهم حق يحجبوك..

– خش أحسن حد يخطفك..

– ياقمر أربعتاشر..

– ياأم حسن.. ياخاله لبيبه.. خدو حسن من عند الباب..

إلا أن ولداً شقياً سافلاً حقيراً من شارع أبو سمك إسمه فتحي ستيته تقدَّم نحوي وراح يتراقص أمامي ويهتف بأعلى صوته.. العروسة أهه.. العروسة أهه.. إعتراني ذهول وانحنيت لأعثر على شئ أقذفه به فلم أجد إلا أن واحده من النساء إنحنت لتكبش كبشة تراب من الأرض وقذفته في وجهه زاعقه :

– إمشي يابن الملدوعة .. فجري هذا الولد الجربوع نحو شارعه.. وأخذتني هذه المرأة من يدي بقوة ودخلت بي إلى داخل البيت وهي تنادي ياخاله لبيبه.. ياخاله لبيبه.. فهلعت إليها أمي لبيبه من غرفتها وأخذتني منها وأخبرتها بأن لا يجب أن أقف على الباب قائله :

– والنبي ياخاله في الحته عيال زي الكلاب.. عيال عمرهم ماشافو تربيه..

– كتر خيرك مش إنت فاطمة بنت عبدالله أبو إسماعيل..

– مايجيناش أعز منكم ياخاله لبيبه أقفلوا الباب علشان مايطلعش تاني..

وكم من الحزن داخلني عندما وصفني بالعروسة وكان جرابيع أهل قريتي من حولي كثيرين.. فإذا رأى الأولاد ولداً جميلاً أو مهنداماً ويرتدي حذاءاً أو ملابس نظيفة يظهر هذا الولد في نظرهم أنثى ويتكلموا عنه جميعاً ويتمنى كل واحد منهم أن يعبط هذا الولد ويحتضنه وينثرون حوله الحكايات.. وبدأت أكره كل من حولي من الأولاد الذين على شاكلة فتحي ستيته وكان معظم أولاد الشوارع في عمري وأكبر مني بنفس صفات فتحي ستيته.. وحكيت لأبي وأمي وأمي لبيبه ما حدث وما قالته النساء لي إلى أن أهانني إبن ستيته.. وأبدى أبي إستياؤه الشديد وبدأ يكره مثل هؤلاء الأولاد مثلي وذهب هذه الليلة وأخذني في يده وطرق باب ستيته الكيلانيه فخرجت له ولما رأت أبي قالت :

– أيوه ياخال حداد..

– فين فتحي إبنك..

– مش هنا..

– طيب إبنك عمل وعمل.. وحكى لها بالتفصيل..

وفي لا مبالاه :

– ياخال حداد دي حاجة بسيطة أوي إنت مكبرها ليه.. تعال شوف الولاد في شارعنا بيعملوا في بعض إيه طول النهار..

– .. هز أبي رأسه وقال وهو ينصرف :

– لو إبنك ده جه ناحية بيتنا بس ألاقيه..

– هاتعمل إيه يعني..

– مش هاتلاقي إبنك تاني.. سامعه.. ياجربوعة ياواطيه..

– شوف الراجل.. هو إنت وولادك من عجينة تانية ولا إيه.. هم مشي زي عيالنا خلي العيال تلعب مالك..

– حقيقي لو طلع العيب من أهل العيب مش عيب يامره ياواطيه أديني نبهتك..

وخرج زكي أبو شاطيه من بيته المقابل لبيت ستيته ومشي مع أبي حتى سكة الترعة وأخبره أبي بما حدث لما سأله زكي عن ما جرى.. فراح زكي يضحك.. ليك حق يابه حداد بيتك بعيد.. دا ستيته وابنها بلوة من بلاوي الزمن.. هم كوم والشارع دا كله كوم.. معلهش يابه حداد ليك عندي أسفخة قلمين.. فهز أبي رأسه واعتمل في نفسه شيئاً وقال لي :

– تيجي تقعد في الدكان شوية..

– ياريت..

.. دخلنا الدكان في غير موعد مجئ صحبة أبي.. وجاءني عبده أبو سعده بتشكيلة من الحلوى ووضعها في حجري وراح أبي يدخن المعسل من بوصة الجوزة ويسحب دخانها الكثيف بشراهة ويخرجه من فمه وأنفه.. ورحت ألتهم الحلوى.. وبقدر الأسف وحزني اليوم عما حدث إلا أنه ملآني شعور بالقوة وأن أبي لن يترك كلباً واحداً يمسُ إبنه حسن بسوء..

واشترى أبي الحلوى التي تُحبها أختي سعاد ولما عُدنا الى البيت أعطيتُها حاجتها بيدي كما أوصاني أبي قائلاً.. أريدك أن تعطيها

بيدك حتى تقترب منك وتحبك، وحكي أبي لأمي وأمي لبيبه ما حصل مع ستيته الكيلانية وسعدتا بما فعله أبي وقالت أمي لبيبه :

– شارع أبو سمك عامل زي شارع الخارجة عندنا..

فقال لها أبي :

– حسن لسه صغير ما يقدرش على الشارع دلوقتي.. ولما يكبر هانقله يتعامل إزاي مع الشارع..

وقالت أمي :

– مش هايطلع الشارع تاني..

فردت عليها أمي لبيبه :

– إحنا مش ها نحبسه ولكن إذا كان عايز يقف على الباب نخليه يقف بس تكون واحده فينا قاعدة قصاده..

فقالت لها أمي وكأنها تشكرها :

– إنت يا لبيبه بتخافي عليه زيي بالضبط.. ربنا يبارك لك في العيال..

وراح أبي يضحك وأمي لبيبه إنسابت في ضحك متواصل وبعده قالت.. ياه ياحميدة بقه أنا بقالى عيال..

– أمال إيه يالبيبه.. سعاد وعبد العزيز بتوعك ويحبوك أكتر مني..

.. وقطع حديثنا دخول ام الرزق علينا بعد أن نادت يالبيبه.. وعندما وجدتنا نجلس في ربطه واحدة قالت وهي تتجه ناحية باب غرفة بنت أخوها :

– سا الخير.. ياترى فيه إيه..

فقال لها أبي :

– فيه إيه ياأم الرزق ناس قاعده في بيوتها..

فردت عليه في قسوه :

– مش العادة يا حداد..

– إتمسى يا أم الرزق..

.. وسعدت أمي بجفاء أبي معها ودخلت أمي من باب الوسط إلى قاعة الغموس لترص الفطير في طبق من الخوص.. ودخل أبي المندرة ليستريح بعد يوم متعب وكعادتي الجديدة عدلت الكرسي بجانب غرفة أمي لبيبه وجلست لأسمع حديث أم الرزق الكريهه مع بنت أخوها وكانت سعاد أختي بالداخل معهما..

وسمعتها تقول برزاله :

– عملتوا الفطير..

– أيوه ياعمه..

– أنا ماخدتش حق لحمة الأسبوع..

– دي عند حداد..

– حداد مابقاش زي الأول..

– العيال كترت ياعمه مش زي الأول..

– وأنا مالي.. أنا اللى ربيت حداد وحميته من بيت أبوه..

– هو عارف كده كويس وعشان كده هو بيحب دار خاله وبيحب بنت خاله لبيبه..

– كده طيب وأنا كُخه يالبيبه..

– ياعمه إفهميني صح.. إحنا كنا أهل أمه وكان لازم نعمل كده بدون أُجره.. إحنا عملنا الواجب وهو صغير وهو ماقصرش لغاية دلوقتي مع بيت خاله كله..

– دا عشان خاطره كنت مابخلّيش حاجة لقطيفه.. هو موت فايقه شويه..

– برضه مانظلمش.. الناس قالت كدة وهي قالت اللى قالته وهي بتموت لكن إحنا شفنا حاجه.. ربنا اللى شاف.. مافيش حد إتأكد من حاجه..

وضربت بقوة على صدرها وكأنها تصر :

– الحاج على هو السبب طرمخ على الموضوع وغطى ومافيش حد إستجرى يفتح الموضوع..

– أبويا الحاج على عمل كده لأنه بص لأدام دردير إبن قطيفة إبنه وحداد بن ستيته إبنه علشان العيال بعدين إخوات وعايزهم يحبوا بعض وكان لازم أي عمل لقطيفه يتردم عليه.. واحده عايشه بالغل والكره كان لازم للراجل ده ينهي الموضوع وعلى فكره لازم لكل بيت في الدنيا راجل واحد يمسكه.. الراجل ده طول عمره

كان بيبص لأدام.. وكان دايماً يقول ربنا إداني كل حاجة بس ما أعطانيش نسوان..

– ياه كل ده كلام عن الحاج على.. خلاص يالبيبه.. هات حق اللحمة علشان أمشي..

– هو بيديك كام في الأسبوع..

– حق رطلين لحمه..

ومن تحت هدومها في الدولاب دعبست بصوابعها شويه وقربت منها ومدت يدها:

– خدي عشرة صاغ.. كفايه..

– خلاص يا لبيبه دا معاملتكم كلكم إتغيرت..

– إنت عايزانا نعمل لك إيه أكتر من كده.. يعني نسجد لك ياعمه..

– فتحت فيَّه يالبيبه ما هو اللى مخسر الدنيا العيال اللى معاك..

– يعني دول مش ولاد حداد.. لو كان حداد غال عندك بصحيح يبقه ولاده غاليين.

– عياله دول مش منك دول ولاد واحده غريبه وياريت من بلدنا..

– واحده غريبة لكن جابت له اللى عايزه.. بكفايه حريقه ياعمه..

– دا إنت بقيت إنت وحميده واحد معقوله..

– يعني كل أعمالك والسحر اللي عملتيه وجبتيه بقالك أكتر من تسع سنين عمل إيه.. كانت الدار تقيد نار وخناق كل ده مانفعش ونفد أمر الله.. على فكره ياعمه ماتزعليش مني إنت وقطيفه من نوعيه واحده ماتعرفوش غير تكرهو..

– يانهار مشوم يالبيبه بتقولى إيه والله لأقول لإخواتك يشوفوا صرفه معاك..

– ياعمه أنا مسكت سبحه وبقيت أسبح بالليل والنهار أنا بصلي الوقت بوقته دلوقتي يمكن ربنا هداني.. هو لما العيال الصغيره تحبني مش ده من فضل ربنا..

وزعقت أم الرزق فيها وقالت في شراسه :

– خلاص خلاص خشى هات الفطير بكفايه كده إنت أذتيني أذيتي عمتك اللى عايزه مصلحتك..

ودخلت أمي لبيبه ولأول مرة تشاور أمي في عطائها لأهلها وقالت :

– أديِّ أم الرزق فطير أد إيه..

– ياه يا لبيبه بتشاوريني.. إديها زي ما بتديها..

– أديها إتنين..

– لأ تلاته..

.. والغريب أنني سمعت أبي وأمي لبيبه يقولون لها أم الرزق.. وكان قبل هذا اليوم يقول أبي ياخاله وهي تقول ياعمه.. هل بدأت كل منهما لا يحبها.. هل بدأ الحق يدخل بيتنا.. هل إنصلح حال

أمي لبيبه بسعاد وعبدالعزيز.. هل هذه فتره وتنتهي.. هل بموت قطيفه تنتهي جذور الكراهيه في بيتنا وإذا ماتت أم الرزق هل تنتهي بقايا الكراهيه..

.. كم سعدت بما سمعت ودخلت على أمي وحكيت لها ما جرى من حديث فدخلت أمي على أبي وقالت له مانقلته لها فقام الرجل وقعد على الكنبه وراحت الدموع تنسال من عينيه فانصرفت أمي إلى غرفتها وقالت لي :

– خليك شويه مع أبوك..

– فقلت لأبي وأنا أمسك بركبته :

– بتعيط ليه..

فأخذني أبي في حجره وضمني إلى صدره بقوه وراح ينتحب..

***

"عودة إلى جذور كريهة والشجرة حكاية حب"

لم يأخذني أبي إلى دار قريب عكيله الذي دعاه أن يتزوجها.. وكانت عكيله تسكن فوق رأس أرضها في بيت بسيط صغير عبارة عن حيطان تحتضن غرفة واحدة مبنى بها فرن.. وزريبه للجاموسة والحمارة ومعزتين.. وقبلها أبي رغم أنها أقل حلاوة من قدرية التي رحلت مع إبنها، ولكن أبي وجد فيها شيئاً يختلف عن زوجته السابقة.. وجدها حركه يعني حركات فأعجبه ذلك لأنه يريد بصفة دائمة عدل مزاجه الذي دائماً مايتعكر من كثرة الأحداث اليومية في الغيط والدار.. واتفق معها بوجود قريبها أنه لا يستطيع أن يأخذها لتعيش معه بصفة دائمة في غيطه وأنه عليها أن تأتيه في أي يوم تحتاجه فيه وأنه في نفس الوقت سوف يذهب إليها ماستطاع في دارها فوافقت.. وفي اليوم التالي هرب أبي مني وأخذ الحاج أمين مأذون القرية وعقد عليها في دارها وأعطاها أبي يومين لتجهز فيه نفسها على أن تأتيه بعد مغرب يوم الخميس.. وفي الموعد وضعت ملابس لها في مقطف أمامها وساقت حمارتها من أول ناحية شروه حسن وجاءته إلى داره في الغيط ليدخل عليها.. والجميل أن أبي بدأ يحكي لي كل شئ عن حياته وكان ما يهمني أن أعرف الأحداث الحاضرة التي تدور حولي.. والغريب أنني كنت أبتسم وأسعد سعاده لا حد لها بأن أبي الذي يبلغ منتصف العقد الخامس أو يزيد يحكى لولده الصغير الذي بلغ الرابعة من عمره منذ أيام. وآمنني على أسراره وحفظت كل أسراره في مكنون صدري وكنت أدعوله من كل حواسي لأنه فتح عيني على كل العالم حولي ورأيت في كل مشوار معه الجديد.. أحب الغيط وأحب غرفة التبن لأن أبي يسعد

في داخلها وأحب الساقية وليل سقية الأرض وأحب زريبه البهايم ورائحتها وأحب أن أرى المرأتين اللتان تحلبان الجاموس والبقر وأحب طبول مراكب الصيادين في عز الليل وأحب البحر واستحمام أبي فيه وبدأت أسحب البهائم من حبلها وأذهب بها مع أبي إلى البحر لنسقيها وأحب كل إمرأة تنادي أبي بخال حداد.. واحب كل الحب.. الحب الراقي في بيت لظيمه الخياطة وإبنتها سميرة بديعة الحسن والجمال وفي الليل أعشق دكان عبده أبو سعده وأموت في سماع حكاوي صحبته فيه.. وبدأت أهوي الجلوس على حرف الترعة وأحتضن بيدي الصغيرة شجرة الجميز إلا أنني عندما رأيت جسد العروس في دار الست لظيمه بدأت أقرف من رؤية أجساد الفلاحات وهن يغسلن القمح على شط الترعة.. وكنت أحب عمي محمود من بعيد لأنه كان يحبني من بعيد ولم أحب عمي دردير لأنه كان غشيماً في معاملة الأطفال وليس معي وحدي وهو رجل لا تعرف له أي إتجاه وهو لا يحب أحداً، وكنت أقترب من أي إنسان عنده بادرة حب فينفتح له قلبي لأن مقدار الحب في داخلي كبير وكنت في حاجة دائمة لتغذية هذا الحب وليس مهماً أن يكون الحب موجهاً لي ولكن مهماً أن أرى الحب بين الناس لأنني أشعر بأنني كالشرنقة التي تكاد تغادر بيتها إلى بدء حياة جديدة.. كنت دائماً أحاول الخروج من عالم حزين كريه حولي إلى عالم آخر فيه كثير من الحب.. والجميل الذي رأيته وكان جديداً على أنني في يوم ذهبت مع أبي الى الغيط وكان هناك عمل.. عزيق الدرة.. يعني قطع أوحش أو حصد الحشيش والنجيل التي تقترب من جذور عيدان الذرة وكان يعمل مع رجب نفرنا الدائم أكثر من

عشرة أنفار آخرين بالأجرة، وفي يوم مثل هذا تقوم أمي وأمي لبيبه بعمل لقمة طرية للأنفار وهي عادة ما تكون مخروطة باللبن والسمن، أو فطير مشلتت أو مد إيدك (كما يقولون) يعني لحمة أو فراخ.. هو يوم فرح عند الفلاح وحتى يهتم الناس بأعمالهم أنفار وأصحاب ارض ويبارك الله في عيالهم وأرضهم، والأكله الطيبة توجد في أيام حصاد القمح وجنى القطن وزراعة البطاطس.. وفي هذه الأيام التحق بالعمل عندنا ولد صغير السن اسمه فريد عوضي ولاحظت أنه يقول لأبي بفخر ياخال.. ياخال حداد.. كانت روحه أعلى من عمره العشرين عاماً، وكان أقرب الناس إلى قلب أبي وهو الذي ذهب إلى البلدة يوم العزيق هذا لجلب الغداء الدسم.. وكان يقول لأمي لبيبه يامرات خال.. وسمعته في يوم يقول لأمي لبيبه أقول للست أم حسن إيه.. فقالت له.. إوعه أحسن تديك بالجزمة هي مابتكلمش شركة (أنفار) فقال لها هو خالي حداد مرّقيها درجة عنك.. فتضحك أمي لبيبه وتقول له.. آه يابن أم العلو عشان هي بيضه وأنا سوده.. وكان هذا الولد دمه خفيف وكان يغني طيلة السكة من دار البلد للغيط لأنه يحمل أمامه فطير أو مخروطه.. حا.. حا.. فطير فطير.. حتى يصل إلى دار الغيط.. وعلمت في الأيام القليلة التي عمل فيها عندنا من أمي لبيبه أن أمه كانت وفيه جداً لأبي وودوده معه في الكلام وكانت تعمل عندنا بصفة دائمة قبل أن تموت وأنها ماتت قبل أن تتزوج أمي بأبي بستة شهور.. وكانت تكُبْ لأبي (تعمل له كاسات الهوا) وكان إبنها يعمل عند واحد من أسرة مخيون ولما إفتقر هذا المخيون الأخير "أي تدهور حاله.. جاء عندنا.. وفريد هذا آخر أبناء عبيد أسرة مخيون، لكن أمه كانت

تكره أهل مخيون جميعاً وكان كل مزاجها أن تعمل بصفة دائمة في دور الحاج على لكن هي أكثر رغبة أن تعمل في دار أبي لأن أبي كان يرتاح لها وهذه أم فريد كانت تهوي عمل كاسات الهواء وهذا ما لا يرغب فيه دردير ولا محمود.. وكان أبي يقول لها إيدك حرير.. فسألت أمي لبيبه :

– هو كان متجوزها..

– وش عرفني..

– هي كانت حلوة..

– كانت حركة..

– يعني إيه.. حركات وناعمة في الكلام..

– وازاي تسيبي أبويا لواحده تعمل له كاسات هوا ويتعري أدامها..

– كنت سايباه بكيفه وخدت على إني ما قدرش أقول له حاجه علشان مايزعلش مني.. هي الفكره اللى نشأت عند الجميع اللى كان بيهمهم إن أبوك يعيش وإن ماحدش يعترض عليه في حاجه وإن نسيبه يعمل الى هو عايزه..

– ياه للدرجة دي..

– كنا كلنا مش مصدقين إنه هايعيش ويمرق من تحت غل وكره قطيفه..

– وهو مين اللى رضَّع أبويا بعد أمه ما ماتت..

– ماحدش رضعه لأن عمره كان سنتين..

– بعد السنتين ماطلبش يرضع..

– هو العيل سنتين كفاية عليه رضاعه بس كانت ستُّه.. وسكتت..

– سِكتِ ليه.. ستُّه كانت إيه..

– سته كانت بتديه لبن عادي من الجاموس والبقر وكانت بتديه لبن حمير عشان يعيش..

– حكاية لبن الحمير دي كانت منتشره أوي..

– كانت زي الوصفه أو الرقوه أو البخور بس مش كل الناس كانت بتعمل كده..

– مش فاهم..

– الناس اللي عندها أرض كانوا عايزين ولادهم يعيشوا .. لكن الناس الفقرا ما كانوش يخافوا على ولادهم يعيش يموت ما تفرقش عندهم..

– يعني كان أبويا دلوعه..

– حاجة زي كده..

– أنا نفسي أعرف حكاية خالي حداد .. دا نص ستات البلد بتقوله يا خال..

– أنا عايزه أعرف زيَّك..

– أنا شربت لبن حمير..

– شربت لمّا درعته..

– علشان أعيش..

– كان الكل بيكره أو بيحب عايزينك تعيش..

– وليه لبن حمير..

– هوَّ أقرب لبن للبن الأم.. بيقولوا إن الليِّ بيشربه بيبقه زي الحديد..

– يعني إيه..

– يمكن تكون النسوان بتقول لأبوك ياخال من كده..

– مش فاهم..

– لما تكبر تفهم.. إنت لسه صغير أوي على الكلام ده..

.. كان حديثاً ممتعاً وصريحاً مع أمي لبيبه وعرفت أنها من الناس الذين يحبون أبي.. هي من أهله وزوجته وهي المفضلة عن أمي في العشرة الزوجية، وتأكدت من أن أهل أبي من أمه معهم الحق في أن يطمعوا في بيت أبي.. إنهم أهل أمه البسطاء الفقراء وشئ طبيعي أن يكون للمحتاج عشم في مال قريبه الغني.. ولكن ما أرفضه وأحاربه هو محاربة أمي.. لا أحد يتجاوز على أمي بالنظرة أو بالكلمة أو بتقريعه (يعني تريقة عليها)، وفي هذه السن كنت حريصاً في أن أجلس أمام المندرة فوق الكرسي لأتأمل وأسمع وأرى حكاوي شلة أهل أبي أمام باب غرفة أمي لبيبه، وهذه الشلة عادت مرة أخرى بعد إنقطاعها بتعليمات من أبي لهم إلا أن نجيب أخوها حرَّض الشلة في أن تعود مرة أخرى لعادتها كل يوم خميس، ورغم أنهم بدأوا

يتأدبون في التعامل مع أمي إلا أنهم يعودون بسرعة إلى عاداتهم وقباحاتهم فهم في الردح والشردحة تربية أصيلة، وكان أبي يروح ويجئ بينهم وبين مصلحة بيته وأمي فهو رجل طيب يريد أن يراضي الجميع ولكنه في كل الأحوال لا يستطيع قطع لسانهم خاصة إذا كانت غنيمه مرات عوني موجودة.. كرهت هذه المرأة منذ الطفولة وحتى كبرت إلى أن ماتت، وكانت رغم فقرها تتكبر.. بمعنى أنها كانت لها نفسية متكبرة رغم أن أهلها جميعاً فقراء إلا أنها من فرع أبو راكيه ويقولون عن هذا الفرع أنه فرع عويل إذا تملّك ظلم وعلشان كدة الفقر ليهم دوا، ويقولون أعوذ بالله من أبو راكيه لأنهم إذا إغتنوا ملأوا الحياة حولهم كرهاً وافتراءاً.. وبدأت في الجلوس بالقرب منهم في مواجهتهم إذا حضروا وقعدوا.. فكنت أنظر إليهم شذراً مرة تكون نظرتي إحتقاراً ومرة لشراهتهم في تناول الطعام وبدأت منذ هذه السن أبلبع لهم كأن أقول لهم في شجاعة وفطرة طفل:

– يامفاجيع..

– كـــ أمك ياغنيمة..

– ليك يوم يالبيبه..

– إنت خالة أبويا إنت ياأم دقة يازرقه..

– يلعن أبوكم واحد واحد..

وكانوا يسكتون ولا يستطيعون أن يردوا على لأنني طفل ولا يقدرون التجاوز معي ولأن أبي سوف يكون رده حاسماً عليهم..

كنت أشتمهم.. مره يسكتون ومرة أخرى يضحكون فيقولون واحداً بعد الآخر بعد كل شتيمة مني :

– لسه صغير..

– لما يكبر ماحدش هايقدره..

– قول كمان ياحسن.. كلامك حلو..

ويغرق الجميع في الضحك وكانت أم الرزق تنظر نحوي في كراهية شديدة وكنت أقابل كل نظرة لها بكلمة :

– يازرقه.. ياأم دقه.. ياأم شمار.. جتك نيله..

فتقول :

– جتك سخام دا إنت بلوه..

فأقول لها :

– ياأم عبدالرازق الورك.. ياللي متجوزة الورك.. ياوحشة.. رموك من وحاشتك للورك.. يارب تموتي يامره ياوسخة..

وعندما ما يصل الحد في أنني أجيب ليها شتيمه مغمسه كانت تقوم في عصبيه وتنصرف إلى دارها بعد أن تكون قد لعنتني :

– جتك نيله على أمك..

– يلعن أبو تلوانه وللي بييجي منها.. بقه إنت ياعقلة الصباع بقيت راجل وكنت أشعر بسعادة وإنتصار لاحد له عندما تنصرف وينصرف بعدها في خوف نجيب وزوجته سيده وتفيده مرات عبده وغنيمه مرات عوني وأولاد صغار كانوا يتبعونهم..

.. وشعرت يوماً بعد يوم بأنني قوي وانني رغم صغري فإنني كفيل بتوبيخهم واجبارهم على الإنصراف، وكانت أمي لبيبه تحكي لأبي وهي تضحك :

– حسن شتم خالتك ونجيب.. والله فرحانه بيه ياحداد..

ولم تكن تستطيع أن تقول له :

– أدِّبه ياحداد أو حاسبه هوَّ ليه بيعمل كده..

كانت تقول له بصفة دائمة أنها فرحانة بحسن لأنه يشتم وأنه كبر وأنه إسم الله عليه..

وكان أبي يرد عليها في كل مرة :

– وماله يستاهلوا.. من نفس الكيل يديهم..

وكأن أبي في داخل نفسه سعيداً بي وبقوتي على أي أحد، وكان يريد في قرارة نفسه أن يذهبوا بعيداً عن داره لأن كل وقت ليه أدان.. همَّ خدوا كفايتهم.. وخدوا اللى عملوه ليَّه وأنا صغير.. وفي قرارة نفسه أنه سيستمر في عطائه لهم ولكن ليس بهذه الميغه.. وصرَّح بذلك لأمي علناً وهو يكاد يبكي وأمسكت أمي بذراعه وهما يجلسان على الكنبه في المندرة قائله :

– وإيه كمان ياحداد..

– سيبي حسن عليهم..

وكان ذلك أمامي أسمعه وأنا جد سعيد وأجلس على الكنبه في مقابلة أمي وأبي فقلت له :

– يعني يابه مش زعلان..

– لأ.. يقولوا كلمة قول لهم عشره وأهو إنت في الأول والآخر عيِّل.. خليهم يضحُوا ويبقه عندهم دم شويه.. دا بقه لهم أكتر من عشرين سنة بياكلوا في جدتي يعني خدوا حقهم وزيادة.. وبعدين أنا خالي مات وستي ماتت ودول شوية الألاضيش المنتفعين بحجة إنهم أهلي.. بكفاية أوي..

– يعني أكيِّل لهم..

– إمسك بعد كده عصا واللى يغلط قوم عليه بالعصا..

– فقالت له أمي وكأنها لا تصدق ما قاله :

– يمسك عصا فرع توت يعني..

– لأ يمسك الشومه بتاعتي إللي ورا باب القاعة..

– بس دي تعَّور..

– تعَّور أنا زهقت منهم.. على العموم ياحسن هوِّش بيها وماتضربش أوي..

– وقلت وأنا في شدة إندهاشي :

– يعني كده إتفتح الباب..

– لازم تتعلم تدافع عن بيتك وعن أمك وعن إخواتك من دلوقتي..

– الله يابه الله..

– مبسوط..

– بعد السنتين ماطلبش يرضع..

– هو العيل سنتين كفاية عليه رضاعه بس كانت ستُّه.. وسكتت..

– سِكتي ليه.. ستُّه كانت إيه..

– سته كانت بتديه لبن عادي من الجاموس والبقر وكانت بتديه لبن حمير عشان يعيش..

– حكاية لبن الحمير دي كانت منتشره أوي..

– كانت زي الوصفه أو الرقوه أو البخور بس مش كل الناس كانت بتعمل كده..

– مش فاهم..

– الناس اللي عندها أرض كانوا عايزين ولادهم يعيشوا .. لكن الناس الفقرا ما كانوش يخافوا على ولادهم يعيش يموت ما تفرقش عندهم..

– يعني كان أبويا دلوعه..

– حاجة زي كده..

– أنا نفسي أعرف حكاية خالي حداد .. دا نص ستات البلد بتقوله يا خال..

– أنا عايزه أعرف زيَّك..

– أنا شربت لبن حمير..

– شربت لمَّا درعته..

– علشان أعيش..

– كان الكل بيكره أو بيحب عايزينك تعيش..

– وليه لبن حمير..

– هوَّ أقرب لبن للبن الأم.. بيقولوا إن الليِّ بيشربه بيبقه زي الحديد..

– يعني إيه..

– يمكن تكون النسوان بتقول لأبوك ياخال من كده..

– مش فاهم..

– لما تكبر تفهم.. إنت لسه صغير أوي على الكلام ده..

.. كان حديثاً ممتعاً وصريحاً مع أمي لبيبه وعرفت أنها من الناس الذين يحبون أبي.. هي من أهله وزوجته وهي المفضلة عن أمي في العشرة الزوجية، وتأكدت من أن أهل أبي من أمه معهم الحق في أن يطمعوا في بيت أبي.. إنهم أهل أمه البسطاء الفقراء وشئ طبيعي أن يكون للمحتاج عشم في مال قريبه الغني.. ولكن ما أرفضه وأحاربه هو محاربة أمي.. لا أحد يتجاوز على أمي بالنظرة أو بالكلمة أو بتقريعه (يعني تريقة عليها)، وفي هذه السن كنت حريصاً في أن أجلس أمام المندرة فوق الكرسي لأتأمل وأسمع وأرى حكاوي شلة أهل أبي أمام باب غرفة أمي لبيبه، وهذه الشلة عادت مرة أخرى بعد إنقطاعها بتعليمات من أبي لهم إلا أن نجيب أخوها حرَّض الشلة في أن تعود مرة أخرى لعادتها كل يوم خميس، ورغم أنهم بدأوا يتأدبون في التعامل مع أمي إلا أنهم يعودون بسرعة إلى عاداتهم

وسكره فيقوم شعبان بعمل ثلاثة أدوار من الشاي فمن كل علبة دور للشاي.. وفي أثناء ذلك تدار ثلاث جوز للمعسل.. أبويا دردير شرِّيب معسل زغلول له جوزته وحده، وأبي له جوزته وحده ويشرب معسل العنتبلي وكل الأنفار لهم جوزة وحدهم تلف عليهم واحداً بعد الآخر ويشربون معسل الدفراوي وكان قليل من الأنفار يشرب سجائر من علبة دخان فرط.. كأنها حفلة.. وقت الغداء تحت ظل هذه الشجرة القديمة الضخمة والتي تفرش ظلها في شكل دائرة ظليلة تحمي الجميع من أشعة الشمس طيلة فترة الغداء وطيلة النهار.. بعد ذلك يقوم الأنفار بالنوم في ظل الشجرة ساعة حتى يؤذن العصر.. بعدها يصلي من إعتاد الصلاة خلف أبي ثم يبدأ جميع الأنفار بالاستعداد للدخول إلى الغيط لإستكمال أعمالهم في العزيق أو الري أو الحصاد أو في حش البرسيم.. وبعد العصر عندما تُهب الطراوه يقوم بعض الأنفار بالغناء بصوت عال فيغنون حكايات الشعراء والمواويل الفلاحي فيُطرب بقية الأنفار في كل غيط.. وكان المَوال ومعانيه في كلماته تزيد الأنفار قوة في مواصلة أعمالهم حتى ينتهي يوم العمل في الحقول قرب آذان المغرب بقليل.. تدخل البهائم في حظائرها وتحلب النساء اللبن من الجاموس والبقر وتبدأ رحلة العودة إلى دور القرية بين أذان المغرب وقبل العشاء.. نساء يحملن المقاطف والأطباق فوق رؤوسهن.. منهن من تمشي حافية أو تلبس كتانله أو شبشب زحافي ومنهن من يركب الحمير وكذلك الرجال.. فرادي وجماعات في الطريق إلى البلدة رجالاً ونساءاً وأطفالاً.. وكان جميعهم يحكي حكايات كل يوم والآخرون

يستمعون.. كانوا يحكون بصوت عال ويضحكون حتى يصلون إلى مشارف القرية فيذهب كل منهم إلى شارعه ويدخل داره..

.. وعيت كل ما رأيته منذ أن ولدت وما سمعته من أمي ومن أبي ومن أمي لبيبه ومن أم إبراهيم وما تأملته على شط الترعه وفي الكفر وفي الغيط.. كانت الكلاب في البلد لا تعد ولا تحصى والذئاب تحيط بها من كل جانب وكانت الثعالب تحت القناطر وفي كل المزارع وكانت البيوت فيها أسرار وعجائب وكانت الكراهية تفلق الحجر والأبواب المقفلة عليها تكتم ما في القلوب من ضغائن.. كانت الكراهية تحيطني من كل جانب ونباح الكلاب في قريتي حتى تخاف الذئاب والثعالب.

تمت بحمد الله،

خيري حداد أبو عافيه

٢٠١٠/١٢/٢٥م

سيرة ذاتية

- خيري حداد أبو عافية
- عضو اتحادكتاب مصر
- صدر له :

المرأة آلهة الحب

السطح الأملس

المدينة الحافية

قصور العبيد

نساء وجياد

الزلزلة